الانسان الكامل الوجود طاقة خلق وفعل

يسر مجلة « الحياة الثقافية » ان تنشر الجزء الثالث والاخير من الحديث الذي ألقاه الاستاذ محمود المسعدي في طلبة المعهد الثانوي بالقصرين وأساتذته يوم 14 فيفري 1975 عن أدبه ومؤلفاته « السد » و« حدث أبو هريرة قال ... » و « مولد النسيان » .

وقد أثار الاستاذ محمود المسعدي في الجزء الاول من هذا الحديث قضايا أدبية جوهرية كوظيفة الاديب ومفهوم الادب بوصفه التعبير الشامل عن الانسان (انظر العدد الخامس ، جانفي فيفري 1976) .

وعالج في الجزء الثاني المحاور الاساسية التي يقوم عليها كتاب « حدث أبو هريرة قال ... » (انظر العدد السادس ، مارس افريل 1976) .

أما في هذا الجزء الاخير ، فالاستاذ محمود المسعدي يحلل رواية « السد » باعتبارها تعبر عن تجربة انسانية ومسؤولية بشرية في هذا الوجود .

على مثل هذا الاساس يمكنكم ان تتناولوا « **مولد النسيان** » أو رواية « **السد** » . فـ « **السد** » موضوعها تجربة انسانية محصورة الحدود والابعاد . فهي لا تروي قصة مغامرة وجودية تتناول جميع أطوار الحياة . بل جماع ما فيها وصف حالة وجودية عاشها بطل الرواية في وقت معين وفي مرحلة معينة من حياته ، عندما سلك مسلكا واتخذ منهجا للاضطلاع بمسؤوليته في الوجود . وكان ما يقتضيه المسلك الذي اختاره أن يكون رجل عمل وفعل وجهاد ، وأن يكون متمردا على كل ما يدعو الى الاستسلام والاذعان ، والى الرضى بما هو موجود كما هو موجود ، وأن لا يرضى الانسان بما تعطيه الاقدار او تقدمه له من حياة أو وجود معطى كما هو ، ليأخذه كما هو ، ويرضى به كما هو ، ويحيا معه كما هو ، حتى اذا انتهت الحياة انتهى كل شيء . لأن ذلك يتناف مع واجب الانسان ومسؤوليته ومع شرفه ، ما دام الانسان وجد ليكون بل ليخلق نفسه وينحت ذاته حينا بعد حين ولحظة بعد لحظة طول حياته . وهو مسؤول أيضا بأن يسهم في خلق حياة ومصير كل ما حوله ، فان هو لم يغير نفسه وما بنفسه ولم يغير ما حوله ، فقد استسلم وأذعن ورضي ـ عوض أن يقوم بمسؤوليته الانسانية ـ بأن يكون عاجزا مقصورا أو مريضا عليلا كالأعرج أو كالأشل . بينما الانسان الكامل الوجود هو قوة عاملة وخلاقة أي طاقة خلق وفعل ، فاذا هو لم يكن كذلك فهو إذن إنسان عاجز ناقص : منقوص الشرف ، منقوص الكرامة ، منقوص الوجود .

المسؤولية الوجودية في « السد »

تلك هي النظرة أو الطريقة أو الاتجاه أو الفهم للحياة الذي هو خلاصة وعي « **غيلان** » للمسؤولية الوجودية . وجماع ما تقصه الرواية تعبير عن ذلك الفهم للحياة ووصف لجهاد مأساوي في سبيل إقامة السد قصد امتلاك طاقة الحياة والسيطرة عليها واستعمالها . ولا يدرك ما في السد والماء من رمز الى الحياة والخلق إلا بالرجوع الى مفاهيم ومعاني تعود بنا الى المحيط الثقافي العربي الاصيل ، ففي أدبنا وتراثنا الثقافي وفي معتقداتنا وتصوراتنا ومفاهيمنا الفلسفية ، في كل ذلك نجد ما لخصته الآية الكريمة : « **وجعلنا من الماء كل شيء حي** » فالرمز الى الحياة أو الطاقة الخلاقة بالماء منتزع من هذه الآية القرآنية بواسطة

السد وجمع المياه وإحبال الارض حتى تلد الخيرات كما يقول « **غيلان** » . كل ذلك يعود الى معنى الخلق – الخلق للحياة – الذي هو المسؤولية الاولى للانسان أو العنصر الاول على الاقل من مسؤوليته في الوجود .

ويقابل موقف « **غيلان** » هذا موقف « **ميمونة** » ، « **ميمونة** » التي تقول أن في جهاد « **غيلان** » عنادا وأن في سعي الانسان أن يرتفع عن منزلته نوعا من الكفر ، لانه بذلك يحاول أن يكون كالرب الذي يخلق وأن يشارك الله في عملية الخلق . فكأن « **ميمونة** » تعتقد أن الخلق من خصائص الاله ، فمن الكفر أو من العناد على الاقل أن يتأله الانسان أو أن يتشبه بالله عندما يريد أن يبدع وينشىء ويخلق ، لانه غير راض او غير مكتف بما خلق الله وبما أعطاه الله وبالحياة كما هي . ويستنكر « **غيلان** » هذا المنطق – منطق « **ميمونة** » –ويقول انه لا يرى أن وظيفة الانسان في الوجود هي هذه أو ان مسؤوليته تقف عند هذا الحد أو ان شرفه كانسان يتلاءم مع مثل هذا ، بل هو يكاد يحصر شرف الانسان ومسؤوليته ووظيفته في أن يكون خالقا منشئا مبدعا ، طاقة خلق مطلقة في الحياة ، لا أن يكون كائنا خاضعا مستسلما منساقا . وإنكم لواجدون هذه المشكلة مفصلة في ما كتب طه حسين وفيما أجبت به طه حسين حين وضحت أن نظريتي في هذا الكتاب أو فهمي وتصوري للمنزلة الانسان راجعة الى عناصر اسلامية سواء فيما يتعلق بشخصية « **ميمونة** » أو فيما يخص شخصية « **غيلان** » .

ونفس هذه المشكلة التي عبرت عنها في « **السد** » بهذا الشكل وفي هاته الصورة ، هي التي تجدونها في كتاب « **مولد النسيان** » ، مبسوطة في أسلوب آخر ، أسلوب وسط بين الادبي والفلسفي ، في حديث « **المسافر** ».

رؤية الشرق والاسلام للمنزلة الانسانية

المشكلة المعروضة هناك لا في صيغة بسطة فلسفية أو مقالة أدبية تحليلية منطقية .بل في شكل تأملات وتصورات وخواطر هي المقارنة بين ما كنت في ذلك الوقت أظنه نظرة الشرق أو الموقف الشرقي في الحياة ومن الوجود ، وما كنت أراه في ذلك الوقت الموقف الغربي أو تصور الغرب والحضارة الغربية للمنزلة الانسانية وللمسؤولية الوجودية . فعند شخص « **المسافر** » نوع من الميل الى الموقف الاول الذي هو في الجملة موقف شرقي أو اسلامي في معنى الاستسلام والاذعان والرضى بما رضي الله ، والتعظيم لما خلق الله ، مما يجعل المسلم يهتف سبحان الله أمام كل ما خلق الله ، ظنا منه أن في هذا الموقف من الروحانية ومن الاذعان لارادة الله والاحترام لمشيئته والاجلال والتعظيم لما أنشأ وكون ، ما هو أقرب الى الايمان من الموقف الآخر الذي فيه عناد أو شبهة عناد .

ويليق هنا ، فيما يتعلق بهذه القضية ، أن أذكر بما جاء في أدب الروائي الروسي « **دوستويفسكي** » ، الذي شد ما تأثرت بعه عند تكويني ، أي عندما كنت أتساءل وأبحث خلال الآداب العالمية قديمها وحديثها وعند مختلف الكتاب والادباء والشعراء عما يعطيني جوابا عن الاسئلة التي كانت تخالجني : ما حياتي ؟ ما وجودي ؟ ما معنى الكيان ؟ ما معنى الانسانية ؟ . ومعروف أن « **دوستويفسكي** » هو الذي يقول : ان **المتمرد** عن الواقع ، المريد تجديده وتغييره ، كافر بالله ، وان الذي هو أقرب الى الله هو الانسان الذي يكون مذعنا خاضعا راضيا بما قضى الله . ومثل هذا التصور للمسؤولية الانسانية يوجد عند كثير من المسلمين من الذين يقولون بما يسمونه القضاء والقدر ويظنون أن أصدق الايمان أن يرضى الانسان بما أراده الله ، أو ما يتصورون أن الله أراده ، وانه من الكفر ومن العتو ومن المعاندة أن نحاول الخروج بالمنزلة الانسانية عن حدودها ، وتلك حدود الله ....

إن الكثيرين منكم أيها الشباب ، لم يعرفوا العهد الذي عرفناه نحن في شبابنا ، عهد كان آباؤنا يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم كلما ذكر أمامهم الغرب أو الافرنج الذين كانوا يقولون فيهم : « **هؤلاء الكفار لم تغلبهم إلا حيلة الموت** » ، أو كلما رأوا بعض الآلات الميكانيكية العصرية المستوردة من الغرب التي كانوا يرونها كلها من عمل الشيطان وكلها كفرا . في ذلك العهد كان آباؤنا في الجملة يرون أن « كفار » الغرب باختراعاتهم وآلاتهم يتعالون الى السماء ، وفي ذلك من الكفر ما أشارت إليه الآيات القرآنية في الحديث عن فرعون (1) . كانوا يظنون أن هذه الحضارة الغربية وهذه القوة المادية وكل ما يأتينا من الغرب ليست إلا مظاهر للكفر وللعناد ، ويعتقدون – على غرار تصور« **دوستويفسكي** »-أن خير الايمان ما يكون إذعانا واستسلاما للأقدار .

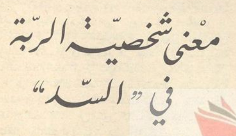
ونحن نحمد الله على أننا لم نقلد آباءنا في هذه الرؤية الخاطئة . بل ان الجيل الذي أنتسب أنا اليه قد بذل من الاجتهاد في الرأي والسعي الى استجلاء حقيقة منزلة الانسان ورسالته في الكون كما يتصورها الاسلام ، ما مكننا من أن نكتشف فيما بعد أن في عقيدتنا الدينية وفي

تراثنا التفكيري الاسلامي وفيما محص به محمد – صلى الله عليه وسلم – ومحص به القرآن المنزلة البشرية والمسؤولية البشرية ، ما يفرض أن يكون الانسان مسؤولا وأن يكون خالقا مبدعا منشئا ، وإلا كان مسلما ناقص الايمان بالله ، لأن الله حمل الانسان الامانة التي أبتها السماوات والارض حين أراد أن يجعل من الانسان خليفته في الارض ، بصريح عبارة القرآن – ولست أذكر الآية بالضبط لأني لم أحفظ القرآن في صغري وإنما حفظت شيئا كثيرا منه بالمعنى وبالمطالعة المستمرة (2) – وتلك الامانة التي لم تجرؤ السماوات والارض على تحملها وقبلها الانسان هي مسؤولية أن يكون هو خليفة الله في الارض .

وهل يكون الانسان خليفة الله في الارض إلا إذا أظهر قدرته على الخلق بواسطة ما سماه الله « **العمل الصالح** » الذي منه تحسين المنزلة البشرية وخلق ما به لا تزال منزلة الانسان ترتفع دوما درجة فدرجة الى ما لا نهاية له على كر العصور ، سواء باعتبار مقوماتها المادية ، أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو أبعادها المعنوية والاخلاقية والفكرية ؟ في هذا حينئذ تلخصت عند « **غيلان** » مسؤوليته الوجودية ، ومسؤوليته كانسان يريد أن يحقق رسالته في الوجود على أكمل وجه ، كما تلخصت عند « **ميمونة** » في هذا الاذعان لمشيئة الله والانسجام مع الكون بنفس راضية مرضية ، الذي هو من مظاهر الاحترام والاجلال ، وأيضا في هذا النوع من الاحساس الذي يجعل السعادة في تجنب التوتر والعناء والجهاد والعذاب ، والسعي الى هذا الاتفاق مع الكون الذي به تصبح النفس مطمئنة حديرة بأن تخاطب بقوله تعالى « **فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** »

ولكن ليس هذا هو النوع الوحيد من السعادة الصحيحة ، فهناك نوع منها قد يجده طالبه في العذاب وفي الجهاد وفي العناء . فسعادة « **غيلان** » سعادة صحيحة وحقيقية ، وسعادة « **ميمونة** » كذلك سعادة صحيحة وحقيقية ، لأنهما قائمتان على تصورين مختلفين ، للحياة وللمنزلة الانسانية .

تلك هي القضية في جوهرها ولكنها لم تعرض كما قلت لكم في شكل بسطات فلسفية أو تحليلات منطقية ، بل وردت في شكل مواقف حية . فهذا الشخص يحيا هذه التجربة بحسب ما يشعر وبحسب ما يتصور ، ويعمل بحسب عواطفه وتصوراته ، وذلك الشخص الآخر يعمل ويتكلم ويتحرك بحسب ما يحس وبحسب ما يتصور . فخذوا الشخصين حينئذ – شخصي « **غيلان وميمونة** » – وحللوا ما يقول هذا وما يقول ذاك وما يفعل هذا وما يفعل ذاك ، على معنى أن الفعل والقول إنما هما من الظواهر التي تشهد بما في باطن النفس ! ولئن بدا « **السد** » للبعض غامضا أو صعب الفهم فأولئك الذين يحتاجون لكي يفهموا أن يوجد في طرة الكتاب الى جانب كل ما يقول « **غيلان** » أو ما تقول « **ميمونة** » تفسير وشرح من نوع : تنبه فانه ان قال « **غيلان** » كذا فلأنه يشعر بكذا ولأنه يريد أن يفهمك كذا ، أو لأنه لا يريد أن يتوقف رغم الصعوبات ، وإن هو غضب واحتد حين تحاسبه « **ميمونة** » وتحاول أن تحرك في نفسه الشك وأن ترده عن سبيله ، فلأن كلامها قد أوقع في نفسه شيئا من التردد أو من الخوف الذي لا يريد أن يعترف به ولا يريده أن يتغلب على نفسه ، فهو يدفعه ، ويرده بشيء من العنف وفي لهجة الغضب على قدر ما يحس بأن كلام « **ميمونة** » قد وقع في أحشائه وكاد أن يشككه في نفسه ويفكك من عزيمته .



معنى شخصية الربة في « السد »

وأريد أن أضيف الى هذا كله أن من بين ما لم يفهم على وجهه في هذه الرواية هو بعض المناظر الاولى التي تتتابع وتتوالى دون أن يتضح لها سر . فهناك المنظر الاول الذي يضع الاطار المادي إن شئتم ، بل بعبارة أدق الاطار المكاني للرواية ويشير بالخاصة الى عنصر أو شخص سيكون له دور هام في الرواية ألا وهو شخص الربة التي هي في الحقيقة مجرد رمز . وتلك هي مقدمة عامة أو مدخل للرواية تتبعها فصول أو مناظر مختلفة منها منظر سدنة صاهباء أو الأصوات والهواتف التي تنذر ، والتي ترمز كلها الى ما يجده الانسان المقدم على مسؤولية الخلق في الكون من قوى تقاومه ومصاعب تعترض سعيه ، وتلك عراقيل متنوعة ليست بشرية أو مادية فقط ، بل هي أيضا قوى مناوئة كامنة في الكون نفسه . وأنتم تعلمون أن البشرية لا تزال من أول الخليقة في صراع مع القوى الطبيعية المناوئة لها ، ولا تزال على كر الدهور تحاول بوسائل العقل والتفكير والعلوم والفنون أن تجد السبيل الى السيطرة على تلك القوى ، وكل تاريخ البشرية يشهد بما قطعته من أشواط في هذا الميدان وكيف تغلبت شيئا فشيئا على القوى الطبيعية التي كانت قاهرة لها في العصور الاولى حاكمة عليها بالتوحش والبدائية ، فارضة عليها غرائب العقائد التي كانت تمتاز بها العقلية السحرية في تلك العهود العتيقة للفكر البشري . وقد كانت تلك العقائد السحرية كلها ناشئة أو ناتجة عن تخوفات البشر وأوهامهم إزاء هذه القوى الخفية

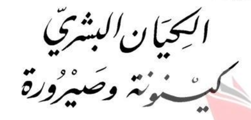
الغامضة المنطوي عليها الكون والتي لم يكن وصل الانسان في ذلك العهد الى فهمها أو التغلب عليها . كثير من تلك المعتقدات ناشىء مثلا عن خوف الانسان البدائي من الصاعقة ومن الرعد ومن الكوارث الطبيعية ومن الرياح . وكل تلك القوى الطبيعية الظاهرة وغير الظاهرة التي يشعر الانسان إزاءها بالعجز وبالضعف ، والتي أسكنت الرعب في قلوب البشر طوال مئات القرون هي التي يرمز اليها هذا الكلام الغامض وهذه الهواتف وهذه الربة التي خيمت جميعا على الرواية وخاصة على مناظرها الاولى بجو غريب يوحي بالخوف بل الرعب .

وهناك ناحية أخرى الى جانب هذا كله أريد أن أعرج عليها بكلمة إيضاح موجزة . وأقصد بهذا خاصة المنظر الذي يظهر فيه الرهبان سدنة صاهباء في دعائهم وترتيلهم ورقصاتهم ولغتهم الغامضة المبهمة التي جاءت عمدا غير دالة على معنى لانها لغة الذين ليس لهم ما يقولون ، بل الذين ليس فيما يقولونه شيء يستقيم للعقل وللمنطق ، فهم يمثلون القوة العمياء من البشر الاعمى ، الذي يتخبط في عالم اللامعقولية والجهالة . فكلامهم وأصواتهم كأنها آتية من أعماق العصور المظلمة ، عصور التوحش والبدائية واللاوعي . ولعل في ذلك ما يذكر البعض منكم ، بما كان موجودا في بلادنا الى عهد غير بعيد من أناشيد وشطحات تقوم بها الطرق « الدينية » المزيفة مثل العيساوية والتيجانية والقادرية وغيرها التي ورثناها عن عصور الانحطاط الفكري والديني . فهي رمز الى الرجعية وجمود العقلية التي تعارض في المستوى الفكري والعملي كل ما فيه تطور ورقي وتجديد .

المغامرة الوجودية مسؤولية مزدوجة تقتضي الجهاد والخلق معا

تلك هي العقبة الكأداء التي تقيمها « قوى الظلمات » في وجه كل الذين يرومون تغيير الواقع الموروث وخلق واقع جديد . ولا تقل عنها تلك العقبة الاخرى التي تظهر على صعيد الطبقات الجاهلة ، وقد صغتها في الرواية في شكل مقاومة العملة لغيلان وثورتهم عليه وعدم فهمهم لما وراء بنائه للسد من خيرات لهم . وعقبات أخرى مادية تنضم الى تلك،هي هذه القوى الطبيعية الهوجاء من زوابع وأعاصير التي تسببت في انهيار السد في خاتمة الرواية ... بذلك كله حاولت أن ألمح الى جملة الصعاب المختلفة الانواع الغاشمة القاهرة التي يجب على الانسان ، اذا أراد أن يقوم بوظيفته في الوجود ، أن يتغلب عليها أي أن يجهد ويجتهد ويجاهد حتى يسيطر عليها شيئا فشيئا . وعلى هذا الوجه ، أو على هذا المعنى ، تصبح المغامرة الوجودية أو مسؤولية الكيان مسؤولية جهاد وكفاح بالاضافة الى أنها مسؤولية خلق وإنشاء ، مسؤولية مزدوجة لا يتميز فيها معنى الجهاد عن معنى الخلق .

تلك هي الصورة التي سعيت بواسطة رواية « **السد** » ، وقصة « **غيلان** » وتجربته الوجودية و « **ميمونة** » وتجربتها الوجودية ، ان أرسمها عن مغامرة الانسان في سعيه الدائب مدى الحياة : يصنع وجوده ، وينحت كيانه ، ويمحص ذاتيته ، فيخلق منزلته .



الكيان البشري كينونة وصيرورة

بهذا أكون ــ سيداتي سادتي ــ قد بلغت آخر حديثي اليكم . ومع ذلك فاني أود أن لا أختم هذه الكلمة بدون أن أعرج على مسألة أخرى أراها أساسية لفهم ما قدمته من أدبي كله ، وما أردت أن أمهد له السبيل في الادب العربي وأجعل منه كسبا فكريا أو ثقافيا جديدا يدخل في رصيد أدبنا الحديث ويساعده على بلوغ مستوى الآداب العالمية الاخرى . وهي مسألة قد ترجع بنا من بعض وجوهها الى ما قلته في أول كلامي من أني لا أتصور الكيان البشري على أنه معطى قار بل على أنه كينونة وصيرورة .

وهنا أريد أن أنبهكم الى أن من المشاكل المزمنة في أدبنا العربي ، وثقافتنا العربية ، أننا حتى عهدنا هذا لم نستطع أن ندمج البعد الزماني في تصورنا للحياة بصفة عامة وبالاخص في تصورنا للكيان الانساني سواء في مستوى الفرد أو مستوى الجماعات . لم نستطع الى حد الآن أن نتخلص من تصور ورثناه عن القرون الوسطى هو تصورنا للكيان الانساني وللحياة البشرية مجردين عن كل تطور زمني وعن كل تدرج تاريخي ، أي أننا لم نهتد الى أن الكينونة لا تتحقق بل لا يمكن أن تتحقق بدون ديمومة وصيرورة . فالبعد التاريخي أو البعد الزمني للكينونة الفردية وللكينونة الجماعية مفهوم لا بد لنا من أن نوطن أنفسنا على ادماجه في تفكيرنا وشعورنا وتصورنا للوجود . لذلك أردت في عامة الروايات التي كتبتها أن تكون الاشخاص التي وصفتها ورويت قصصها ومغامراتها

شواهد تشهد بصفة واضحة أن الصيرورة (أي تجدد الحياة) ملازمة للزمان ، وانه لا يمكن أن يكون هناك كيان ولا تصور للكيان بدون صيرورة أي بدون انتقال من حالة الى حالة على امتداد من الزمان . الخلق حينئذ مستحيل في غير الزمان . ولا يمكن أن نتصور شيئا موجودا لا يدوم وجوده أي لحظة زمانية ، أي بدون أن يكون وجوده قائما على امتداد أصغر امتداد من الزمان . وما قد نتصوره من الوجود المطلق انما نتصوره بالنسبة الى الله ، الذي يسمى واجب الوجود ، أو هو عين الوجود المطلق الذي هو نقيض معنى الزمان . أما على صعيد الحياة وفي مستوى البشر والكيان البشري فانه لا وجود الا بزمان ولا تصور عقلي للوجود بدون ديمومة زمنية ، بالنسبة للاشخاص والجماعات على حد سواء ، فمصيرنا وحياتنا أفرادا وجماعات مرتبطان وجوبا بالزمان .

لذلك أصبح اليوم من الحقائق العلمية المركزة في صميم العقل ما يفرض علينا أن لا نتصور المجتمع الا على أنه كائن جماعي متطور متغير ، ولا نتصور مسؤوليتنا الوجودية ومنزلتنا البشرية الا على أنهما حائلتان أي متحولتان متطورتان متغيرتان . وكل ما قد نجده في بعض المعتقدات أو المذاهب الفلسفية القائلة بأن هناك صورة قارة باقية خالدة سرمدية لما هو الوجود الانساني ، أو لما هو المجتمع الانساني ، وما هي الحضارة البشرية ، كل ذلك وهم وتيه في متاهات الخيال المتنكر للواقع الحي .

وأنتم تعلمون أننا قاسينا من هذا في الماضي ، وذهبنا في كثير من الاحيان الى أن الوجود الانساني شيء ثابت مقرر الملامح ، قار كما هو في كل زمان ومكان ، أي أننا كنا نراه قالبا ثابتا ينبغي لكل واحد منا أن ينصب فيه ليصبح بذلك انسانا . وهل لاحظتم أنه لم يوجد عندنا أدب للاطفال الا بعد أن أخذنا ذلك عن الآداب الاخرى من باب التقليد ، فأدبنا العربي الذي يعد عشرات القرون ، وله تاريخ يمتد على أكثر من 1.400 سنة ، ليس فيه شيء يسمى أدب الاطفال ، وليس فيه كتاب واحد تجدون فيه تحليلا لنفسية الاطفال أو الشباب أو وصفا لمغامرة نشوء الانسان طوال عهد الطفولة والشباب ، وليس فيه الا كتب نادرة تصدت الى تحليل النفسية البشرية ككتاب « **البخلاء** » للجاحظ أو « **كليلة ودمنة** » وبعض « **المقامات** » لبديع الزمان الهمذاني ، ولا أقول ذلك في « **مقامات** » الحريري فليس فيها تحليل لنفسية ما .

ولئن وجد في الادب المعاصر بعض التحليلات النفسية ، فان باقي أدبنا في الجملة لا يعتبر أن النفس البشرية لها أطوار وحالات وأن تكوين الذات الانسانية لا يتم الا عن طريق أطوار وتجارب وحالات مختلفة ، وان تقلب النفس البشرية بين تلك الحالات والاطوار وما يترتب عنها من أهواء وعواطف ونزعات وارادات متقلبة بتقلب الظروف والأحداث هي التي يصفها الأدب مثلا بواسطة الروايات المسرحية التي تصور لنا أشخاصا تتطور بهم الاوضاع النفسية مرحلة فمرحلة الى أن تصل بهم الى ما يسمى في الروايات المسرحية بالعقدة — فحل العقدة . والرواية الصالحة عند كبار المسرحيين هي التي تنتقل بالبطل أو بالاشخاص من حالة نفسية مأساوية (أو درامية على وجه ما) الى حالة بعدها فالى حالة أخرى تفضي الى حالة نهائية تكون هي نهاية تلك الفترة من المغامرة أو التجربة الوجودية التي رامت الرواية تصويرها . وهذا ما لم نكن نجد مثله في أدبنا العربي لأننا بقينا زمنا طويلا نعتبر أو نتصور النفس البشرية والكيان البشري على أنه شيء معطى لا يربى وقار لا يتطور وجامد لا يتبدل ولا يتجدد . وقد بدأ أدبنا الحديث يتفهم ذلك الآن ويحاول أن يعطينا عن الاشخاص الذين يصفهم صورة لوجودهم وكيانهم يختلط فيها معنى الديمومة الزمنية بمعنى الصيرورة الوجودية . وهذا ما تجدون عنه شواهد سواء في رواية « السد » أو رواية « **حدث أبو هريرة قال ...** » أو في « **مولد النسيان** » الذي عالج هذه القضية بالذات قضية أن الحياة ملازمة للزمان ، والزمان ملازم للفوات والمضي والانقضاء ، وانه لا يمكن أن تكون حياة تخلق وتنشأ بدون زمان ، والزمان هو الحدوث وهو التغير وهو التنقل من حالة الى حالة ، وذلك معنى أن الزمان هو الاستحالة أي موت وحياة في نفس الوقت .

تلك هي ، أيها الملأ الكريم ، جملة القضايا الاساسية التي قامت عليها هذه الكتب الثلاثة والتي على ضوء ما حاولت أن أبين لكم من جوانبها يمكنكم أن تحللوا نفسيات الاشخاص وأن تتبعوا مراحل مسيرتهم طوال التجربة الوجودية التي يعيشونها أمام أعينكم والتي تتصفحونها منظرا بعد منظر وتتعقبونها خطوة بعد خطوة من أول مشهد أو سطر من الكتاب الى آخر القصة .

واذ بهذا أكون قد بلغت أنا أيضا نهاية حديثي — راجيا أن تكونوا وجدتم فيه بعض ما ينفع — فليكن آخر قولي : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ■

محمود المسعدي

1) الاشارة الى قوله تعالى : وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب ، اسباب السماوات فاطلع الى اله موسى (غافر 35 — 36) .

2) الاشارة الى قوله تعالى : انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال ، فابين ان يحملنها واشفقن منها ، وحملها الانسان (الاحزاب). اما الآيات التي فيها ذكر « الخلافة » فهي عديدة ، والاشارة الى قوله تعالى : واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة (البقرة 29) والى قوله تعالى : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم (النور 55) .

عثمان الكعاك في ذمة الله



لفظ عثمان الكعاك آخر نفس من حياته بمدينة عنابة بالقطر الجزائري الشقيق ، حيث التـام الملتقـى العـاشر للفـكر الاسلامي ، وذلك في فجر اليوم (الخميس 16 جويلية 1976) الذي كان يتهيا فيه لالقاء محاضرته في هذا الملتقى ، كعادته منذ احداثه .

ويعد الاستاذ عثمان الكعاك من ابرز رجـالات الفـكر الاسلامي منذ العشرينات الى هذا اليوم .

فقد مارس الحياة الفكرية والثقافية بنفس طويل وجهد متواصل قرابة نصف قرن ، فتفتقت فيه عبقريته وابدع قلمه .

وعثمان الكعاك من مواليد 15 اكتوبر 1903 ببرج البكوش (بضاحية قمرت) فهو من اسرة تونسية عريقـة درس في الصادقية وتهيا بمفرده للحصول على شهادة الترجمة وسيطرت على مطالعاته محبة الغوص في اغوار التاريخ والاداب ، وتفرغ خاصة الى تاريخ الشمال الافريقي . وقد برز هذا الغوص بالخصوص في محاضراته ومسامراته وتآليفه الكثير عن المدن والقرى التي رسم فيها الانسان ماضيه .

وقد تعلم عديدا من اللغات منها الفارسية والتركية والالمانية والايطالية والاسبانية ، وتحدث بها واتقن الكثير منها ، واجاد بالخصوص في الفرنسية والعربية . وقد احرز في معهد الدراسات الشرقية على ثلاثة اجزاء من شهادة الاجازة في الآداب واللغة العربية .

وعند رجوعه الى تونس من باريس سنة 1927 عهدت له ادارة التعليم مهمة قلم الكتابة بالمدرسة العليا للآداب العربية . ثم قام بالتدريس بمعهد الدراسات العليا وسمي استـاذا بمعهـد الخلدونية .

وقد تقلب عثمان الكعاك في عدة مناصب ادارية ذات صبغة ثقافية اهمها الكتابة العامة للاذاعة التونسية ابان احداثها سنة 1938 الى سنة 1943 ، وعين مديرا للقسم الشرقي لمكتبة العطارين من 1944 الى 1956 ، ثم محافظا عاما لدار الكتب الوطنية من 1956 الى 1967 .

كما ساهم في اثراء الحياة الفكرية والادبية في جل جبهاتها وبالاخص في المحاضرات والندوات والصحافة.

وله تئاليف عدة منها : تاريخ الجزائر العام ـ بلاغة العرب في الجزائر ـ المجتمع التونسي على عهد الاغالبة ـ الادلة النورانية (تحقيق معاهد التعليم بالمغرب) الحضارة العربية في حوض البحر الابيض المتوسط ـ مصادر الفلكلور العراقي التقاليد والعادات الشعبية ـ ديوان حازم القرطاجنـي (تحقيـق) البربر ـ جغرافية تونس ـ رحلة الشابي ـ مصادر ابن خلدون ـ باجة ـ قرقنة ـ تاريخ الادب التونسي (ترجمة) اتحاف الظراف في تاريخ الكاف ـ تاريخ المسرح التونسي ـ تاريخ المسرح العربي (ترجمة) الوساطة في الخطاطة ـ العلاقات التاريخية بين تونس وايران .

كما قام بتقديم بعض الكتب والشخصيات التونسية منها تقديم لكتاب اغاني احمد خير الدين كما قدم شخصية الفنان التونسي احمد الوافي في السفر الاول (لنوبات المالوف) الذي انجزته ادارة الموسيقى والفنون الشعبية التابعة لوزارة الشؤون

الثقافية

وقد شارك في تحرير عدة مواضيع نشرت في الاربعينات بمجلة « المباحث » وكان في الفترة الاخيرة من بين من شاركوا بمقالاتهم في مجلة (الحياة الثقافية) .

وقام بتابينه عند توديعه الى مثواه الاخير الاستاذ محمود المسعدي وزير الشؤون الثقافية بكلمة عدد فيها مناقب الفقيد هذا نصها :

« بسم الله الرحمان الرحيم

الله اكبر ... الله اكبر ... الله اكبر

لقد شاء القدر الفاجع ان تقف تونس اليوم تونس العلم والادب ، في هذا الموكب الخاشع الذي تخيم عليه مشاعر اللوعة والاسى لتودع ، في شخص العلامة الكبير المغفور له الاستاذ عثمان الكعاك علما من اعلامها الخالدين وعبقرية فذة من عبقرياتها التي ساهمت بقسط وافر في بناء صرحها الثقافي وعالما مستميتا آمن منذ نعومة اظافره برسالة امته فبذل العمر كله للبحث والتمحيص وسخر الجهد في خدمة قيمها السامية ورسالتها الخالدة .

ولقد كان العلامة المغفور له مربيا ملتزما مارس التدريس وتلقين العلم منذ شبابه بالمدرسة الخلدونية اولا ثم بالمدرسة العليا للآداب واللغة العربية منذ سنة 1928 وقد آمن برسالته ورسالة جيله في بناء مستقبل بلاده وبعث جيل بناء متحفز للعطاء والبذل . وكان تغمده الله برحمته يقول : (نحن الاباء الروحيين ومعشر الاساتذة على الخصوص من اصحاب الجيل الاول مسؤولون عن تبين الحقائق لابناء الجيل الثاني واقناعهم بها وترسيخها في اذهانهم وتوجيههم نحو ايجاد الصيغة الموفقة لحضارتنا وثقافتنا في مستقبل الايام).

ولقد عرفنا جميعا في فقيدنا الكبير اديبا واسع الاطلاع ومؤرخا بارعا يقودك الى الاثر الخفي فيطلعك عن خفاياه . ويحدثك فاذا حديثه حديث العالم الذي ادرك جلية الامر فتبين الكامن من الحقائق ، وربما خلته حديث شاهد عيان يقظ قد تخلص من سلطان الزمان فواكب الاحداث في كل عصر وعلم من شانها ما لا يعلمه سواه ، وتتامل وتستخلص العبرة من الحديث فاذا هو ، في نهاية المطاف ، كشف للحقيقة وتصويب للخطا ، ودحض للمزاعم ودفاع عن ملامح ذاتيتنا الحضارية وكياننا الجماعي كما نحتتها الامة بجهودها على كر التاريخ .

وعرفنا الى جانب ذلك في فقيدنا العزيز طوال حياته المليئة بالخصال محاضرا مجيدا يحاضر فيشد منك السمع ويملك الانتباه ويفيد ويثري ولا تمل ولا تسام ، ووجدنا فيه الكاتب المعطاء الذي سخر قلمه للمعرفة والحقيقة منذ نشر مقالاته الاولى بالصحافة التونسية سنة 1920 وحتى الرمق الاخير من حياته . وقد كان مع ذلك رجل عمل وانجاز وتدبير وتخطيط ادار القسم العربي بالاذاعة التونسية من سنة 1938 الى سنة 1943 فاذا الاذاعة التونسية اداة لاظهار وجه الوجود العربي بتونس في زمن اراد فيه الاستعمار طمس معالمنا ومحاربة ذاتنا وانكار كل فضل لنا في الحياة . ثم تولى مهمة حافظ بالمكتبة الوطنية فاثرى رصيدها العربي ووجد فيها مجالا آخر للعمل من اجل الحقيقة والجهد المركز على البحث العلمي في سبيل ادراكها .

ان مناقب فقيدنا الكبير اكثر من ان تحصى . وسيجد فيها مؤرخو العصر الحاضر من تاريخ بلادنا مجالا واسعا للبحث والتسجيل ، لكن مصابنا هو اننا فقدنا بفقده ، عالما موسوعيا وملاذا للدارسين يحدثك ارتجالا في ما تثير من المواضيع فجاة فتحسب موضوع الحديث اختصاصا ومجالا وحيدا لاهتمامه قد قضى العمر يعالجه ولا يهتم بغيره ، وتتغير المواضيع وتتعدد فاذا الرجل واحد في علمه ودقته وبحثه . واذا انت مشدوه موقن بان الرجل نسيج وحده وبانه معين لا ينضب قد اخذ من كل شيء بطرف ، وانه يمثل صنفا من العلماء موسوعيا يعز على الدهر ان يجود بمثله . وتدرك ان مصابنا فيه جلل وتخشى ان لا يعزينا الدهر بمثله ، وتحاول ان تعزي النفس فتذكر ما ترك من مؤلفات فتجدها عطاء ثريا يذكي فيك الشعور بجلال الفقدان . وتدرك ان سنة الحياة قد فرضت فقدك لعزيز لا يعوض بالكتاب ، وان ما تعلل به من بقاء الذكر ليس اكثر من ملاذ ومفر من لوعة الالم واننا بالطبع لمشيئة الاقدار خاضعون لا نملك اكثر من ان نضرع الى السماء بطلب الغفران والرحمة للفقيد والسلوان والصبر لذويه ولاسرة الثقافة العربية التي نكبت فيه .

واني باسمي الخاص وباسم وزارة الشؤون الثقافية وباسم كافة المثقفين التونسيين لاتقدم الى اسرة الراحل الكبير وذويه الكرام باصدق التعازي واخلص مشاعر المواساة داعيا الله ان يتغمد فقيدنا العزيز بواسع رحمته وان يسكنه فراديس الجنان وان يرزقنا جميعا جميل الصبر والسلوان .

وانا لله وانا اليه راجعون .»

قلم التحرير

عنترة العبسي في قفص الاتهام

شعر: عمر التومي

قف يا زمان ..
الماء يجمد في مدينتي كالثلج في مدن الشمال
ومراكب التاريخ تسقط كالكلب المسلول
وتحوم حولها الغربان أيام يصلب الميت الحي
على مدارج العمر المجدور
ترحل عن بلدي وتفنى
وتموت
تاركة ناعورة الزمن تكتب على « مدريد »
قصة العقم واليباب ..
ترحل عني عبر أمواج القزوين
تتردى في كهوف « العائدين من الجحيم
الراجعين الى الجحيم ... »

★ ★ ★

تقرقر الجوزة في أعماقي
ويرن خلخال عليسة في القصر الملكي
يردد أغنية العشاق المكبوتين
متى تتكسر سلاسل الخوف
وتنشق في الاسفل بؤرة
وينهض عنترة العبسي في « حطين »
يبحث عن عبلة ؟

★ ★ ★

ذكريات تتلاشى رفضوها
قيدوا كل سجين ! ..
آه ما أحلك ماضي الرافضين
يحملون الشمس للآتي شموعا وحنين ..

★ ★ ★

تنهش الايام عمري
والمزاريب تنز بالشجون
يا رفاقي يسقط النمل على أعشاش هذا العصر
طاعونا وسل ..
يتعرى الزيف .. بنزاح القناع
ويلوح فوق أطلال المدينة
شبح أبي الهول ...
من يفتح القفل ويفضح جمجمة السؤال
قف يا زمان ...

★ ★ ★

أيتها الاروقة المنهارة
على جدار الزيف
متى يعود الطائر المشلول
وينسى في غربته الشرود والجنون
متى ؟ ..
سنبقى يا مدينتي نجرجر الهزائم السوداء
ونشرب الجفاف ، نأكل الصبار ...

★ ★ ★

العالم يسقط على رأسي
والحضارات تذوب في الخليج
والذئاب العور فوق السطح من أعلى القباب
يسلبون الضوء من عينيك يا أرضي الحزينة
والليل ما زال يناديني ..
يلتف خلف التيه من عام لعام
وقلبي المقروح بلا جذور
متى يأتي النشور ؟ ..
الارض ما زالت تدور ...

عمر التومي

دور العلوم الصحيحة في تنمية البلدان النامية

انتظم بمدينة باجة (بالشمال التونسي) ملتقى علميا اختص بالعلوم الصحيحة ، استغرقت اشغاله ثلاثة ايام من يوم 28 الى يوم 30 ماي 1976 لبحث قضايا « **العلوم الصحيحة ودورها في تنمية البلاد النامية** » من خلال إحياء ذكر أحد أعلام الرياضيات العرب هو علي القلصادي ، دفين مدينة باجة .

واندرج هذا الملتقى ضمن الملتقيات الادبية والعلمية والفنية التي نظمتها وزارة الشؤون الثقافية للخروج بالنشاط العلمي من إطاره الضيق الى نطاق اوسع حتى تكون كل ولاية مركز بحث ومصدر إشعاع .

من خطاب الاستاذ محمود المسعدي

وقد أشرف الاستاذ محمود المسعدي وزير الشؤون الثقافية على هذا الملتقى ، فألقى خطابا يوم الافتتاح بين في مستهله ما لتنظيم هذه الملتقيات العلمية والادبية والفنية بجميع ولايات الجمهورية،وتنويع محاور اهتماماتها،وتكاملها من دور في اعطاء الثقافة المفهوم الشامل ، فقال في هذا المعنى :

« **... اننا بمعالجتنا لهذه القضايا المتنوعة المتكاملة في نطاق الملتقيات نروم اعطاء الثقافة مفهومها الشامل القاضي بأن يستعمل الانسان عقله على نحو رياضي ويمارس بوجدانه كل ما يزكي قدراته ومشاعره ...** »

وقد حدد الاستاذ محمود المسعدي في خطابه الافتتاحي مفهوم الثقافة الشامل ، فقال : (**... لقد عرف علماء الاثنولوجيا الثقافة بانها جملة القيم والرؤى والمفاهيم والمباديء والاختيارات التي يستند اليها اي فرد او مجتمع بشري في سعيه الصانع الخلاق المبدع . وعرفها اصحاب النزعة التطورية الحديثة من العلماء المعاصرين بانها ديناميكية لها القدرة على الامتداد والتشعب والانتشار والنمو كما وكيفا شأنها في ذلك شأن الكائنات العضوية البيولوجية ، وعلى حد رأي الاستاذ « ليزلي وايت » في كتابه (تطور الثقافة)**

« فان الثقافة والحضارة نسق حراري ديناميكي يمكن تحليله الى ثلاثة عناصر رئيسية هي الطاقة والآلات والانتاج .

« فالحضارة والثقافة هي عمل آلي لاشباع حاجات الانسان ، ولكي يتحقق ذلك فلا بد من التحكم في الطاقة وتشغيلها ، بيد ان استخدام الطاقة يتطلب توافر اجهزة واساليب ووسائل تكنولوجية هي التي نطلق عليها « أدوات » أو « آلات » ونستخدمها في التحكم في الطاقة وتحويلها وبذلها الى انتاج السلع والخدمات التي تسد حاجات الانسان المختلفة .

« ويضرب « ليزلي وايت » مثلا لذلك في قوله (بأن صيد السمك وصنع الفخار ، وقص الشعر ، وثقب الاذنين لتعليق الاقراط ، وبرد الاسنان من أجل التجميل ، ونسج الملابس ، وما الى ذلك من العمليات الثقافية الكثيرة هي أمثلة للتحكم في « الطاقة » وبذلها عن طريق الوسائل والاساليب الآلية من اجل حاجات ومتطلبات بشرية معينة ...)

وذكر الاستاذ محمود المسعدي في سياق التأكيد على غاية الثقافة الحضارية والاجتماعية ومظاهر وحدتها :

« **... ولعل اهم تأكيد لغاية الثقافة وأروع صورة لوحدتها ، ووجهتها الحضارية ونسقها الاجتماعي هو هذا الموضوع الذي سوف تتطارحون فيه الراي ، وتعالجونه من خلال وجهة نظركم**

المتبصرة بوصفكم علماء يعنيكم ان تقولوا كلمتكم في القضية الكبرى التي تشغل بال العالم المعاصر ألا وهي قضية العلوم الصحيحة ودورها في تطوير البلاد النامية .

« ان الظاهرة التكنولوجية التي توشك ان تصبح نظاما عاما يحكم الاقتصاد المعاصر ، ومشكلة التفاوت بين العالم الثالث المتحفز للاقلاع والنمو ، وبين العالم المتطور ومسألة الفقر والغنى ، وتباعد الشقة كل يوم بين دول فاقت منجزاتها العلمية حد الخيال ، وبين دول اخرى عجزت عن مجرد التصديق بما وصلت اليه هذه الدول .

« كل هذا وغيره يتحدانا اليوم ، ويتحدى جميع المجتمعات السائرة في طريق النمو ويصمها بالعجز ومركبات القصور .

« وازاء ذلك فنحن لا نكاد نملك غير خيار واحد هو أن نجابه هذا التحدي ونواجهه بالعلم والبحث والتطلع ، وتكريس جميع مواهبنا العقلية لاكتشاف المعارف التكنولوجية بأنماطها المختلفة ... »

بهذا حدد الاستاذ محمود المسعدي ماهية الثقافة الحديثة وربطها بالظاهرة التكنولوجية التي توشك ان تصبح نظاما اقتصاديا عاما والفجوة السحيقة بين الدول المتقدمة وبلدان العالم الثالث في ميدان المنجزات العلمية التي اصبحت تمثل نوعا من تحدي العصر للمجتمعات السائرة في طريق النمو .

وختم الاستاذ محمود المسعدي خطابه بتحديد صبغة هذا الملتقى الاول لعالم الرياضيات علي القلصادي ، وهو ملتقى يبحث في موضوع العلوم الصحيحة ودورها في تطوير البلاد النامية . واهمية هذا الموضوع واتساع مجالاته وما تناوله الباحثون المشاركون في الملتقى من دراسات تتصل بالتطبيقات العلمية في مجتمعنا المعاصر ، قال الاستاذ محمود المسعدي : « ... ان موضوع العلوم الصحيحة ودورها في تطور البلاد النامية الذي ستركز عليه دراسات هذا الملتقى وما سيدور فيه من نقاش وبحث هو موضوع بين الاهمية واسع المجال وسيتناول بعض السادة الباحثين قضايا هامة تتصل بالتطبيقات العلمية في مجتمعنا المعاصر ومدى استجابتها لمطامحنا المشروعة في التطور والنمو ، واننا لنأمل ان تتطرق هذه البحوث والمناقشات الى مسائل اساسية هامة من قبيل انتقال التكنولوجيا من بلد الى آخر ومن البلاد المتطورة الى البلاد النامية والعلاقة بين الابتكار والاستيراد للخبرات التكنولوجية ، وهل استطاعت البلاد النامية ان تلائم بين ما تستورده من ابتكارات وبين اوضاعها القومية المتميزة ؟ وهل ان البحث العلمي في مؤسساتنا يعتمد العلم مصدرا للثروة القومية ويكيف طرقه واهتماماته بما يتلاءم مع اوضاعنا الخاصة ام ان مؤسسات البحث بالبلاد النامية تابعة في منهاجها واهتماماتها للجامعات العلمية بالعالم المتطور ؟ وهل ينبغي ان نركز الجهود على البحث العلمي الاساسي ام نوجهها الى القضايا العلمية المتصلة بالتنمية على المستوى القومي ؟

ان هذه الاسئلة وغيرها جديرة بأن تطرح وتعالج في ما اعددتم من بحوث وما سيدور من حوار ونقاش نرجو ان يساهم في توضيح الرؤية وإنارة السبيل ... » .

من هو القلصادي ؟

قبل ان نقوم بعرض دراسات الملتقى من حيث محاورها وأغراضها نود أن نقدم الى القارىء شخصية القلصادي عالم الجبر.

هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي ولد سنة 815 هجرية الموافقة لسنة 1412 مسيحية . وهو عالم الرياضيات والمؤلف الفرضي والرحالة . ويعرف بانه آخر من له التآليف الكثيرة من الاندلسيين . واكثر تصانيفه في الحساب والفرائض .

أصله من بسطة بالاندلس Baza ثم انتقل الى غرناطة فاستوطنها ، وأخذ بها عن جملة من العلماء ، كابن فتوح ، والسرقسطي وغيرهما ، ثم مرزوق ، والقاضي قاسم العقباني ، وأبي العباس بن زاغ . ثم ارتحل فلقي بتونس تلامذة ابن عرفة ، كابن عقاب ، والقلشاني ، وحلولو . ثم حج ، ولقي أعلاما ، وسمع بمصر من الحافظ ابن حجر ، وطاهر النويري ، والجلال المحلي ، والتقى الشمني ، وأبي الفتح المراغي ، حسبما ذكر ذلك في رحلته وهي جامعة لشيوخه بالمغرب والمشرق ، وجملة من أحواله . وعاد فاستوطن غرناطة الى أن حل بوطنه ما حل من الاسبان فتحيل في خلاصه فارتحل ، ومر بتلمسان ، ونزل بها على ابن مرزوق ابن شيخه . ثم جرت به الرحلة الى ان توفي بباجة افريقية (الشمال التونسي) في منتصف ذي الحجة سنة 891 هـ / 1486 م .

وقد اشتهر القلصادي بعلم الرياضيات وهو أهم ميدان برز فيه ونبغ . ومما يؤثر عنه ميله الى تبسيط المسائل الحسابية . وهو اول من استعمل الرموز والعلامات الدالة على العلاقات والمجاهيل . وهو اول من اختصر العمليات والمعادلات أيضا .

التنويع في اهتمامات الملتقى

رغم ان الملتقى يحمل اسم عالم الجبر علي القلصادي فقد امتاز بالتنوع اذ كان سببا في اثارة الاهتمامات الفكرية في مستوى العلوم الصحيحة بطريقة مركزة في عدة مجالات علمية .

لقد احتوى الملتقى على احدى عشرة دراسة علمية وزعت على ايام الملتقى الثلاثة .

وقد انقسمت الدراسات الى اربعة محاور رئيسية :

1 — دور العلوم الصحيحة في تنمية البلاد السائرة في طريق النمو (وهو العنوان العام للملتقى)

2 — العلوم الصحيحة وآفاق تطبيقاتها الحالية بتونس بما في ذلك الحديث عن اللغة العربية والمصطلحات العلمية .

3 — بيان الاطار التاريخي لتطور علم الرياضيات عند العرب بما في ذلك تراث القلصادي .

4 — شخصية ابي الحسن القلصادي بوصفه نابغة من نوابغ الرياضيات العرب وما خلفه من انتاج مخطوط ومطبوع .

تصنيف دراسات الملتقى

وقد تناولت الدراسات بالتحليل مواضيع علمية كالبحث في آفاق التطبيقات العلمية بتونس ، واللغة العربية والمصطلحات العلمية ، والعلوم الطبيعية في ميدان حماية الغابات والمحافظة على المحيط الطبيعي ، والبحوث العلمية والتقنية والفنية في ميدان الهندسة المعمارية ، والتحويلات الاصطناعية للطقس والاحوال الجوية ، والبحث العلمي في ميدان البحار والثروة البحرية ، وعلوم الرياضيات ، بالاضافة الى الحديث عن القلصادي عالم الرياضيات ، وترجمة احد اعلام الطب قسطنطين الافريقي همزة الوصل بين رؤوس الطب التونسيين والبلاد الاوروبية في القرن الحادي عشر .

دراسات الملتقى وبحوثه

وقد قام باعداد هذه الدراسات والقائها اساتذة في الطب وفي الآداب والعلوم المختلفة :

1 — « **آفاق التطبيقات العلمية في تونس** » للاستاذ احمد الفاني المدير السابق للمعهد العلوى بتونس.(انظر نص الدراسة المنشورة عقب هذا التحقيق)

2 — « **اللغة العربية والمصطلحات العلمية** » للدكتور هشام بوقمرة ، الاستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية .

حلل المحاضر قضية المصطلحات العلمية ، وهي تعتبر من القضايا الجوهرية التي يطرحها الجدل اللغوي اليوم في عدد من البلدان العربية التي ما زالت تستعين بلغة اجنبية او تعتمد عليها بصورة كلية في تعاملها مع العلوم .

ثم تطرق للرد على ادعاءات مرجئة التعريب الذين يدعون ان العربية لا تتوفر على المصطلحات العلمية والذين يتقولون على العربية بانها لغة الشعر والادب فحسب ، متخلصا الى الحديث عن المصادر والاشتقاق والنحت والمزج ودور المجامع اللغوية . وتطرق اخيرا الى ان بعض المجامع اللغوية سقط في الاقليمية وكذلك الشأن بالنسبة لمكتب تنسيق التعريب بالمغرب الذي اعطى دورا خاصا للمغرب مما جعله حلقة جديدة من حلقات الاقليمية .

3 — « **العلوم الطبيعية في ميدان الغابات والمحافظة على المحيط الطبيعي بتونس** » للاستاذ الهاشمي حمزة ، المهندس العام في الغابات ومدير المعهد القومي للبحوث الغابية بتونس.

انطلق الدارس من مبدا وجود نظام كوني عجيب وان جميع الهياكل التي يحويها تشتمل على تنظيم محكم يحاول الانسان جهده ان يدرك قوانينه وقواعده .

ثم حلل اهمية العلوم الطبيعية ببلادنا ثم وضع المحيط الطبيعي في العالم متطرقا للحديث عن كساء الغابات بتونس الذي لا يتعدى 367،350 اي نسبة 2،3 بالمائة من مساحة البلاد مبرزا الاجراءات الواجب اتخاذها لتنمية الثروة الغابية وذلك بدراسة المحيط الطبيعي والتخطيط للتنمية والتقدم على أمد بعيد .

واقترح الدارس في نهاية محاضرته اقامة مجلس أعلى للبحوث العلمية يسهر على ضبط برامج البحوث العلمية في جميع الميادين حسب أولويتها أسوة ببعض البلدان المتقدمة .

4 — « **البحث العلمي والتقني والفني بالمدرسة القومية للمهندسين** » للاستاذ البشير عمار ، مهندس اول ، استاذ بالمدرسة القومية للمهندسين بتونس .

استعرض الباحث دور البحث العلمي والتقني في ميدان الهندسة وما وصل اليه المعهد القومي للمهندسين وما قطعه من مراحل في ميدان البحث مبرزا بعض الاكتشافات التي توفر عليها المعهد خاصة في استنباط

المواد الاولية للبناء بشكل عملي وبأقل التكاليف . واورد المحاضر على سبيل المثال اكتشافات تمت على ايدي اساتذة المعهد خاصة بصنع نوع من الجليز والاسمنت من بعض المواد السامة والتي تلوث المحيط الطبيعي ويمكن استغلالها في هذا الاكتشاف بأقل التكاليف .

5 ـ « **ابو الحسن القلصادي نابغة الجبر** » للاستاذ محمد العنابي ، باحث .

طرق الباحث نشأة الارتباط العلمي بين العرب ومن جاورهم من الهنود والفرس والروم واليونان ونشاط حركة الترجمة عند المسلمين متعرضا بعد ذلك الى علم الحساب عند العرب ودوره في ضبط المعاملات ، ذاكرا من نبغ منهم في علم الرياضيات وما نقل عنهم الى أروبا .

وحلل في القسم الثاني من المحاضرة شخصية القلصادي بوصفه نابغة من نوابغ الجبر ، وعدد مؤلفاته وحلل نظرة علماء اوروبا لهذه المؤلفات .

6 ـ « **التحويل الاصطناعي للطقس : مقاومة البَرَد** » للاستاذ حسن السعيدي المهندس الاول بالمعهد القومي للرصد الجوي بتونس .

عالج الباحث محاولة التحول الاصطناعي للطقس التي ترجع الى ما بعد الحرب العالمية الثانية اذ هي تطورت منذ ذلك الحين وقطعت أشواطا كبيرة فاصبحت تشمل التنزيل الاصطناعي للمطر وتحول الزوابع وتقشع الضباب ومقاومة حجر البرد .

ثم حلل موضوع تكون السحب وتجمع قطرات الماء وتولد حجر البرد ومقاومتها بالطرق الاصطناعية .

7 ـ « **البحث العلمي في ميدان البحار** » للدكتور عبد الرزاق عزوز ، الاستاذ المحاضر بالمعهد القومي للفلاحة بتونس .

ابرز الباحث اهمية البحار كمصدر من مصادر الثروة ودور العلوم الصحيحة في استخراج كنوز هذه البحار ، وتنمية ثرواتها خاصة ان البحر يمثل 71 بالمائة من مساحة الكرة الارضية مما جعل هيئة الامم المتحدة تولي اهتمامها بالبحر كمورد غذاء بالنسبة للاجيال في المستقبل .

ثم بين المحاضر دور البحث العلمي في استغلال هذه الثروات البحرية على الوجه الاكمل بطرق عصرية تحدد اماكن هذه الثروات وتقدر كمياتها ومعرفة طرق استخراجها .

وختم المحاضر دراسته بالقول : ان استعمال البحث العلمي في استغلال الثروة البحرية بتونس يضاعف الانتاج ويحمي المجموعات الحيوانية من التلاشي اذا ما تمثل في استعمال أدوات صيد حديثة وتعصير المراكب وادخال التقنية في طرق الصيد وتزويد القطاع بالاطار الكفء المهيأ لهذا العمل .

8 ـ « **حياة قسطنطين الافريقي** » للدكتور احمد ابن ميلاد ، طبيب وباحث .

تحدث الباحث عن شخصية قسطنطين الافريقي المولود سنة 1015 ميلادية بقرطاج . وقسطنطين اسم علم مسيحي والافريقي نسبة الى افريقية مسقط راسه .

عاش قسطنطين بقرطاج ، وتوفي بدير جبل كسينو بجنوب ايطاليا عن سن بلغت 70 سنة . ويقال انه كان مسلما . ولكنه تمسح بعدما استقر بايطاليا .

ثم عدد المحاضر الكتب التي ترجمها قسطنطين لعلماء الطب بالقيروان وبغداد الى اللغة اليونانية ، هذه الكتب التي كان له الفضل في جعلها مادة تدريس الطب باوروبا فيما بين القرن الحادي عشر والقرن السابع عشر ، مثل كتب اسحاق بن سليمان ، واحمد بن الجزار ، وكتب الرازي ، وعلي بن العباس واسحاق بن عمران .

ثم اورد المحاضر المآخذ التي يمكن ان يؤاخذ عليها قسطنطين ، هي نسبة هذه الكتب لنفسه ، واغفال كل ما يشير الى ان اصل الكتب التي ترجمها هو عربي .

9 ـ « **العلوم الصحيحة والبلدان النامية** » للاستاذ محمد قيالة ، متفقد التعليم الثانوي بسوسة واستاذ رياضيات .

حلل المحاضر دور العلوم الصحيحة في الازدهار الاقتصادي للامم ، مؤكدا على التطبيق العملي حتى لا يكون الكلام على العلم مجرد كلام تفرضه الاحداث ويفرضه العصر ، ولا يتم ذلك حتى يكون التعليم مطبوعا في جميع مراحله بالصبغة التعليمية . اما في مستوى الابحاث العلمية والتجارب فان رجال العلم في حاجة اكيدة الى المال الذي لا تنجح اعمالهم إلا به .

10 ـ « **تطور الرياضيات عند العرب وخاصة في انتاج القلصادي** » للدكتور محمد السويسي، الاستاذ بالجامعة التونسية .

اورد المحاضر امثلة هامة عن تطور علم الرياضيات عند العرب وخاصة لدى القلصادي واكتشافاته للرموز والعلامات الجبرية .

11 ـ « **نقل العلوم من العربية وإليها** » للدكتور ابي بكر بن يحيى ،طبيب وباحث

حلل الباحث الاطوار التي مرت بها ترجمة المصطلحات العلمية والطبية منها خاصة ، حاصرا موضوعه في ثلاثة أمثلة ، هي :

1 ـ ترجمة كتاب النبات « ديوسقوريدوس » من اليونانية الى العربية .

2 ــ طريقة الترجمة من العربية الى اللاتينية بواسطة قسطنطين الافريقي .

3 ــ الدور الذي قام به محمد بن عمر التونسي اوائل القرن التاسع عشر في تهذيب المصطلحات الطبية وجمعها .

المناقشات

وقد حضر طيلة ايام الملتقى الثلاثة جمهور من المثقفين والاساتذة أسهم في المناقشات التي شفعت كل دراسة وبحث . وكانت المناقشات على غاية من الفائدة في بلورة المفاهيم العلمية والتاريخية .

ببليوغرافيا علم الرياضيات عند العرب

وبمناسبة انعقاد ملتقى القلصادي نشرت دار الكتب الوطنية بتونس ببليوغرافيا جمعت فيها المصادر والمراجع سواء المتعلقة بشخصية القلصادي ومؤلفاته او المتعلقة بالمؤلفات والمعاجم الخاصة بعلم الرياضيات عند العرب . وقد تفرعت الكتب المعروضة بالمكتبة العمومية بباجة بهذه المناسبة الى :

1) **القسم العربي :**

أ ــ قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في التعريف بالقلصادي .

ب ــ قائمة المعاجم الخاصة بتعريب لغة الرياضيات .

ج ــ رصيد دار الكتب الوطنية من مؤلفات القلصادي المخطوطة والمطبوعة .

د ــ رصيد دار الكتب الوطنية من المؤلفات العربية والمعربة في علم الرياضيات .

هـ ــ ملحق بالكتب المدرسية في المواضيع الموجودة بدار الكتب الوطنية .

2) **القسم الفرنسي :**

أ ــ قائمة بالمراجع الاجنبية التي تناولت القلصادي بالبحث .

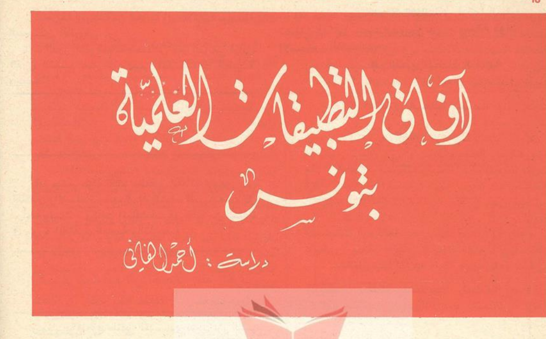
ب ــ قائمة بالكتب والمقالات التي تعرف بجهد العلماء الرياضيين العرب منذ أقدم العصور .

* * *

وستتولى المجلة نشر دراسات هذا الملتقى ومناقشاته في كتاب خاص ضمن منشورات « الحياة الثقافية » .

وقد نشرت مجلة الحياة الثقافية في عددها السابع تحقيقا للدكتور محمد السويسي عن « **رسالة ذوات الاسماء** » للقلصادي ■

قلم التحرير الحياة الثقافية

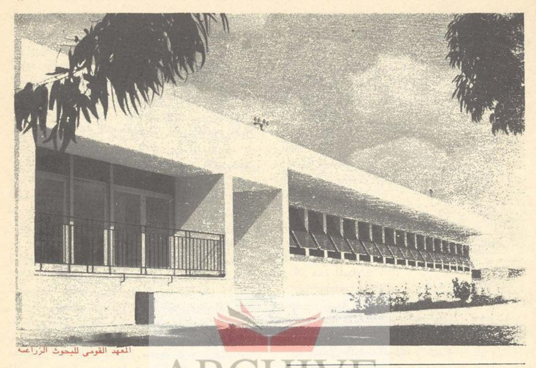


التطبيقات العلمية التي حصلت بتونس منذ الاستقلال ، او التي هي بصدد الاتمام ، او التي وضعت ضمن البرامج الانمائية القائمة العاجلة منها والآجلة ، قد لا تحصى عددا ، لان خروج البلد من التخلف يقتضي حتما تركيز الانجاز في جميع المجالات ، على العلم والتكنولوجيا . وهذا هو المنهاج الذي سلكته تونس منذ فجر استقلالها ، عندما شرعت تعد التصميمات المتعاقبة المتكاملة والمتصاعدة مدى وتكاليف ونفقات . وقد قطعت بعد الاشواط المهيئة لانطلاقه واجتازت في عديد من القطاعات الاقتصادية والاجتماعية ، مرحلة الالتجاء الكلي للغير واستيراد الاطارات والاجهزة والادوات والمواد . وهي عازمة على السير قدما نحو الاكتفاء الذاتي في الميادين الحيوية بالخصوص ، وعلى اتمام تجهيزها بطريقة التعاون المتبادل مع الدول الشقيقة والصديقة والمتصنعة او السائرة هي الاخرى في طريق النمو .

وجدير بالذكر ان المسيرة الانمائية التونسية لم تكن وقفا على من وضعها من اهل الاختصاص ومن ارباب المسؤولية والنفوذ . بل شملت جميع طبقات الشعب بطريقة الاعلام والارشاد والاستشارة حتى اصبح كل مواطن واعيا شيئا ما بما له وما عليه ، ومقتنعا بجدوى تطبيق الطرائق العصرية في جميع انواع الانتاج ، اذ لا تكون النجاعة نصيب التطبيقات العلمية الا بحسن التصرف فيها من طرف كل من ينتج ويستهلك ...

وجدير بالاشارة ايضا ان الخطة الانمائية التونسية توخت طريقة اسناد الاولوية الى تكوين الاطارات ، كما وكيفا ، في جميع المجالات والمستويات ، متعدية هكذا مرحلة التتلمذ والتقليد ــ وما اكتفت بان تصبو الى مستوى الابتكار والخلق ، بل ادركته بعد في عديد من انواع الاطارات العليا ، مما جعلنا نجد في قاعات التدريس وفي مخابر البحوث وفي المستشفيات ، وعلى رؤوس المصالح المشرفة على السياسة الانمائية ، اساتذة ودكاترة وبحاثين من طراز أقمار العلم وشموسه بالبلدان الراقية .

ولعل ابرز مظاهر عزم تونس على الخروج السريع الثابت من التخلف ، وعلى تدعيم مناعتها من الرجوع اليه ، يتمثل في نشاط المعاهد والمراكز العديدة المختصة كلها بقطاع من قطاعات البحث العلمي في اعلى المستويات والجاهزة غالبا باحدث ما انتجه العصر من اجهزة وآلات وادوات ومواد . إن التعرض الى جميع المشاريع الدولية والخاصة التي تقوم بابحاث علمية قصد تطبيقها لا يمكن ان يكون في متناول الفرد الواحد . ولا ان ينحصر في بسطة محدودة كهذه . حتى لو اقتصر على عد ما انجز وما هو بصدد الانجاز . فكان لزاما علي ان اعطي تحت هذا العنوان العام وبقدر ما لدي من وثائق في المجالات الزراعية وهي المجالات التي تشكل العمود الفقري لموارد البلاد .


المعهد القومي للبحوث الزراعية

المعهد القومي للبحوث الزراعية

اذكر في طليعة هذه المعاهد اقدمها عهدا واوسعها نشاطا ، وهو المعهد القومي للبحوث الزراعية الذي تاسست نواته الاولى سنة 1906 في شكل « محطة » زراعية ملحقة بمدرسة الفلاحة اعدت لتحسين زراعة القمح والشعير بتونس ، تلبية لرغبة المستعمرين وبعد تطوراته التي تسرعت بعد الاستقلال اصبح اليوم يشمل اربعة عشر مخبرا موزعة في سبع مجموعات .

1) مجموعة تحسين نباتات الزراعات الكبرى والنباتات الصناعية :

تشمل هذه المجموعة مخبرين :

أ ـ مخبر الوراثيات : وهو من اقدم مخابر المعهد ، يتناول بالبحث تحسين انتاج الحبوب سلالات من القمح اللين ومن القمح اليابس ، ومن الشعير ، ومن الخرطال (القصيبة) ، تكون رفيعة الانتاجية وممتازة الخصائص ، ويحصل هذا التحسين اما بطريقة الانتقاء من السلالات المحلية ، واما باستيراد اصناف اجنبية ، واما بطريقة التزاوج والتجهيز مع العلم ان للطريقتين الاخيرتين امكانيات انتاج اوفر ـ وبالرغم من ان جميع السلالات المزروعة حاليا بتونس ناتجة عن تطبيق كل من هذه الطرائق ، فالبحوث ما زالت متواصلة رامية الى تحسين الانتاج اكثر فاكثر ، لتسديد حاجات الاستهلاك المحلي المتزايدة وللترويج والتصدير .

ونذكر بهذه المناسبة ان الصنف « افلورانس ارور » من القموح اللينة المزروعة في الوقت الراهن بتونس نال رواجا عظيما بفضل انتاجيته المرضية وخصوصا بفضل قيمته الممتازة في مجال الخبز التي جعلته يصدر الى الشرق الاوسط الى فرنسا خاصة ، ويساهم بقسط وفير في سمعة تونس من حيث زراعة الحبوب .

لكن الصنفين « اينيا » و « توباري » المستوردين من المكسيك ، اخذا منذ بضع سنين يزاحمان « افلورانس ارور » من اجل انتاجيتهما الرفيعة وينالان رضا المزارعين منذ اثبت مخبر الوراثيات قيمتهما الزراعية ، وبعد ما وقعت تجربتهما في قطع ارضية موزعة في عديد من المناطق .

اما القموح اليابسة الجارى زرعها حاليا بتونس فهي ستة اصناف قديمة العهد وصنفان حديثان ، وهي جميعا من اعداد المعهد القومي للبحوث الزراعية الذي ما انفك منذ انشائه يعير عنايته بتحسين انتاج الزروع بالبلاد . وقد زود بعد مخبر الوراثيات بلادنا باصناف

حبوب من الطراز العالي من حيث القيمة الزراعية . وما زالت البحوث الجارية تعمل على بلوغ هذا الهدف .

ب – مخبر تكنولوجية الزروع : يهتم هذا المخبر بتجريد الزروع فيقوم القموح المنتقاة ، من الحيثية الصناعية بتعيين انتاجية القموح اللينة عند الطحن والخبز ومردود القموح اليابسة عند تحويلها الى سميد ثم الى عجائن .

2) مجموعة البستنة : التي تضم ثلاثة مخابر

أ – مخبر زراعة الاشجار المثمرة : الذي يتعلق نشاطه بتحسين انتاج هذه الاشجار المنتشرة في الزراعة التونسية ويعمل بالاتصال مع بساتين تجريبية تابعة له على ابراز اصناف عديدة ومتنوعة من الاشجار المثمرة . وقد كللت جهوده بالنجاح اذ اصبحت تونس تزرع شجرة المشمش « كانينو » وشجرة اللوز الكاليفورنية ، وشجر الخوخ بانواعه الباكورة او المتاخرة واصنافا من شجر التفاح والاجاص ومن الحمضيات كالليمون والبرتقال .

فيما يتعلق بالزياتين تمكن المخبر بالتعاون مع مصالح اخرى من وضع طريقة لتجديد الاشجار العتيقة بغابة صفاقس ومن اعداد ثلاث مجموعات نموذجية من احسن الاصناف المنتقاة بحوض البحر الابيض المتوسط ، وتمكن من انتقاء السلالات الصالحة لانتاج زيتون المائدة ، ومن اجراء بحوث في ميدان بيولوجية الزهور والنمو بصفاقس وبالمرناق .

وبالنسبة الى النخيل والى التمور ، اهتم المخبر بجعل نضج الدقلة يتقدم من 10 الى 15 يوما ، وذلك باستعمال اللقاح « فارد » او باستعمال الهرمونات المبطئة للنمو . وابرز ايضا فعالية وقاية العراجين من المطر بنوع خاص من الورق .

ب – مخبر زراعة الكروم : احدث هذا المخبر سنة 1968 فاخذ يجري عديدا من التجارب ويجمع النماذج ساعيا في تحسين الانتاج من حيث جودة عنب العصر للخمر وعنب المائدة ، بطريقة انتقاء الكروم . ووجه ايضا عنايته الى ابتكار مطعمات جديدة وهي اصول تغرس في الارض ويركب فيها الطعم .

ج – مخبر زراعة البقول : يعمل هذا المخبر على تجويد اهم البقوليات المنتوجة بتونس مثل الطماطم والخرشوف والخس والفلفل والبطاطة والبطيخ وتوت الارض (الفراولة) والبصل والجزر واللوبيا ...
وجدير بالاشارة ان تونس بفضل هذه التحسينات تمكنت من تصدير الطماطم والبطاطة، بعدما كانت تحتاج احيانا الى استيرادهما من الخارج ... اما البحوث الجارية حاليا فهي ترمي الى تجريب اصناف من البطاطة توفر المردود بنسبة 50 بالمائة .

3) مخبر المنتوجات الحيوانية والكلئية :
بدأ المعهد بحوثه في مجال التدجين سنة 1964 قصد تسديد حاجات البلاد من حيث الانتاج الحيواني وقد انحصرت في البداية مهمة المخبر في النقاط التالية :

– دراسة القيمة الغذائية للكلإ وللغذاءات الاخرى التي كانت تستعمل آنذاك ، وذلك قصد توضيح ظروف استخدامها .

– التعرف الى اهم السلالات الحيوانية المستغلة بتونس كي تتعين امكانياتها الذاتية وبالتالي الطرائق الملائمة لتربيتها .

– تعيين وسائل التحسين الوراثي لاهم السلالات المحلية من غنم وبقر .

ثم امتد مجال العمل للمخبر وشمل عديدا من الدراسات والتجارب المتعلقة خاصة بتغذية الدواجن وبانتاج اللحوم والحليب والصوف ، باعتماد طرائق التهجين والانتقاء – ولا تزال البحوث – تجري حثيثة في كل هذه المجالات .

اما دراسة انتاج الكلإ فهي متجهة حسب ثلاثة محاور رئيسية :

– دراسة اهم اصناف الكلا التي يمكن بثها في الزراعات الجافة وفي الزراعات السقوية .

– تحسين الموارد المرعية في شمال البلاد بانشاء مروج جيدة .

– تحسين المراعي بمناطق الوسط والجنوب .

ومنذ سنة 1968 يواصل المخبر بحثه في انتقاء اصناف الكلا المحلية ، قصد تحسينها ، وفي ادخال اصناف اجنبية ، وفي وضع تقنية زراعتها وتنميتها .

4) المجموعة الساهرة على وقاية المزروعات: وبها اربعة مخابر :

أ – مخبر الحشريات : المكلف بدراسة الطفيليات الحيوانية بالمزارع – تتمركز بحوثه الحالية على الذبابة المتوسطية التي تتطفل على الاثمار في حوض البحر الابيض المتوسط – وترمي هذه البحوث الى تبديد هذه الحشرة نهائيا بطريقة تعقيم الذكور منها ، تربى هذه الذكور بطريقة مصطنعة وتعقم في الابان باشعة الكوبالت النشيط ، ثم تطلق في مزرعة من المزارع . وفي صورة ما اذا تفوق عددها بكثير على عدد الذكور الوحشية تعذر التناسل وانقرضت السلالة .

ب – مخبر امراض النباتات : يدرس الامراض التي تصيب النباتات المزروعة عن طريق الفطر او عن طريق البكتريات ، ويبحث عن الوسائل الناجعة في مقاومتها . كان المخبر فيما مضى يعالج القمح « افلورانس اورور » ضد السواد بالطريقة الحرارية التي ابتكرها هو نفسه وطبقها على سيلة منوبة . اما اليوم فبحوثه ظلت تتعلق بالامراض التي تصيب

البقوليات .

ج ـ **مخبر الامراض الناتجة عن البكتريات السامة :** تصيب هذه الامراض عديدا من المنتجات الزراعية بتونس وتخفض كثيرا مردودها ، خاصة بالنسبة الى الحمضيات والبقوليات مثل الخرشوف والطماطم والفلفل . وقد اعد المخبر طريقة لوقاية الخرشوف من الانهيار الخلوي بعدما اكتشف سببه ـ اما بحوثه الراهنة فهي تتناول بالدرس الامراض الكثيرة الانتشار في البقوليات ، ووضع طريقة انتاج للنبات السالم من كل بكتارية سامة .

د ـ **مخبر مكافحة امراض النباتات :** بالعقاقير المبيدة للطفيليات الحيوانية والنباتية في المزارع يبحث هذا المخبر عن فعالية هذه العقاقير بالنسبة الى الوضع التونسي وعن طريقة استعمالها من جميع الاوجه . واهم هذه البحوث تتعلق بمكافحة الاعشاب الطفيلية التي تكتسح المزارع ومزارع الحبوب بالخصوص فتضعف انتاجها .

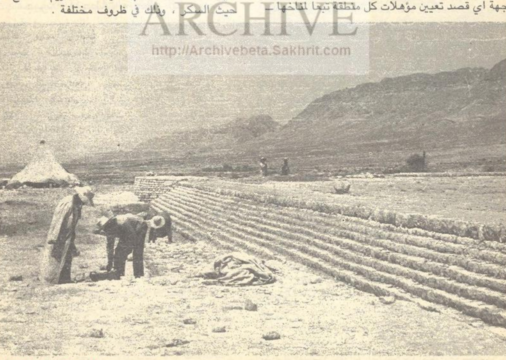
٥) مجموعة هندسة الزراعة المهتمة بالبيئة الزراعية في ثلاثة مخابر :

أ ـ **مخبر المناخة :** أي دراسة اثر العوامل المناخية في الاجهزة الحية ، يدرس هذا المخبر المناخ في بعض المناطق قصد ابراز انعكاساته على الزراعة في كل جهة اي قصد تعيين مؤهلات كل منطقة تبعا لمناخها ـ

ويقوم المخبر ايضا بدراسة ما تحتاج اليه الزراعات من ماء ، وذلك بقياس طاقتها الذاتية في مجال التبخر وبتعيين مقدار الماء المناسب لكل منها . بهذه الطريقة يمكن اقتصاد الماء تلك المادة التي تشكو تونس الفقر فيها ، والتي تكلفها جهودا ونفقات كثيرة ، خصوصا وان الحاجة الى الماء تزداد شدة بسرعة مهولة .

ب ـ **مخبر التقنيات الزراعية :** تتمثل مهمته الرئيسية في البحث عن طرائق الزراعة التي من شانها توفر مردود المنتجات على اختلاف انواعها ، وقد اخذ يتكيف هذا المردود بتونس بالنسبة الى الزراعات الكبرى بالتقنيات التي تشمل المناوبة الزراعية ، اي تقسيم المزرعة اقساما تتعاقب فيها الزروع المختلفة وخدمة الارض ، والتخصيب وهكذا اقتنع الفلاحون بجدوى هذه الطريقة الكفيلة برفع المردود عندما تسلك في احسن الظروف التي تقتضيها .

ج ـ **مخبر الكيمياء الزراعية :** كان هذا المخبر يهتم خاصة بايجاد حل الى مشكلة الازوط بالاراضي التونسية وقد آلت بحوثه الى وضع طرائق المناوبة الثلاثية الحول او الرباعية الحول ، حسب الغيث وذلك بالنسبة الى المناطق الشمالية.ومنذ بضع سنين اخذ يشتغل بحل مشاكل مختلفة متعلقة بزراعة الشمندر ، منها مشكلة الاخصاب ، ومشكلة تقويم الانتاج من حيث السكر ، وذلك في ظروف مختلفة .



مقاومة الانجراف والانجرا[illegible]

6) **مجموعة الاقتصاد الريفي :**

التي لا تشمل الان الا مخبرا واحدا . وهو حديث الانشاء ووليد ملاحظة الفارق الكبير الفاصل بين الامكانيات الفلاحية التونسية الحقيقية . وبين ما حصل بعد من نتائج – فتحتم البحث عن الاسباب المضبوطة لسوء الانتفاع بهذه الامكانيات الطبيعية وكان على هذا المخبر في مرحلة اولى ان يترصد ظروف الانتاج ويحللها بطريقة علمية حتى يتسنى له انطلاقا من نتائج التحليل اعداد طرائق التداخل الضامنة بتحوير نظم الانتاج قصد تقويته – ولهذا الغرض وضع لنفسه برنامج نشاط يشمل العناوين التالية :

– البحث عن جميع المعطيات وتسجيلها .
– تحليل نظم الانتاج الزراعي
– المنتوجات البقولية ونظمها
– مكانة انتاج الحليب بتونس وظروفه
– تكاليف انتاج الزروع بالشمال
– انتاج اللحوم وترويجها
– القروض الممنوحة الى الزراعة والتدفق المالي
– الاسواق الممكنة

الدراسات تتواصل حثيثة وآفاقها تتسع بفضل ما قد حصل منها وما يؤمل ان يحصل من نتائج ايجابية مشجعة .

7) **مجموعة المحطات والقطع التجريبية الجهوية :**

انشئت المحطات التجريبية وفروعها قصد تمديد النشاط البحثي على الصعيد الجهوي ، وقصد ايجاد حلول على عين المكان للمشاكل الخاصة بكل جهة . وقد غطت بعد شبكة المحطات والقطع التجريبية جميع المناطق المناخية باستثناء المنطقة الشمالية الغربية التي قد تحتاج الى محطة تدرس الزروع والاشجار المثمرة وزراعة الكلإ .

البحوث والدراسات والتجارب التي تجريها بلا انقطاع هذه الخلايا ، والتي لا تنفك آفاقها تتسع توضع نتائجها تحت تصرف كل من يهمه امر تطبيقها داخل البلاد وخارجها ولعل اثبت وسائل تبليغها وجعلها في متناول الجميع هو النشر . وهو ما ادى بالمعهد القومي للبحوث الزراعية الى اعداد ثلاثة انواع من النشريات .

– التقرير السنوي الذي يشمل نشاط المخابر ، حسب البرامج الموضوعية ونتائج بحوثها
– الوثائق التقنية التي تنشر بها الاشغال الممكن تحقيق نتائجها عمليا من طرف الفلاحين واصحاب التقنية .
– الحوليات المختصة بالبحوث ذات الصبغة العلمية التي قد تهم بحاثين آخرين . وقد نالت هذه الحوليات شهرة ممتازة عند الاخصائيين الاجانب بفضل مستواها العلمي الراقي ومكنت المعهد في نطاق التبادل مع الخارج من نيل 400 مجلة دورية علمية وتقنية . وبفضل ما للمعهد من كتب ووثائق يعتبر مركزه باريانة من اهم ما يوجد بشمال افريقيا .

وجدير بالذكر ان المعهد يتبادل الوثائق العلمية والتقنية مع 600 بلد من القارات الخمس نخص بالذكر منها شمال افريقيا ، والشرق الاوسط ، وفرنسا ، وانكلترا ، والمانيا ، وهولاندا ، وامريكا .. ولا ينحصر الاتصال بمعاهد البحث الاجنبية في النشريات فحسب، بل شمل ايضا البعثات والتربصات والمشاركة في الملتقيات والندوات الدولية .

اما اتصالاته مع خلايا استثمار نتائجه داخل البلاد فهي متواصلة ومستخدمة جميع وسائل الاعلام السمعية والبصرية كالمناشير والاذاعة والتلفزة والملتقيات المحلية ، وحتى الحافلة السمعية البصرية التي تتجول في الارياف قصد الاتصال المباشر مع المزارعين وتزويدهم بالارشادات والنصائح ، واما صلته بمراكز البحث العلمي الاساسي بتونس ، وبالجامعة بالخصوص فهي لم تبلغ بعد المتانة المنشودة ، بالرغم من انه لا يخفى عن احد ما للتعاون بين خلايا البحث العلمي الاساسي وخلايا البحث العلمي التطبيقي من منافع بالنسبة الى كلا الطرفين .

ولعله من اللائق ان نختم هذه البسطة السريعة الموجزة على المعهد القومي للبحوث الزراعية بذكر تونسة اطاراته التي اوشكت على بلوغ نهايتها في جميع المستويات .

من المعهد القومي للبحوث الزراعية ننتقل الى جاره ، التابع هو الآخر الى وزارة الفلاحة وهو المعهد القومي للبحوث في ميدان الغابات .

المعهد القومي للبحوث في ميدان الغابات

كلنا يعلم من خلال التاريخ ان تونس كانت خضراء في قديم الزمان،وكانت مغطاة بالغابات في جملتها لكن الاضطرابات والحروب المتعاقبة والانقلابات وعمليات التخريب مزقت عبر القرون ثوبها الاخضر وعرضت تربتها الخصباء الى الانجراف والى التجفيف والتفتيت والعقم ، وما بقي من غاباتها ومن ثروتها الخشبية الا القليل الضئيل وبقيت الحالة تلك حتى سنة 1957 ، بعيد الاستقلال عندما اقرت البلاد عزمها على اعادة تشجيرها وشرعت تسعى في جمع احسن الظروف الكفيلة باسترجاع غاباتها مع اعتبار كل ما يقتضيه ايجاد التقنيات والطرائق الملائمة بكل جهة وما يقتضيه

تكوين الاطارات الكفء القادرين على وضع البرنامج وانجازه ، كل ذلك على اكمل وجه وفي اقرب اجل ، لكن ان كان تكوين المهندسين والتقنيين ممكنا في ظروف ثلاث او اربع سنين فايجاد التقنيات المتناسبة وظروف البلاد في ميدان اعادة التشجير صعب وطويل المدى لانه يتطلب كثيرا من الوقت ومن الجهود والتكاليف ويكفي ان نذكر في هذا المجال ان الوصول الى النسبة الدنيا ، اي 20 بالمائة في تغطية الاراضي العارية بالغابات يتطلب قرنا كاملا بسرعة سبعة عشر الف هكتار كل سنة .

نشأ المعهد القومي للبحوث في ميدان الغابات سنة 1966 وهو يشمل اليوم ثمانية اقسام :قسم اعادة التشجير ، وقسم علم البيئة الغابية وفيزيولوجية التنمية ، وقسم تحسين النباتات الغابية،وقسم تقنيات اعادة التشجير ، وقسم المراعي الغابية ، وقسم الحراجة وقياس الحياة،وقسم تقنية الخشب ، وقسم

تشجير الاراضي القاحلة

الحشريات الغابية .

1) **تمكن قسم اعادة التشجير** من الاهتمام بجميع المناطق التي تحتاج الى الغابات وذلك بفضل ما لديه من اطارات واجهزة وبواسطة الاراضي التجريبية الموزعة على النحو التالي :

- 41 مستنبتا ذات مشاتل تغطي 534 هكتارا
- 6 مراكز تجريبية مشاتل تغطي 434 هكتارا
- 9 قطع تجريبية مشاتل تغطي 36 هكتارا
- منطقة نموذجية لاعادة التجشير تغطي 8000 هكتار
- منطقة للاعداد الريفي تغطي 8000 هكتار
- مجموعتان نموذجيتان للاعداد تغطيان 1686 هكتار

فبفضل ما سجل من ملاحظات في المشجرات التي شملت اكثر من 1200 صنف متباينة من الاشجار او من النباتات الكلئية ، بفضل هذه الملاحظات وقع الاختيار على اكثر الانواع الغابية ثباتا ونجاعة ومن بينها بعض الانواع المحلية كصنوبر حلب والسرو ، بالنسبة الى وسط البلاد ، وكالصنوبر البحري بالنسبة الى الشمال ، وكانواع الكاليدوس بالنسبة الى المناطق الجافة بالوسط والجنوب .

2) **اجريت دراسات الوسط** بالاشتراك مع اقسام علم البيئة وعلم التربة في المشجرات وفي المراكز التجريبية فتبين منها ان 50 بالمائة فقط من تربة « المغود » صالحة لاعادة التشجير وان ما بقي منها تصلح لاستخدامات رعوية تكون اكثر انتاجية وقد نتج عن هذه الاشارة اقتصاد هام في الاعتمادات المقررة .

3) **قام قسم تحسين النباتات** باعمال متناسقة شملت جني البذور الغابية ، وتعهدها ، وتكييفها وتوزيعها ، بحيث اصبح لكل من الاربعين مليونا من الاشجار المزروعة والمرباة سنويا ، اصل مضبوط ومعروف واصبحت جميعها منتقاة حسب اثبت المعيارات واحسنها ، وقد بلغ بعد جني البذور زهاء مائتي طن في السنة الواحدة .

4) **تحسنت تقنيات اعادة التشجير** في جملتها باعتماد النتائج المسجلة في البحث والتجربة وصارت تعرض في مراكز اعادة التشجير قصد تدريب التقنيين الغابيين على تنظيم اشغال الحضيرات حسب ما يوصي به المعهد من طرائق تطبيق .

5) **ابرزت دراسات قسم المراعي الغابية** امكانيات كلئية هامة ، في شمال البلاد ، تشمل من بين ما تشمله الاوراق الساقطة من الاشجار ، والزان باختلاف انواعها،والاصناف الكلئية النابتة بين الاشجار ، تشكل هذه الامكانيات في صورة استغلالها استغلالا محكما ، موردا اضافيا من العلف ضامنا للمواشي المتكاثرة الغذاء والعيش ، بشرط ان تنظم تجمعاتها وان يراقب سلوكها حتى تبقى الغابة مصونة ومتأهلة الى القيام بوظائفها العديدة ، وجدير بالاشارة ان « ام الجدور » معدة في الوسط لاستغلال جميع الامكانيات الحرجية والرعوية ، بغابة صنوبر حلب ولتسديد حاجات السكان المجاورين ومواشيهم . كما اعد المركز النموذجي بجبل « بورملي » في الجنوب قصد وضع طريقة لاستغلال المراعي ، باعتبار حالة النبات وحاجة مواشي السكان .

6) **كلف قسم قياس الحياة** بفحص نتائج جميع الاقسام الاخرى ، فحصا سريعا وكاملا ، وبعدها وفرزها وذلك باعتماد احدث ما وضع من طرائق الاحصاء العصري التي يتدخل فيها الدماغ الالكتروني .

ان معرفة الانتاجية الحق بالنسبة الى اهم الانواع

الغابية المحلية والى احسن المعالجات الممكن اجراؤها عليها في غابات صنوبر حلب وبلوط الفلين الطبيعية تستخلص من تدابير احداث الغابات المصطنعة ومن حسن التصرف في المجموعات النموذجية .

7) **اما قسم تقنيات الخشب** فهو مكلف بايجاد احسن الوسائل لاستخدام الخشب الـذي تنتجـه الغابات التونسية والذي لا يزال قليلا ، وهو يقوم بمهمته بالاستناد الى نتائج دراساته التكنولوجية والى الطرائق العصرية في مجال التفحيم ذي المردود الرفيع والنشارة وصناعة الصناديق ...

8) **واما قسم الحشريات الغابية** فهو يبحث عن وسائل وقاية الغابات من الاضرار التي تلحقها من الحشرات المبيـدة وقـد اهتـم خاصـــة بالحشرة « فوراكنثا » الاسترالية الاصل التي تهدد منذ 1962 عهد اكتشافها بتونس غابات الكاليدوس والتي ابادت بعد مساحات بلغت 90 بالمائة في « بشاطر » و 40 بالمائة في « المطوية » و 12 بالمائة في جبل « طويلة » ...

وقد امكن التخفيض من هذه الاضرار ، في كثير من جهات البلاد ، بطريقة استخدام الفخاخ المتمثلة في اشجار مقطوعة تنتزع منها فروعها ، واستنتجت هذه الطريقة من ان الحشرة تفضل الاشجار الضعيفة او الحديثة القطع عن الاشجار السليمة القوية ، بحيث يصبح كل جذع مقطوع فخا يمتد اجتذابه للحشرات الكهول الى مئات المترات ، ويكفي حرق الجـذوع المكتسحة في الابان، بهذه الطريقة يمكن تخفيض الاضرار بنسبة 70 بالمائة .

ومن جهة اخرى برز دور الغابات في وقاية المزارع السقوية المجاورة لها من تحقيق على مصدات الريح ، اجراه معهد اعادة التشجير بتونس بالاشتراك مع المعهد القومي للبحوث الزراعية، اصبحت هذه المزارع تغطي اكثر من مائتي الف هكتار ، واقتضت وضع برنامج لاستخدام الاشجار الغابية في المناطق الفلاحية ، ومن بين هذه الاشجار يحسن استخدام الحور وهو نوع من الصفصاف وخشبه صالح لصنع الصناديق وادوات اللف ، وقد دعم هذا البرنامج عزم الغابيين في كل من مستوى البحث ومستوى التطبيق على تنسيق الجهود قصد ادماج البحوث الزراعية والغابية في المشاريع التي من شانها ان تنمي اقتصاد البلاد وانتاجيته .

المعهد القومي للبحوث الغابية ينشر ، هو الاخر ، نتائج بحوثه في حوليات وفي تقارير وفي مدونات بحث . وبه مكتبة شاملة عديدا من الوثائق، ويعمل المعهد هو ايضا بالاتصال مع البلدان الاجنبية في جميع انحاء العالم بطريقة تبادل الوثائق والبعثات وبالمشاركة في الملتقيات الدولية، وتونسة اطاراته ، في جميع المستويات واشكة ، هي الاخرى على بلوغ نهايتها وبرامجه لا تنفك تتسع وامكانياته تتوفر ، تلبية لمقتضيات ازدهار الفلاحة التي هي المحور المركزي للاقتصاد التونسي .

مشكلة المياه في تونس

لكن لا ازدهار ، ولا فلاحة بلا ماء ، والحاجة الى الماء ، تزداد كل يوم كما هو الشان في جل بلدان العالم ، من اجل النمو الديموغرافي ومن اجل تطور الحياة الحضارية ومن اجل نمو السياحة والصناعة والزراعة ...

وبما ان تونس بلاد جافة بسبب غيثها الناقص وغير المنتظم ، فيتحتم عليها ، اكثر من غيرها تقويم مواردها المائية ، ووضع برنامج استهلاك مناسب وبرنامج مكافحة سوء التصرف والافراط .

المشكلة ذات بال وتزداد تعقدا بما ينجر عن النمو الحضاري من اسباب تلوث المياه وافسادها ليست مشكلة التصرف في المياه خاصة بتونس ، ولا بالبلدان السائرة في طريق النمو ، بل قد اصبحت البشرية كلها واعية بحدتها وخطورتها ، ناهيك ان اليونسكو اهتمت بالامر ، في دورتها الثالثة عشره سنة 1964 ووضعت برنامج العشرية من الهيدرولوجية الذي دخل حيـز التنفيذ بداية من سنة 1965 والذي اعتمد اساسا نمو التبادل بين الدول المشاركة في مجال الدراسة والبحث .

وطبق توصيات هذا البرنامج عملت تونس على تنمية شبكاتها للترصد ولقياس المعطيات الاساسية في مجال البحوث الهيدرولوجية واعدت احواضا نموذجية لدراسة المجموعات المائية، وفي مجال المياه الجوفية احرزت تونس على تجربة ثرية كفيلة بان تستغلها بلدان اخرى وبان تساهم في تحسين معارف الانسان في هذا الميدان وفي تحسين استثمار هذه الموارد . كان يقوم بمهام جرد الموارد المائية بتونس مكتب تابع للاشغال العمومية ، تاسس سنة 1930 وادمج في نشاطه سنة 1941 دراسة المياه الجوفية ومنذ سنة 1970 اصبحت جميع هذه المهام من مشمولات **قسم الموارد المائية** الذي هو فرع من فرعي ادارة الموارد من حيث التربة والمياه التابعة لوزارة الفلاحة .

يوكل الى هذا القسم احصاء جميع الموارد المائية ، سطحية كانت ام جوفية ، والدراسات المائية والمائية جيولوجية قصد تقويم امكانيات هذه الموارد وتنميتها ، ومن مشمولاته، خاصة :

- استغلال شبكة سيالية ومغياثية ونشر حولية سيالية
- تكهن الفيضانات
- اعداد خرائط للطبقات المائية الجوفية وتقويم



منظر عام لسد نهر « ملاق »



منظر عمودي لسد نهر « ملاق »

منتوجها ، وتعهد تطوراتها
وسعيا في القيام بمهامه على اكمل وجه ، تركب القسم من ثلاث مصالح :
ـ مصلحة المياه السطحية (هيدرولوجيا)
ـ مصلحة المياه الجوفية (هيدروجيولوجيا)
ـ مصلحة الفهرس والقوانين المتعلقة بالمياه
تعتمد هذه المصالح «مكتبا مركزيا يشمل بالخصوص :
ـ مخبرا للتحليلات الكيمياوية
ـ مكتبة بها 9.500 عنوان ، منها 6.000 نشرية داخلية
ـ قسم نشر .

1) **تسهر مصلحة الهيدرولوجيا** على ثلاث شبكات وتستغلها وهي بالتوالي :
ـ شبكة مغياثية تحتوي على اكثر من ستمائة محطة موزعة في كامل البلاد تنشر نتائجها في مذكرة مغياثية شهرية وفي حولية مغياثية .
ـ شبكة سيالية تهم جميع اودية البلاد ، وتحتوي 83 محطة جاهزة بما يلزم لدراسة البحيرات وعلى 67 محطة مكلفة بقياس مستويات المياه الجارية
ـ شبكة الاعلان عن الفيضانات
وقداقتضت جدوى سير هذه الشبكات اعداد خمسة قطاعات جيوغرافية موافقة لاهم الاحواض المنحدرة ، وجعل مركز ، بكل منها ، يجمع المستخدمين والمعدات .

كما اقتضى استغلال الاستعلامات الصادرة عن هذه الشبكات اتخاذ الطرق العصرية التي تسلكها تقنية الاخبار ، فنشأ فرع ميكانوغرافي يهيء المعطيات ويكتري دماغا الكترونيا لاجراء ما تقتضيه من عمليات وهذا ما جعل في امكان المصلحة نشر الحوليات الهيدرولوجية والدراسات الخاصة التي تقوم بها .

2) **مصلحة الهيدروجيولوجيا** تقسم هي الاخرى البلاد الى قطاعات جيوغرافية مكلفة بالمهام التالية :
ـ جرد موارد البلاد من حيث المياه الجوفية وتهيئة البطاقيات واتمامها على الصعيد الجهوي وتجمع معطيات جميع البطاقيات الجهوية في فهرس المياه بتونس العاصمة .
ـ تعهد طبقات المياه الجوفية للبلاد من خلال شبكة آبار وشبكة قومية من المعصارات المعدة لقياس انضغاطية المياه .
ـ المشاركة في الاشغال في الاراضي بمقتضى ما تحتاج اليه الدراسات الهيدروجيولوجية وبالاضافة الى ذلك تعتمد الدراسات نشاط فرعين :
ـ فرغ الجيوفيزياء الذي يقوم اساسا بالتنقيبات الكهربائية التي اصبحت أداة مشتركة لجميع الدراسات الهيدروجيولوجية التمهيدية .
ـ فرع محاولات الضخ الذي يستخدم مضخات

القطر ، توفر الامكانيات لكل محاولة .

بفضل هذا التركيب الاساسي لنظام العمل تمكن البحاثون من اتمام معارفهم الاعدادية ومن تقويم تقريبي لامكانيات البلاد من حيث المياه الجوفية ، وهذا ما مهد السبيل الى دراسات وبحوث أدق وأكمل ، كما استخدمت الوثائق لوضع خرائط المياه الجوفية ، كالخرائط الهيدروجيولوجية ذات السلم 1 على 500.000 أو 1 على 50.000 والخرائط النفعية والسهلة الاستعمال ، والمعدة لغير المدربين .

3) **مصلحة الفهرس والتشريع في ميدان المياه :**

بلغ اليوم عدد الانباع 60.000 نبع (آبار ، ومنابع ، واسبار) مرسومة في البطاقيات واصبح الفهرس مرجعا يطالعه :

– مهندسو المصلحة الذين يقتبسون منه ما تحتاجه دراساتهم من معطيات

– مجموعات الجرد ، وهو بالنسبة الى اصحابها نقطة بداية ونقطة نهاية لانهم ياخذون منه ويغذونه .

– الجمهور ، اذ كل من يعتزم حفر بئر يحتاج الى استعلامات تمهيدية .

وتعتمد على الفهرس ايضا الانشطة المتعلقة بالتشريع في ميدان المياه ، والآراء التقنية التي يرتكز عليها منح القروض لحفر الآبار الجديدة او لاجراء اسبار تتجاوز 50 مترا من العمق .

الدراسات والبحوث والتجارب التي اجراها قسم الموارد المائية بتونس عديدة ومتنوعة وقد يجدر بنا ان نقول كلمة ، على سبيل الذكر ، في مشكلة الطبقة المائية الجوفية الواقعة بمنطقة « قرنبالية » والتي وشكت على الجف من جراء الافراط في استغلالها لصالح الزراعات وزراعة الاشجار المثمرة بالخصوص ، وبالرغم من الآبار والاسبار التي حفرت في المنطقة ، ما كانت المياه المستخرجة كافية البتة لتسديد حاجات الزراعات السقوية ، وقد اسفر هذا الاستغلال المفرط على انخفاض مستمر في مستوى الطبقة . فتناولت مصلحة الهيدروجيولوجيا هذه المشكلة بالدرس وذلك بتحليل نتائج ترصد مستوى الطبقة ، في نطاق تعهد هذا المورد ، وبتعيين العوامل التي تهدده بالجف وباقتراح الاجراءات الكفيلة بوضع حد لهذا التطور ، او على الاقل بتبطئته .

ويعتزم قسم الموارد المائية ضمن التخطيط الخماسي المقبل (1977/1981) بلوغ اهداف عديدة تدخل فيها الدراسات والتطبيقات العلمية التابعة لمصلحة المياه السطحية ولمصلحة المياه الجوفية نذكر منها :

1) بالنسبة الى مصلحة الهيدرولوجيا : الدراسات الاساسية – الدراسات التمهيدية – الملفات السيالية والمغياثية .

2) بالنسبة الى مصلحة الهيدروجيولوجيا : دراسات الجرد التي تهم 25 منطقة بالشمال و 42 منطقة بالوسط و 14 منطقة بالجنوب .

دراسات شاملة ترمي الى وضع نماذج وتهم 5 مناطق بالشمال و 15 منطقة بالوسط و 7 مناطق بالجنوب .

تنقيبات كهربائية تشمل اربعة مناطق بالشمال ، و 10 مناطق بالوسط ، ومنطقة بالجنوب، اسبار تعرف تعد باثنين وتسعين سبرا تتراوح اعماقها بين 150 والف متر، اعداد كثير من الخرائط .

دراسة المياه بتونس لا يمكنها ان تقف عند حد من الحدود ، ولا ان تنحصر في مجال من المجالات، ولا في مشروع من المشاريع ، وقد يطول جرد المخابر ، والمعاهد ، التي تدخل دراسة الماء ضمن نشاطها، ويكفي ان نذكر منها ، مصلحة تحليل المياه التابعة لوزارة الفلاحة ، ومصلحة السدود بوزارة التجهيز، والمخبر المركزي ، المعهد القومي للتغذية ومكتب المياه المعدنية ...

وبصفة عامة يمكننا ان نجزم بدون اية مبالغة ان آفاق التطبيقات العلمية بتونس سواء كانت مستوحاة من الميكانيك او من الفيزياء او من الكيمياء او من العلوم الطبيعية ، ما انفكت تتسع مشتملة جميع الانشطة التي تحتاج اليها من قريب او من بعيد ، سواء كان ذلك في القطاع الدولي او في القطاع الخاص ، وسواء تعلق ذلك بالفلاحة او بالصناعة او بالسياحة او بالطب او بوسائل النقل او بالمواصلات ، او بوسائل الاعلام ، او بالتربية والرياضة والثقافة .... هذا بقطع النظر عما استوعبته البلاد من تطبيقات في مجالات العلوم الانسانية ■

أحمد الفاني

استاذ وباحث في العلوم الطبيعية والصحيحة

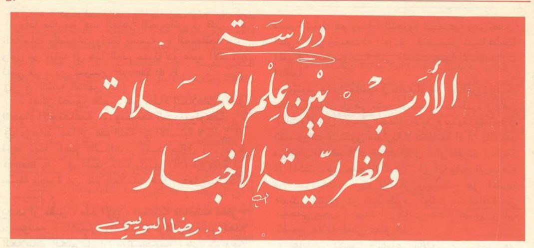


تكونين شاهدتي

شعر : خالد الخزرجي

على صفحة الماء أكتب اسمي ...
وأبحر عبر عواصم عينين .. ناعمتين
أرود المحيطات ،
أعبر قاراتي السبع ،
أسأل عنك الفصول التي ،
أوقدت نارها ..
والبلاد التي أنجبت ،
والتي بارك الجرح أمجادها ،
والتي اغتسلت بدم الانبياء ! ...
أقول بانك
كل الضفاف ،
وكل المواسم ،
كل الفصول ..
تجيئين زنبقة ،
ومواويل حب ..
وها أنت تنتشرين ،
عروق دم بين أوردة الارض ،
تغتسلين بماء البحار ..
وأسمع صوتك ،
يعبر كل الحواجز ،
يمتد عبر المحيطين ،
ينفلق الصخر ماء ..
تمدين في الارض نسغا ..
فتغدو الرمال ،
جدائل قمح
ويخضر عشب ! ..
وحين تجف دماء البحار ،
ويمحل روض
تكونين شاهدتي ،
آه .. يا وطنا ،
يطلع من أوردة الانهار
ندى ،
وخصوبة ! .
ان بغداد
تفتح للعشق
ابوابها ! ..

(بغداد ــ العراق)



مما لا نزاع فيه ان دراسة الادب أضحت تزداد يوما بعد يوم عمقا وتشعبا لما للادب من وثيق صلة بالعلوم الانسانية الاخرى بصفة عامة وبالعلوم اللغوية خاصة ، مما يحتم على دارس الادب والمتخصص فيه التضلع ، لا التطلع ، في الالسنية العامة ، (1) ونظرية الاخبار (2) وعلم السلالات الهيكلي (3) وعلم العلامات (4) والاسلوبية (5) والاغراضية (6) بالاضافة الى علم الدلالات (7) وعلم المعاني (8) وعلم البيان (9) والبديع (10) والاجتماع مع ما قد تستوجبه هذه الاخيرة من تقييم وتقويم على ضوء ما بلغته النظريات الحديثة في الخصوص . ذلك ان « النص الادبي » ، نثرا كان او شعرا ، قصة او مسرحية او مقالة ، يستمد كيانه من مادة لولاها لما كان ، آلا وهي اللغة ، واللغة باعتبارها وسيلة تخاطب تخضع الى نواميس تتجاوزها وتتجاوز دراستها .

هذا وقد حاولنا سلفا (11) تقديم بسطة وجيزة فيما آل اليه النقد الادبي في الغرب منذ ربع قرن تقريبا . فقد أصبح يعتمد في تحليلاته ودراساته علوما قائمة الذات ثابتة لا هي بالموضة الزائفة ولا بالتيارات الزائلة ، كما يحلو لبعض « ائمتنا المعتصمين بكراسي الجامعات » ان ينعتوها تنكرا لها ، والناس اعداء لما جهلوا ! وكان اولى بهم ان يقدموا على اعادة النظر في معلوماتهم قبل ابداء الراي فيها وفي انتاج غيرهم وتقيمه وهم بالتقويم أحرى .

على انه يعسر في مجالنا هذا التعرض الى جميع هذه العلوم الحديثة جملة وتفصلا ، بل قد يكون الانسب تقديم بسطة مختصرة في كل منها مع بيان علاقاتها بدراسة الادب ونقده . وتفاديا لما قد ينجر عن الاختصار من اقتضاب وجب ايراد احالات الى مراجع اساسية قد تشفي القارىء غليله وتكفيه مؤونة .

علم العلامات ودراسة الادب

قد يتبادر الى ذهن القارىء ان النقد الادبي الحديث أبعد ما يكون عن النقد الادبي عند العرب قديما . فيكون في ذلك مصيبا ومخطئا ، ذلك ان العرب قد تفطنوا الى الظاهرة اللغوية في الانتاج الادبي (12) ولكنهم بحكم وضعهم الحضاري والعلمي والثقافي قد ركزوا البحث على نواح دون اخرى لم يتفطنوا لها الا بقدر وعن حدس ، ولم يعد للحدس والتخمينات في عصرنا مجال .

ولو حاولنا قراءة كتب النقد القديمة قراءة جديدة تغاير القراءات المعهودة مغايرة كلية لادركنا ان اصحابها قد كانت لهم منطلقات في تآليفها لا تبعد عن منطلقاتنا الحالية كل البعد ، فلو اخذنا كتاب العمدة (13) لابن رشيق مثلا لوجدنا فيه ما لا يقل عن سبعة اصناف من المنطلقات ، فمنها الحضارية (14) ومنها السلوكية (15) ومنها الادبية والثقافية (16) ومنها اللغوية (17) والبلاغية (18) ومنها الاغراضية (19) .

على اننا لو قارنا بينه وبين عبد القادر الجرجاني مثلا فيما يخص الظاهرة اللغوية لوجدنا البون شاسعا فذاك ناقد وهذا عالم لغة . وان قال ذاك « **اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم** » (20) قال هذا معرفا للغة اولا « **ان اللغة تجري مجرى العلامات والسمات** » (21) ثم يقول في الخصوص « **أوليست هي سمات لها اوضاعها قد وضعت لتدل عليها** » (22) ثم تزداد نظرته دقة بقوله : « **ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه .** »

واذا بنا مع عبد القادر الجرجاني في قلب علم العلامات والسمات وكدنا نسميه « **السماتية** » . واول من انتبه الى هذا العلم حديثا هو عميد الالسنية نعني ف . دي سوسير F. de Saussure - حيث قال في كتابه الشهير (23) :

« **يمكن تصور علم يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية ... ونسميه السيميولوجية .** »

ويرى عالمنا هذا ان علم اللغة اي الالسنية لا يكون الا فرعا لهذا العلم بالذات . وقد حاول ر . بارط R. Barthes في اشهر كتبه واولها (24) ان يقدم لنا بسطة وجيزة عن علم العلامات هذا ، معارضا فكرة « سوسير »

يجب ان نقبل ، منذ الآن ، امكانية مناقضة مقترح « سوسير » باعتبار الالسنية لا فرعا ولو مميزا لعلم العلامات العام بل ان « السماتية » هي جزء من الالسنية ، وعلى وجه التحديد هي ذاك الجزء الذي سوف يعتني بالوحدات الكبرى الواردة في الخطاب – او المقال – فتبرز وحدة البحوث القائمة حاليا داخل علم السلالات والاجتماع والتحليل النفساني والاسلوبية حول تصور الدلالة » (25) .

فما هي العناصر المميزة لعلم العلامات حسب بارط يا ترى ؟

بعد مقدمة في علاقة اللغة بالكلام يعد صاحبنا لهذا العلم ستة عناصر اساسية وهي : « **الدال والمدلول** signifiant et signifié (26) **والنظـــم** والنظـــام syntagme et système **والسيــــاق** وعدمــــه connotation et dénotation ومما لا شك فيه ان تقديمها على هذا النحو لاكبر دليل على الرؤية الهيكلية لدى بارط وقد تفطن لها معتذرا سلفا . على ان المهم بالنسبة لموضوعنا هو مدى علاقة هذه المفاهيم بعضها ببعض وبدراسة الادب خاصة .

ولعلنا نجد في قول « الخطابي » مساعدة على ادراك المقصود فقد قال : « **انما يقوم الكلام بهذه الاشياء الثلاثة لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم** » (27)

ومما اتفق عليه علماء اللغة ان العلامة هي من الامور الاعتباطية الموضوعة ، فاللفظ الحامل او الدال هي علامة تستمد قواها من اتفاق حاصل ضمنيا بين الباث والمتقبل ، فان كانت العلاقة طبيعية بادىء ذي بدء بين الدال والمدلول (او اللفظ والمعنى) فنجد للعلامات مسببات لا زلنا نستشفها في بعضها الى يومنا هذا ومن ذلك المحاكاة الصوتية مثلا (حفيف وخرير وزقزقة الخ) ، لكن الاستعمال يفرض آخر الامر دلالة لم يكن الدال حاولها في البداية ، ذلك ان كل استعمال فردي جديد يرجع الى ناحية جديدة من الدلالة ، ويتولد عن جملة الاستعمالات وعن مجموع الرؤى الفردية قسم مشترك هو رسابة التجربة الجماعية وهو تصور الشيء الذي وضعت له المفردة . فتضمحل شيئا فشيئا المميزات الخصوصية التي انبعثت عنها الاستعمالات الاولية .

وتتوفر هذه المعجمية في طابع النشر ، فالمفردة ليست بحامل للمعنى بل هي تشير الى تصورات مقدرة في ذهن الباث والمتقبل ، وحتى يحصل الابلاغ بينهما يشترط في التصورات ان تكون متقاربة لا متطابقة اذ ان ذلك يعد من قبيل المستحيلات فيشير الدال (أو المفردة) حينئذ الى المشترك بين جمع المتكلمين ، اي انه يشير الى ما فيه من عموميات . فيقع الاتفاق ويصطلح على المفردة عندئذ : فتتخلى عن نفوذ طبيعي تولدت عنه لفائدة حق معجمي مجرد ، وبعد ان كانت مبعثا للصور والقيم تصبح علامة لمعنى مغلق قار .

على ان الاديب والشاعر بالاحرى يرفض هذا الاستقرار المجدب ، فيحاول جاهدا مقاومة الجمود بالبعث ، ويتمثل هذا البعث في تجاوز الحدود الموضوعة من قبل الاستعمال الجماعي والاصطلاحي . فيلجأ الى المعاني الحافة التي في امكان الدال ان يستمدها من شكله ووظيفته وأصله فيعكسها على الصور لا المتصورات المدلول عليها ، وكل صفة معجمية قديرة ان تمثل وازعا متجددا في هذا المجال . ومثال ذلك المشتقات والدخيل ومحاكاة الاصوات والمجاز والاستعارة وهي الشكل المميز في هذا الصدد .

والاستعارة هي بمثابة العلامة التي يستمد فيها المعنى الحاف المقصود دلالته وقيمته من صورة بدائية دالة ، ويقول عبد القاهر الجرجاني ما مفاده « **ان العادة قد جرت بان يقال في الفرق بين الحقيقة والمجاز ان الحقيقة ان يقرّ اللفظ على اصله في اللغة ، والمجاز ان يزال عن موضوعه ويستعمل في غير ما وضع له فيقال اسد ويراد به : شجاع ، وبحر ويراد به:جواد** » . (28)

ويقول ب . قيرو Guiraud في الخصوص « **هي (الاستعارة) بمثابة العلامة تستمد فيها الصورة الثانوية المقصودة معناها وقيمتها من صورة بدائية دالة . هي وصلة للمعنى ترتكز عن نظامين « سماتيين** » (29) ثم يردف قائلا : « **ان الدال ليس بالشكل الصوتي الاعتباطي وبدون وازع ، بل هو صورة مباشرة تشاكل بعض الشيء الصورة اللاحقة وهي موضوع الخطاب .** » (30) .

ونصل هكذا الى التساؤل عن وظائف المفردة وعن مدى حرية الاختيار لدى الباث في استعماله مفردة دون اخرى او ما يسمى بالاستبدال الجدولي وما ينجر عن ذلك كله من تأثيرات على السياق والابلاغ .

نظرية الابلاغ ودراسة الادب

كثيرا ما يلجأ نقاد الادب حاليا وعلماء اللغة الى الرسم (البياني) الذي وضعه رومان ياكبسون R. Jakobson في كتابه (31) . ويجمع هذا الرسم في واقع الامر بين رسمين وضحهما وعلق عليهما الكاتب في فصل « الالسنية والبويتقة » (32)

	المقام	
	(وظيفة مرجعية)	
الباث	الرسالة	المتقبل
(وظيفة تأثيرية)	(وظيفة أدبية)	(وظيفة خطابية)
	الاتصال	
	(وظيفة تأثيرية)	
	السنن	
	(وظيفة ما وراء اللغة)	

ان وظائف الكلام التي يبرزها هذا الرسم كثيرا ما تكون متفاوتة النسبة باختلاف نوعية الرسالة المبثوثة وغاياتها . فقد يتكلم « **الباث** » (33) ليعبر عن حالة تأثرية ، او هو يريد اخبار « **المتقبل** » او اقناعه او اعلامه فتكون وظيفة الكلام بالنسبة للباث **تأثرية** . **وخطابية** بالنسبة للمتقبل . على ان ما ينوي الباث ابلاغه ، لا بد ان يكون صادرا عن موقف او « **مقام** » خارج نص « **الرسالة** » نفسها ، ويسمى هذا الاطار الخارجي **مرجعا** فتكون وظيفة الكلام فيه **مرجعية** . وتلتزم « **الرسالة** » بالنسبة لموضوعنا وظيفة « **أدبية** » ويكتسي « **الاتصال** » بين الباث والمتقبل بصبغة **تأثيرية** ، اما « **الكلام عن الكلام** » كما يسميه ابو حيان التوحيدي فتلك هي وظيفة « **السنن** » الموضوعة فيها الرسالة وقد سميناها « **ما وراء اللغة** » وقد سماها غيرنا معجمية (35) او لغة تقعيد اللغة

ونخص بالذكر من بين هذه الوظائف الست الوظيفة الادبية (36) ، فيقول ياكبسون في الخصوص : « **ان الغاية من الرسالة (كامنة) في حد ذاتها . والتأكيد عليها هو ما تختص به الوظيفة الشعرية للكلام** » . فان الكلام الشعري هو تركيز الرسالة على نفسها ، وللقارىء ان يتساءل عن هذه الرسالة المركزة على ذاتها . كأن يقول مثلا : « **وهل من استعمال للمفردات ما لا يمت للواقع بصلة خارجها ؟** » هو في واقع الامر سؤال يعسر الرد عليه ، حيث يكون منطلق الرد فلسفة الكلام وفلسفة الواقع وفلسفة الانسان بل الكائن نفسه . و « الفلسفات » في مثل هذه الامور متعددة ومتغايرة ، على ان الاتفاق على فهم مدلول هذه العبارة ليس بالعسير وحتمي ، حتى نتمكن من ازاحة عقبات من شأنها ان تشوه بحثنا في مستوى الادراك .

كلنا نذكر تلك العبارة الشهيرة التي قالها مالارمي Mallarmé ردا على « دقا » Degas فقد قال : « **يا عزيزي « دقا » انما الشعر يصاغ بالكلمات لا بالمعاني !** » . وعلينا بادىء ذي بدء الا نحمل النص (او الرسالة) ما ليس فيه ، فنذهب الى اعتبار الشعر خاليا من المعاني ، اي انه لا يثير في ذهن القارىء معاني لها صلة بالعلامة الصوتية ، اي الدال والمدلول . ولا هي ترجع هذا الدال الى المتصور الناتج عن خبرته بالعالم . بل يمكن ادراج مزاح (مالارمي » في اطار آخر فنفهم انه انما عنى اولا ان الشعر لا يعبر ، بل لا يترجم عن افكار تكون سابقة لوجودها تعبيرا منمقا مزخرفا مثيرا ، فليس هناك افكار ثم كلمات معبرة عنها ، بل هناك كلمات وقد توجد افكار — خاصة فيما ينعت بالشعر الفلسفي — شريطة الا تفصل هذه الافكار عن « الشكل » الذي ولدها بالفعل ، ويقصد شاعرنا من ناحية ثانية بعبارته تلك : ان كل ما يعنيه الشعر (وهو ما يلتزم خبرتنا الواقعية بانفسنا وبالعالم الخارجي) متلطق ومرتبط وثيق الارتباط بالشكل الذي دل عليه ، بل هو اكثر من ذلك ، فهو نتيجة لهذا « الشكل » في معظمه ، وعندما يتحدث ياكبسون عن الوظيفة الشعرية « للرسالة » فلا يريد غير ذلك .

ان مثل هذه المعطيات قد اصبحت بديهية متداولة لكنها مع ما تكتسيه من جدية وموضوعية فهي لا تخلو من غاية جدلية موجهة الى ناحيتين :

اولا : مناهضة اعتبار الشعر « شكلا » مزخرفا ومنمقا للنثر ، وكلاما موزونا مقفى . فان مثل هذا الاعتبار ينفي عن الشعر ان يتصف بالكلام المغاير للنثر وبكونه نتيجة لحساسية خاصة .

ثانيا : مقاومة شرح القصائد الشعرية انطلاقا من معطيات خارجة عن النص نفسه مثل نفسية الشاعر واهم الاحداث الطارئة على حياته ودراسة عصره ودراسة التيارات الادبية المؤثرة في انتاجه ومصادر الهامه الخ ... الخ ...

لا يمكن بحال ان نعتبر القصيد منعدم كلا علاقة تربطه بصاحبه من حيث نفسيته ووقائع حياته وانفعالاته . لكننا لا نجد بين كل هذه العناصر

الخارجية ـ خارجية بالنسبة للنص ـ ولو عنصرا واحدا يعلل حقا توليد هذا القصيد بالذات ، بل يستحيل ان يكون حجة على ان الشاعر لا يمكنه ان يكتب او يقول القصيد في « شكله » النهائي الموجود بين ايدينا ، بل هو لا يفيد بالمرة مدى التجديد فيه والمتوقع وغير المتوقع بل مدى ما وضعه او صاغه او خلقه الشاعر انطلاقا من حالات شعورية او لا شعورية ولدت ـ الى حد ما ـ كلامه .

فاذا ما سلمنا بان المعنى الحقيقي للقصيد هو كامن في القصيد ذاته ، في شكله النهائي ، وان الشروح الهامشية لا يمكنها النيل من هذا المعنى او تغييره فلم نتحدث بعد عن شرح القصائد ؟

لنا في ذلك علل ثلاث : أولاها انه من الطبيعي ان نستخرج من القصيد بعد ان نمنطقه ما قد يصبح غير شاعري فيه ، ذلك ان القصيد قد يفسح المجال الى دراسة نفسية او تحليل نفساني او اجتماعي . الخ ... خاصة وان « اللفظة » الشعرية منتزعة من منطقة جوهرية بالنسبة للباث ، لفظة تعز عليه اكثر من « لفظته » العادية .

وثاني الاسباب هو ان الحال قد تدعو الى رفع بعض الالتباس الذي قد يحصل في فهم بعض المفردات ، او حتى المواقف . فقد يخل سوء الفهم بالخاصية الشعرية التي توجد في النص .

وتتمثل ثالثة العلل والاخيرة فيما يسمى في النقد الحديث بروح الدلالة الكامنة في « الشكل » . فقد نتوصل الى ادراك كيفية حصول الوظيفة « الشعرية » فادراك مدى تأثيرها ، ذلك اننا بمضاعفة انتباهنا الى النص دون المعطيات الخارجية نكشف عن العلاقات والصلات التي تجعل من القراءة « الجديدة » اكتشافا حقيقيا للمفاهيم الشعرية الواردة فيه .

واذا عدنا الى قولة « مالارمي » فاننا ندرك ان الكلمات في هذا السياق هي عبارة عن علامات تكون كل واحدة منها دالا ومدلولا كما بينا . وليس الشكل هو صياغة المدلولات ، فقد نقع بفهمنا هذا في محيط « الافكار » ثانية ، ان نحن لم نوضح ان المفردة الشعرية تستعمل بكامل شحنتها وبجميع امكانياتها الدلالية والعاطفية لا في حدود مفهوم الفرد بل في مفهوم غامض متشعب .

فالمفردة تستعمل في الشعر لغايتها ، ذلك ان الغاية ليست في غلق مجال العلاقات المكنة ارتباطا « بالمرجع » او المقام كما سميناه فنشير الى علاقة واحدة محددة ـ وهو ما يجعل من المفردة وسيلة بل آلة بسيطة ـ بل تكمن الغاية في فتح مجال الدلالة الى العلاقات الممكنة حتى نبلغ دلالة تفوق الدلالة العادية .

وان القواعد التي يضعها الشعر لنفسه والتي يشير اليها ياكبسون بقوله : « **ان الوظيفة الشعرية** (37)



مالارمي

تعكس مبدأ معادلة خط الانتقاء (الجدولي) على الخط النظمي (التركيبي) . قلنا ان هذه القواعد ترمي فيما ترمي اليه الى الوقوف عرضة في وجه كل محاولة تقصد ادراك العلاقات المنطقية (وهي محدودة من حيث الدلالة) القائمة بين المفردات ، وتعمل على تنمية تعدد هذه الدلالات اي انها ترمي الى خلق تعمية في المعنى والتباس وابهام وغموض انطلاقا من العلاقات الموسيقية للمفردات من حيث هي دلائل ، وانطلاقا من العلاقات غير المتوقعة بين المفردات من حيث مدلولاتها المتعددة فكل هذا هو « **الشكل** »

فصحت عبارة ياكبسون ، وهو « ناقد الشكل » عندما قال « **ان الغموض هي سمة جوهرية أصيلة لكل رسالة مركزة على ذاتها . وبالاختصار فهي نتيجة حتمية للشعر ، ونكرر القول لامبسون** Empson **: ان حركية الغموض متأصلة في الشعر اساسا** . (38) . »

ابدى ياكبسون مبداه التعادلي الذي ذكرناه آنفا في مساق حديثه عن الشعر والمقاييس الالسنية الخاصة به . فيقول (39) : « **ما هو المقياس الالسني الذي يمكننا من الكشف عن الوظيفة الشعرية بصفة حدسية يا ترى ؟ وما هو خاصة العنصر الذي لا محاد عن وجوده في كل عمل شعري ؟ ولنجيب عن هذا السؤال وجب التذكير بالعمليتين الاساسيتين للتأليف المستعملتين داخل السلوك الكلامي ، ألا وهما « الانتقاء » و « النظم » (او التركيب) . لتكن كلمة طفل (مثلا) هي غرض « الرسالة » . فان الباث يتخير داخل مجموعة من الاسماء الموجودة التي تقارب الكلمة (معنى) مثل صبي وصغير وفرخ وعيل ، فكلها متساوية من حيث وجهة نظر معينة ، ثم ان القارىء يختار فعلا ما**

يقاربها دلاليا قصد تحليل « الغرض » ، فيجد نام ورقد واضطجع وغفا ونعس الخ ، ثم هو يؤلف بين المفردتين المتخيرتين في السلسلة الكلامية ، فلقد وقع الانتقاء انطلاقا من التعادل والتشابه والتغاير والترادف والتضاد ولكن النظم (اي التركيب) للفصل (40) (الكلامي) ، فهو مبني على التجاوز . فتعكس الوظيفة الشعرية مبدأ تعادل خط الانتقاء على خط النظم . فيرفع مبدأ التعادل الى مستوى وسيلة أساسية للفصل . ويوضع كل مقطع شعري في علاقة تعادلية مع جميع المقاطع الاخرى الواقعة داخل الفصل الواحد ، وتعتبر كل نبرة كلمة مساوية لنبرة كلمة اخرى ، كما ان فاقدة النبرة تساوي شبيهتها ، ويعادل المقطع الطويل مقطعا طويلا أخر ، والقصير قصيرا غيره ، وتعادل حدود مفردة حدود مفردة اخرى ، وانعدام الحدود انعدام الحدود ، والوقوف الوقوف ، وانعدامه انعدام غيره . وتقلب المقاطع الى وحدات زمانية وكذلك الشأن بالنسبة للنبرات »

لافي-استورس

ويوضح « م . رفاتار » M. Rifaterre هذه الفقرة بالذات قائلا (41) : « ان الانتقاء والنظم هذا المبدآن الاساسيان لتنظيم الخطاب . وان اساس الانتقاء هو التعادل (علاقة استعارية) انطلاقا من التشابه او التغاير ، وان الباث يميز موضوع (رسالته) حديثه باختياره من بين المترادفات المتعددة ، ثم يقول ما أراد قوله اعتمادا على انتقاء ثان بين كلمات متبادلة . فنظم هذه المفردات اي تجاورها يكون « جملة » . فقد ميز ياكبسون بهذه الصفة هيكلا شعريا : انعكاس مبدا تعادل خط الانتقاء على خط النظم . وهكذا تنتظم المفردات في « فصول » ايقاعية ، وجناسية ومقفاة بمقتضى تعادلها الصوتي ». مما يحدث حتما معادلات دلالية بين المفردات ، فتدرك مدلولاتها الخاصة بها ، وكان بينها علاقات تشابهية (ومنها الاستعارة والتشبيه) او علاقات تغايرية (ومنها المقابلة والطباق) .

اي ان ترجيعة الاشكال المتعادلة اي توازيها ، هي الصيغة الاساسية للعلاقات الكامنة في الشعر .

وتوضيحا لهذا كله يكفينا الاستشهاد ببعض أبيات المعتمد بن عباد دلالة على هذه الترجيعة الصوتية او التوازي بين المقاطع والقوافي الداخلية منها والخارجية . فقد جاء في ديوانه : (42)

لكن عدتني نائبات النوى في دوحه // والشادن **الاحور** //

والكوكب **الوقاد** تحت **الدجى** // في **افقه** // والقمر **الازهر** //

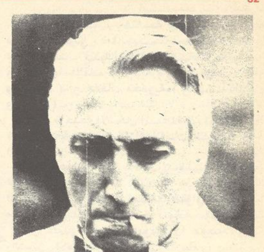
والنرجس **الفواح** غب **الندى** // في **روضه** // والمندل **الادفر** //

ان التعادل في مثل هذه الابيات يتمثل في « النوى والدجى » والندى « كما هو موجود في « دوحه » و « افقه » و « روضه » وكذلك بالنسبة للقافية الاصيلة « الاحور » « والازهر » و « الادفر » ولنأخذ من بين التعادلات الثلاثة هذه، واحدا فقط فنقول ان جميع الكلمات التي تنتهي بمقطع يشمل على حرف الراء مثلا وقع « عكسها » او تسليطها من خط الانتقاء (اي الجدولي) على خط تركيب الجمل التي تحتوي على هذه الكلمات والتي تكون بالضرورة في نفس الايقاع والوزن .

ثم يتضح ثراء شعر المعتمد من حيث فنياته في ذلك التوازي الداخلي على مستوى المقاطع والقوافي والتركيب والنبرات نفسها والوصل والوقف (46) . فان الفصول النظمية التزمت « ما لا يلزم » رغبة في التاثير على المتقبل .

ويعسر على المتقبل عدم الانتباه الى هذه الظاهرة « الاسلوبية » المقصودة بدون شك من قبل باث الرسالة الشعرية . فان كان عليه ان ياتي بقافية البيت طبقا لسنن العروض المتعارفة في زمانه . فما كان ذلك لزاما عليه بالنسبة للقافيتين الداخلتين ويعد هذا من الوظائف التاثيرية عند بث الرسالة .

ونلتقي هنا بقول « م . ريفاتار » مويدا راي «لافي استورس» Levy-Strauss في الصدد نفسه عندما يقول : « ونحن على استعداد لاقرار راي « لافي استورس » عندما يقول ان القصيدة انما هي هيكل تحتوي على متحولات (مستبدلات) منظمة حسب الخط العمودي لمختلف المستويات اللغوية . فيمكن



بارط

حينئذ **وصف** قصيدة ما (بقطع النظر عن كل المعطيات الخارجية) حتى لا يحتاج الى شرح خاصياتها باقحام ، وبصفة اعتباطية ، معطيات يعسر تحديدها مثل الانحوية والنشوز بالنسبة للمقياس وتقع مقارنة المتحولات ، وهي شرط مسبق للتحليل بكل بساطة ، بتفحص النص على مختلف المستويات اللغوية ، الواحد تلو الاخرى . (45)

على ان « م . رفاتار » يعترض في هذا الخصوص على لافي استورس وياكبسون معا قائلا [illegible] ان طريقة المؤلفين (46) **تعتمد على المبدإ المسبق القائل بان كل نظام هيكلي يبرزانه في القصيدة انما هو هيكل شعري »** . وفي الحقيقة قد ترد في القصيد الواحد هياكل لا وظيفة شعرية لها ولا تأثيرية كذلك . ذلك ان مثل هذه الهياكل قد لا تكون لها اي صيغة ادبية ، كما اننا قد نجد في القصيد الواحد من مميزات اللغة الشعرية ما يتجاوز حدود القافية والوزن والموازاة الصوتية ايضا .

اليس في استطاعة الشعر ان يخالف السنن الموضوعة ؟ أوليس في الشعر الجديد ما يكفينا دلالة على ان للغة الشعرية مجالات (47) لا تخضع بالضرورة الى مبدا ياكبسون !؟ فان الامثلة التي اعتمدها في تحاليله كلها منتخبة من الشعر التقليدي الموزون المقفى (و [illegible] لبودلار نفسه) . فمما لا شك فيه ان اختياراته هذه هي وليدة ثقافة تحتل البلاغة التقليدية فيها مكانة مرموقة بالرغم ما قد يبدو فيه من ابتكار [illegible] النظرة وتجديد الطريقة .

أمن حقنا ان نهمل جملة من الاشعار التي [illegible] للوزن والقافية وقد اصبحت لا [illegible] التقليدية كما وكيفا [illegible]

ان الرد على مثل هذه التساؤلات [illegible] هنا [illegible] وان للزمان [illegible] والتغيير [illegible] ■

[illegible] السويسي

[illegible] دار المعلمين [illegible]

1) انظر خاصة

Cours de linguistique générale
F. de Saussure. édit. Payot 1975

Essai de linguistique générale
R. Jakobson trad. N. Ruwet. édit. Minuit 1963

Problèmes de linguistique générale
E. Beneviste. édit. Gallimard N.R.F. 1966

2) قارن في الخصوص

Introduction à la psycho-linguistique
J.M. Paterfalvi. P.U.F. 1970

3) انظر

Anthropologie structurale
Claude Levy-Strauss. édit. Plon 1958

4) انظر خاصة

Le degré zéro de l'écriture
R. Barthes. édit. Gonthier 1964. pp. 181 suiv.

Pour une sémiologie de l'expression poétique
Congrès de Liège 1961. Actes Univ. de Liège

Introduction à la sémiologie
G. Mounin. édit. de Minuit 1970

Revue Communications N° 4. 1964

5) Essais de stylistique
P. Guiraud. édit. Klincksieck 1969

La stylistique
P. Guiraud et P. Kuentz. édit. Klincksieck 1970

Essais de stylistique structurale
M. Riffataire. Trad. Debas. édit. Flammarion 1971

الاسلوب . احمد الشايب . مصر [illegible] ص

6) قارن **النقد الادبي ودراسة الاغراض الشعرية** . صاحب البحث **بالحياة الثقافية** رقم 6 . تونس نوفمبر 1979

7) انظر **دلالة الالفاظ** : د . ابراهيم أنيس . القاهرة [illegible] صص .

8) انظر **علم المعاني** : د . درويش الجندي مصر . 217 صص .

9) انظر **علم البيان** : د . بدوي طبانة مصر 1967 ، 280 صص

10) انظر **البديع** : ابن المعتز مصر 1945 تحقيق م . عبد المنعم خفاجي .

11) قارن « **ملامح من النقد الادبي بالمغرب** » لصاحب البحث **بالحياة الثقافية** رقم 6 جانفي / فيفري 1976 تونس .

12) قارن **النقد المنهجي عند العرب** : د . م مندور مصر [illegible] ، 464 صص

13) **العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده** ، بيروت 1972 [illegible] ج

14) قارن باب المثل السائر نفس المرجع

15) قارن باب آداب الشاعر نفس المرجع

16) قارن باب فصل الشعر نفس المرجع

17) قارن باب اللفظ والمعنى نفس المرجع
18) انظر الكلام البليغ مثلا صص 250/245 .
19) قارن الجزء الثاني من الكتاب .
20) انظر **العمدة** ج 1 ص 124 .
21) **اسرار البلاغة** ص 377 .
22) **دلائل الاعجاز** 379 .
23) قارن الاحالة رقم 1 Cours de linguistique générale
24) هو Le degre zéro de l'écriture, édit. Gonthier 1964 .
وقارن مجله Communication N° 1964
الخاص « بعلم العلامات »
25) نفس المرجع ص 81
26) ويعرف الخطابي النظم بقوله « هو وضع كل نوع من الالفاظ التي يشتمل عليها فصول الكلام موضعه الاخص والا شكل به الذي اذا ابدل مكانه غيره جاء منه اما تبديلا للمعنى الذي يكون منه فساد الكلام واما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص 89 قارن في الخصوص حوليات الجامعة التونسية (كلية الآداب) عدد 11 : مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني » بقلم د . عبد القادر المهيري .
27) **ثلاث رسائل في الاعجاز** ، ص 27 ، تحقيق احمد صقر ، دار المعارف ط 2 .
28) انظر : **عبد القاهر الجرجاني** ، تاليف د . احمد احمد بدوي ، مصر قارن **دلائل الاعجاز** ، ص 180 .
29) انظر صص 227/226 من Essais de stylistique
30) نفس المصدر ص 227
31) محاولات في الالسنية العامة صص 248/209 . Essais de linguistique générale
32) نفس المرجع والصفحات
33) يكون الباث **باثا** ان انقى « الرسالةالكلامية ، ويتحول الى **متقبل** ان وردت « الرسالة » اليه من مخاطبه .

34) ويسميها ياكبسون « شعرية » توسعالمفهوم الشعر وتجاوزا له .
35) قارن الثقافة العربية سبتمبر 1975
36) وقد تسمى الوظيفة البلاغية او الاسلوبية .
37) قارن الفصل 11 من كتابه .
38) انظر نفس المرجع ص 238 ، وقارن ،
39) انظر ص 220 من كتابه Seven types of ambiguity, Empson
Essais de linguistique générale
40) يقول الخطابي « النظم هو وضع كل نوع من الالفاظ التي تشتمل عليها **فصول** الكلام موضعه الاخص والا شكل به » . انظر **ثلاث رسائل في اعجاز القرآن** ص 29 ويقول عبد القاهر الجرجاني في خصوص اعجاز القرآن « اعجزتهم مزايا ظهرت لهم في **نظمه** » . **دلائل الاعجاز** ص 83 . نشر عبد المنعم خفاجي . القاهرة 1389/1969 .
41) محاولات في الاسلوبية ص 308
Essais de stylistique structurale
42) انظر رقم 26 ص 37 . طبعة الدار التونسية للنشر 1975 . تحقيق صاحب البحث .
43) قارن المعتمد بن عباد وشعره . رسالة دكتوراه الدولة . مخطوطة بجامعة السربون وبكلية الآداب بتونس .
44) قارن Anthropologie structurale
45) انظر محاولات في الاسلوبية الهيكلية ص 309
46) اشارة الى شرح ياكبسون واستروس لقصيدة بودلار Baudelaire قارن : صص 21/5 1962 2.1 Les chats de Baudelaire. l'Homme
وكذلك صص 301/281 . La stylistique, Guiraud
47) قارن المقال La description de la signification en littérature. Tzvetan Todorov
وذلك بمجلة Communication رقم 4 . لسنة 1964 صص 39/33 .

البَراءة تسكن قلعة حلب

شعر : مصطفى أحمد النجار

سألني احد التلاميذ الذين رافقتهم الى قلعة حلب : اذا كانت القلعة قديمة جدا .. فكيف يحتفظ الدليل بمفتاح الباب الى الآن ؟

وقفنا وكنا ذهول الفراشات
زهو العصافير ، نجوى من يعبد الله حبا
وكنا شفاها « تتمتم سرا » عصي المنال
ولحنا « طوته القلوب زمانا » .. زمانا ..
وقفنا عيونا
تذر البراءات سربا فسربا
ويسأل طفل تفكر :
ومن اين مفتاح باب طويل ..
عريض قديم قديم ؟
ويضحك قلبي
ويغمر بالحب هذي العيون الصغيرة
أكاد أطير كما الطير جاوز سيف المنون
وحلق .. حلق فوق المنارة !
كأني أراه يهز حسام القتال السلام
ويدرج فوق سنام الوجود
وفي ناصع الحبر يدعى المناضل « بابا » المقاتل !
يدق ويفتح بالسيف بابا وبابا
وبالحرف يفتح باب الحياة !
ويسأل طفل بريء سؤالا
فيفتح قلبي .. تطير فراشات ...
تجري قناديل .. أشهق أشعر ان دموعا تسيل !
صغيري .. صغاري
تلاميذ هذا الزمان العصي العجيب
أود جواب السؤال
وحالا أريد التفكر في مقفلات الحصون ؟
فهذا الزمان خطير المراس
وهذا الزمان جميل
فكونوا خيولا
تراكض فوق سنام الوجود
وفرسان عصر بغير حدود
لنفتح بالسيف بابا وبابا
وبالحرف نفتح باب الحياة ؟ !

حلب ـ سوريا)

النقد ومفاهيمه في الأدب التونسي الحديث

دراسة : يوسف الحناشي

ان العامل المحرك للحياة الفكرية والادبية انما هو خاصة « النقد » ، وهو قد يتخذ له دورا خلفيا غير مباشر ، وقد يكون مباشرا متفاعلا مع الاحداث والظواهر التي تثيرها الحياة وعلى هذا الاساس نتساءل عن مواقف ادبائنا من النقد الادبي ، من حيث اعماله وخصائصه ونتائجه وواقعه ومستقبله ، واننا ننزل هذا الكشف مدة زمنية ، تمتد من سنة 1952 الى 1970 ، وشملت المصادر والمراجع التالية : — صحيفة « **الصباح** » التي ظهرت صفحتها الادبية قبل 1956 وسجلت بعض الانقطاع سنة 1957 لتختفي في اواخر الستينيات ، ثم صحيفة « **العمل** » التي بدات تظهر عليها صفحة ثقافية « للهواة » ابتداء من 1958 ، ونظرا لتخصصها في السياسة فاننا آثرنا تتبع حركتها الثقافية ابتداء من جانفي 1961 مع التاكيد على ان هناك انقطاعا يظهر بين الحين والآخر مثلما وقع اثناء « **معركة بنزرت** » 1961 ، واحتجاب الصفحة سنة كاملة (1965) ثم ظهور « **الملحق الثقافي** » بها ابتداء من سنة 1968 ، اما المجلات فهي مجلة « **الفكر** » التي بدات تصدر سنة 1955 الى اليوم وهي شهرية ونذكر منها خاصة العدد الرابع (جانفي 1967) الخاص بالنقد الادبي ، ومجلة « **التحرير** » التي ظهرت بعد 1960 وكذلك « **حوليات الجامعة التونسية** » التي صدرت سنة 1964 ، ومجلة « **اللغات** » التي كان يشرف عليها « احمد بلخوجة » واعتمدنا على الاعداد التي توفرت بالمكتبة الوطنية ، ونضيف اليها مجلة « **عبقر** » التي ظهر منها خمسة اعداد وساهم في تحريرها الدكتور فريد غازي . وكذلك مجلة « **ثقافة** » الصادرة عن « دار الثقافة — ابن خلدون » وخاصة اعدادها (8،5،2) اما الكتب النقدية فهي قليلة نادرة نذكر منها خاصة « **كفاح الشابي** » لابي القاسم محمد كرو (1) و « **شاعران** » لمصطفى رجب (2) و « **في الادب التونسي** » لمحمد الحليوي (3) و « **اللغة العربية ومشاكل الكتابة** » للبشير بن سلامة (4)

وفي ظروف مختلفة ، على مدى الفترة الزمنية المحددة ، تظهر مقالات تتناول قضية من قضايا النقد ، يمكننا جمعها وتبويبها من التحصل على رؤية نظرية معينة للنقد وما يتعلق به ، ونقتصر لضبط هذه الرؤية على اهم المسائل ، من ذلك :

1 — وجود النقد او انعدامه

تختلف الآراء حول هذا الموضوع ، فهناك من لا يعترف بوجود نقد في حركتنا الادبية ، فعبد الرحمان احمد يوسف يؤكد انه « **لنا ادب ولنا ادباء ، ما في ذلك شك ، ولكن ليس لنا نقد ولا نقدة ، لاننا لا نفهم النقد ....** » (5) وهنالك من يحترز في حكمه بعدم وجود النقد فيشير الى ندرته ، فعبد الرحمان اللموشي مثلا يعتبر ان « **عدد النقاد في بلادنا قليل جدا ... وحركة النقد لا تماشي تطور الانتاج الادبي من شعر وقصة** » (6) وهو ما يؤكده الحبيب الجنحاني عندما يقول : « **ان النقد الادبي لم يستطع ان يواكب حركة ازدهار الانتاج الفكري في الميادين الاخرى ، وبقي يشكو الهزال والندرة ، والقليل من الانتاج الادبي النقدي الذي تقراه او تسمعه احيانا تنقصه**

الموضوعية والدقة ، الدعامتان الاساسيتان في كل حركة نقد بناءة ... » (7) وهناك من يعترف ضمنيا بوجود النقد التطبيقي الا انه يرفض وجود النقد النظري فالطاهر اللبيب يقول : « **اني ساتناول جانب التطبيق واترك النظريات لأني ما عثرت على مقال او كتاب تحدث فيه صاحبه التونسي عن قواعد النقد او تاريخه او مشاكله او ما يتصل بنظرية النقد** »(8) وبجانب هذا التشاؤم نجد مواقف اخرى متفائلة . يعتقد بعض الكتاب ان لنا حركة نقدية متطورة (9) بطبيعتها وهو ما يراه العروسي المطوي والمنجي الشملي في ندوة خاصة بالنقد . يلاحظ الاول انه ليس متشائما اذ « **اصبحنا ننظر الى الانتاج نظرة مساهمة في عملية الانتاج او البناء التي قام بها المؤلف ....** » الا انه يستدرك فيعتبر ان الناقد « **ما زال في حاجة الى تركيز وتوجيه والى فهم حقيقي لوظيفة النقد ....** » (10) ويستند المنجي الشملي الى دور الصحف ابتداء من الثلاثينيات للتاكيد على «**توفر بوادر حركة نقدية معاصرة**»(11) وهناك من يعترف بوجود نقد ، تجمدت اساليبه وانعدم تطوره امام بقية الفنون الادبية الاخرى . ويحلل البعض اسباب هذا الانعدام والتحجر او عدم الاعتراف بوجود النقد ، ولعل اهم راي شائع هو اعتبار النقد وظيفة صعبة تتطلب ثقافة واسعة واخلاقا متأصلة وهذا ما يؤكده عبد الرحمان يوسف في قوله السابق (12) اذ ان « **النقد الادبي — في حقيقته — أعسر بكثير من اي صنف آخر من الكتابة لأن مقوماته وعناصر تكوينه قلما توجد كاملة مجتمعة عند احد من النقاد فهو لا يلين الا لمن اتسعت دائرة معارفه فدرس الآداب العالمية وميزها عن بعضها ووقف على دقائقها** » (13) ويدعو محمد مختار جنات الى نقد تتوفر فيه « **ثقافة عميقة وفكر متزن هادىء ووعي لاهداف المخاض الادبي وتفهم لشتى ظروف المعاناة وصبر في ادراك ما وراء محاولات الرواد وما عسى ان يكون قد نجم عنها من محاولات رعيل الزحف الجديد** » (14) ويثير البعض المشكل بطريقة مخالفة ، فيعتبر ان النقد الموجود انتاج لقراء لم يثبتوا كفاءتهم في الانتاج الادبي فيعمدوا الى « **تحطيم انتاج الآخرين دون ان يحاولوا ان ينتجوا انتاجا ذاتيا قبل التصدي الى النقد** » (15) ونخرج من هذه المواقف براي واضح ، هو ان وجود النقد مشكوك فيه غالبا واسباب ذلك متعددة تهم شكل النقد خاصة ولهجته احيانا . ويدلنا الترتيب الزمني لهذه المواقف على انها تظهر من حين لآخر وهي منتشرة على فترة زمنية محدودة بين 1956 / 1966 ، وبعد هذه الفترة يغلب التفاؤل ، ولعل هذا راجع الى كثرة الانتاج الادبي في المرحلة الاخيرة وظهور نقد يساير هذا الانتاج .

2 ــ النقد والاخلاق

يثير هذا الموضوع كثير من الكتاب في مناسبات عديدة ونصادف هذا المشكل منذ بداية فترتنا الزمنية . فهذا عبد الرحمان احمد يوسف يقول : « **بكلمة ملؤها الحق الصراح : ادباؤنا (شخصياتهم) لا تفهم من النقد الا السباب والشتم والمنقصة** » (16) ويؤكد الصادق مازيغ ظاهرة الانتقاد والخصام فيقول : « **لقد احببت منذ زمن ان اخصص بحثا للتنويه بقيمنا الادبية التونسية اذ لمحت طغيان الانتقاد المتحذلق الهدام الخالي من روح التقدير والتذوق النزيه للآثار الحية الجميلة** » (17) ويرجع الطاهر اللبيب بهذه الظاهرة الى « **ان بعض النقاد اساؤوا فهم وظيفة النقد في الحقل الادبي فهو عندهم خصام** » (18) ويثير محمد مصمولي الآراء المبنية على احكام مسبقة جاهزة فيدعو الى وجوب ازالة « **الاقلام الهوائية ذات اللعاب النقدي المتعسف المتمثل في ترصيف الاحكام البعيدة عن الرؤيا النقدية الشاملة** » (19) وقد يتطور هذا الجو الى ان يصبح متعلقا بالناحية الدينية ، وهذا محمد الصادق بسيس يشير الى ذلك « **أقوم اليوم مغيرا في قصيدك من نكران أراه منكرا من ناحية الشرع الاسلامي بالنظر الى مضمونه ولا اعتبار في هذا المقام للظلال الكامنة وراء الالفاظ والايحاءات الخاصة بل ان لكل لفظ مدلوله يلازمه ملازمة الظلام لليل والماء للبحر والوزن للشعر ....** » (20) وهذه المواقف منتشرة على طول فترة دراستنا وهي صادرة عن اجيال مختلفة في بيئتها وتكوينها ، فالصادق مزيغ ينتمي الى البيئة الصادقية اما محمد الصادق بسيس فهو ينتمي الى البيئة الزيتونية وينتمي عبد الرحمان احمد يوسف والطاهر اللبيب ومحمد المصمولي الى جيل آخر متخرج خاصة من الاوساط الثقافية التي هي اكثر تفتحا من الاخرى .

3 ــ مناهج النقد

يتناول الكتاب تقديم طرق ومناهج نقدية متنوعة لعل ابرزها :

أ ـ النقد الموضوعي :

ان الموضوعية نسبية ، قد يقصد منها اجتناب التاثرية والاعتماد على مقاييس واضحة لدراسة الاثر كما يقصد منها تحليل المصادر والمراجع ومقارنتها ببعضها بعضا والحصول على فكرة مستمدة من هذا التحليل . فالموضوعية تتجنب اذن التطرف في الطرق وتحاول ان تغلب عنصر العلم على عنصر الذات والذوق ، ولعل كل مدرسة نقدية تدعي « **الموضوعية** » ولذلك لا يمكن ضبط هذا الاتجاه في تعريف قار . لهذه الاسباب تكثر المناداة بهذا النقد ، وهو ما يشير اليه عبد الرحمان احمد يوسف عندما يؤكد انه « **يحسن للباحث الذي يريد ان يتقصى الحقيقة ولا يتقصى مغبة الاصداع بها ، تركيز بحثه يساير مبداه النزيه في الاستنتاج ، اذ بدون ذلك تنعدم فائدة الدرس وتذهب اشلاء بين طرق الالتواء والتمويه والمغالطة وما النقد الا عملية فحص وتشخيص : تمييز وموازنة** » (21)

فالموضوعية تقوم اذن بعملية تحليل الاثر وتؤدي الى استنتاجات ايجابية حوله ، ويتجاوز محمد فريد غازي هذا الراي للدعوة الى موضوعية يمكن ان ندعوها « **التعقل** » أو « **الاحتشام الفكري** » أو « **التذوق** » السليم فيقول : « أحب دائما ان **يكون بيني وبين النتاج الادبي مدى زماني ، يخول لفكري حرية ازاء الحادث الادبي** » تجعله ان حكم يحكم بلا شطط ، بل في تعقل وفي نوع من الاحتشام الفكري والذوق السليم الذي ينشده « ديكارت » (22) فهذه الموضوعية المنشودة يمكن ان تحدد في وجوب تركيز البحث وتخطيط وجهة واضحة له ، ومحاولة الاحتراز من الاثر وايجاد بعد بين الناقد ومادة النقد لكي لا تنشأ التأثرية .

ب ـ النقد التاليفي :

يعمد هذا الاتجاه الى اعتبار الاثر عائدا الى فكرة معينة ، يحاول الناقد اثباتها في نهاية البحث مستعينا بأدلة متنوعة ومختلفة . نعثر على راي للبشير الزريبي حول هذا الاتجاه . ينطلق الزريبي من شعر « الشابي » فيلاحظ : « **اننا في دراستنا لتجربة الشابي نتطلع الى جانب التحاليل المجزأة والدراسات المبوبة ، اننا نتطلع لايجاد فكرة ائتلافية تحدد معرفتنا لطبيعة التجربة الشعورية التي انتهى اليها الشابي في اطارها التكاملي ، الا ان هذه الفكرة ينبغي ان لا تكون من قبل تلك المستدعيات الذهنية التي توحيها آراء شاعرنا نفسه في مواقفه المتعددة من مشاكل الوجود بل يجب ان نستخلص من انتاج الشابي ذاته وتوضع في مفهومها النظري الذي يسرد صدقه كل منتجات الشابي الادبية** » (23) فالنظرة المتكاملة للأثر تنطلق من الانتاج ذاته وتقطع الصله بأي مصدر اخر للكاتب ويعمم الزريبي هذه الطريقة فيدعو الى تطبيقها اذ حسب رايه « **حان الوقت الذي ينبغي فيه تناول مأثور الشاعر او الاديب بتمامه وكماله على انه يكون وحدة تربط بين مواضيعها المتباعدة في الطبيعة والمظهر نظرية عامة او فكرة مرجعية** » (24) وتتلخص مزايا هذا المنهج عنده في اجتناب تشتيت تجربة الكاتب الفنية وارجاعها الى مصادرها .

ج ـ النقد النفساني :

يستعين الادب ببعض العلوم الانسانية وخاصة « **علم النفس** » والنقد النفساني يعتمد على قواعد « **علم النفس** » لدراسة الآثار ، وبدون شك ، فان الآثار الادبية التي تخضع الى هذا المنهج يجب ان تتوفر فيها بعض الصفات المخولة للناقد تحليلها والتعمق فيها ويدعو الى هذا الاتجاه احمد باكير محمود بقوله : « **اذا اردت ان تفهم ادب اديب او شعر شاعر فهما حقيقيا فعليك ان تعرف شيئا عن ازماته النفسية التي كان يعانيها ...** » (25) وتجدر الاشارة الى ان الدعوات في هذا الاتجاه قليلة وغير صريحة في النقد النظري .

د ـ النقد الذاتي :

لا يستند هذا الاتجاه الى مقاييس موضوعية ثابتة بل يعتمد على « **الذوق** » و « **التجربة الشعرية** » امام الاثر . وهو ما يتصف به نقد الخواطر فعامر غديرة ينقد الادب العربي فيقول : « **خطرت بي هذه الخواطر على سبيل الحدس والشعور الغامض فجاءت في آن ومبعثرة في غير ترتيب وكذلك قالب القواعد والاحكام ، لاني واثق من صحتها وان لم ابدلها برهانا دائما ...** » (26) فالكاتب مدرك هذه الطريقة على تاثر منهج بحثه ونتائجه وما تحدثه من تفكيك وبعثرة للآراء والسوابق وقد يتخلص هذا النقد من « **مسؤولية الحكم الخارجي** » وهو ما يشير اليه الهادي نعمان » عندما يوضح « ان مرحلة المعيار يكون الجواب عنها في نفس الناقد الادبي ... » (27) ولبناء هذا النقد يحاول بعضهم تفسير « **الذوق** » واقرار مقاييس له .

ج ـ النقد العلمي :

اذا كانت الموضوعية نسبية فان الصفة العلمية للنقد نسبية ايضا ، يمكن ان تكون عند بعضهم اهتماما بالعوارض الشكلية للأثر دون تحليل مادته الحاملة لطاقة النفس والتفكير معا ويمكن ان تكون ايضا دراسة المصادر والمراجع بالاعتماد على مقارنة الاحداث وتقصيها واستعمال المنطق وبعض نتائج العلوم كالطب ودراسة البيئة الجغرافية ...

يدعو بعض النقاد الى اتباع المنهج العلمي ويتمثل في بحث المصادر والمراجع بكل دقة للوصول الى حقيقة شبه قارة . ويحدد احمد خالد مراحل هذه العملية فتبدأ

عنده « بضبط الموضوع » عن طريق « الاختيار الحر » ويشرع المؤلف في البحث والتنقيب : « يضبط موضوعه ويحدد جوانبه وعناصره انطلاقا من فكرة تخطر بباله ، وقد لا تظهر له معالم الموضوع وعناصره الجوهرية والتفصيلية الا بعد التوغل في البحث وتفهم الموضوع والفكرة الرئيسية ... لان الموضوع ينمو ويتفرع كلما طال البحث وتشعب .. » (28) ونصل بهذه الطريقة الى اتباع دراسة علمية اذ ان « الدراسة ليست تكديس المعلومات بل ربط الاسباب بالمسببات وتحليل المشاكل تحليلا علميا . انها نظر وتعليل بعد وتنقيب وفيهما معنى الحفر كما في النقد مرادف النقر في اول اللغة اذ ان الدارس يزيل الغشاء عن المشاكل فيهمها ويفهم القراء ما يكتشفه ثم يحكم . » (29)

تتصف الطريقة بضبط المصادر والمراجع خاصة والبحث في علاقات الاحداث انطلاقا من مبدا السببية .

خ ـ النقد الشكلي :

يفرق هذا الاتجاه بين الشكل والمضمون ويرجع تطور الادب الى ظاهرة الشكل وعلى هذا الاساس يعتني بدراسة الشكل ويترك جانب المضمون . ويستنتج محمد بن صالح بن عمر « ان المضامين لا تهم الا الكاتب وحده وان الشكل هو الذي يجب ان يتوجه اليه النقد ، فنحن مستعدون لنقد اي انتاج شعري تتضح منه عناية صاحبه بالتجديد في الشكل سواء أكان هذا الشعر هادفا ام غير هادف لان هذه الناحية اي التجديد في الشكل هي التي يهتم بها النقد الطلائعي ... » (30) فهذا النقد اذن يعتني بدراسة .

4 ـ محاور النقد

يعتني النقد بدراسة نواحي مختلفة من الاثر الادبي . فمن النقاد من وجه عنايته الى الاسلوب وطريقة المؤلف في التعبير بصفة عامة . ويعتقد عبد الرحمان احمد يوسف ان « النقد درس لاتجاه الاديب من حيث طريقته الخاصة في التفكير والتعبير فله درس اسلوب الكاتب وتمييزه ومناقشة افكاره في نطاق احترامها ... » (31) وقد يتناول النقد اكتشاف التجربة ومعايشتها فيصبح النقد بهذه الصورة خلقا جديدا للاثر فمحمد بينوس يرى ان « النقد يعين القارىء على تفهم الاثر وعلى التجاوب الشعوري مع الكاتب الذي يجب عليه ان ينظر في الاساليب والطرق التي يستطيع بها ان ينقل احاسيسه ومشاعره الى الغير فيختار اقومها واسهلها ... » (32) ويهتم الشاعر عبد العزيز قاسم بعلاقة النقد بالشعر ويرى ان « مهمة النقد تتمثل في فك رموز ذلك الغموض ولا يتاح ذلك الغموض الا اذا درس الشعر دراسة شاملة عبر العصور ... » (33) ويرى الاستاذ المنجي الشملي نفس الرأي ، فيعرف النقد بانه « حوار بين النص وقارئه وفي هذا الحوار اعادة كشف عن تجربة الكاتب الشعورية وقد اخرجها في صورة موحية » (34) الا ان هناك من يربط تحليل التجربة بعناصر اخرى للخلق الفني مثل تاريخ الادب وعلاقة الاثر بالمؤلف ويعتبر عبد العزيز قاسم ان مهمة الناقد تتمثل في « وصف الآثار وشرحها وتأكيد أصالتها وطرافتها ، وضبط علاقتها بالمؤلف وبالتاريخ الادبي العام وبالقوانين الخاصة بالنوع ، والوسط الذي ظهرت فيه والنقد تبصر وانتباه للحدث الشعري السائد واحلاله المكانة المرموقة وهي مهمة تحليلية تجرد القصيد وتشرحه كأثر في حد ذاته ، وتأليفية تضبط منزلة الاثر وتدمجه في سلسلة الآثار الفكرية الاخرى ... » (35) وقد تكون مهمة الناقد اكتشاف الاصيل من الاثر ، و « طرح الزائف الرديء بماله من خبرة واطلاع وتجارب وممارسة » (36) والشاعر يكتفي بهذا التعليق دون توضيح مفاهيمه للاصالة والزيف . وقد يتناول النقد ناحية المضمون فحسب وهذا ما يلاحظه الشيخ محمد الصادق بسيس عندما يدعو الى اعتبار المعنى اكثر من المضمون فيقول : « يجب العناية بالمعاني اكثر من الالفاظ » (37) ويعاكس محمد بن صالح بن عمر هذا الراي منطلقا من التفريق بين ما يسمى بالكلام العادي والكلام الادبي ، فيخاصيه الكلام العادي « تتمثل في استمداد اهميته من المعاني او بعبارة ادق المضامين المعنوية ويعرف الكلام الادبي بانه « مجموعة الحروف والكلمات الخاضعة اضافة الى القواعد النحوية والصوتية المتعارفة لنظم اخرى مستنبطة من المحيط الصوتي (...) او المجتمع الذي يعيش فيه الكاتب (...) وهذه النظم تجسم انصهار النص الادبي في العالم الخارجي الذي يعكسه عكسا امينا دقيقا »

(38) ومن هذا التحليل الذي يرجع الادب الى ابنية المجتمع ، يرفض الناقد الاعتناء بالمعنى ويهتم بالناحية الشكلية فحسب (39)

5 ـ مقاصد النقد

بقدر ما تختلف محاور النقد تتنوع الغايات والاهداف منه ولعل ابرز هدف للناقد ، كثيرا ما يتردد على اقلام الكتاب والنقاد على حد سواء ، هو « **التوجيه والارشاد** » . يدعو عبد الرحمان احمد يوسف الى « **ضرورة ايجاد النقد التوجيهي الموضوعي** » ويدقق الطاهر المعموري هذه الغاية بالتاكيد عليها عندما يقول : « **ما عرفت شيئا يعرف الشاعر نفسه ، يوضح له قضية وجوده الشعري وينبهه الى المسالك المامونة يحقق بها وجه الانطلاق كالنقد كذلك ...** » وهو ما يؤكده الهادي نعمان فيجعل من الناقد « **مرشدا موجها وهذه المرحلة من الدقة الى درجة ان نجعل الناقد الموجه مرشدا عالما باصول النقد والادب ومن هنا فلا يصح ان يتعاطى النقد غير الكفء والمقتدر ...** » (40) ويعتبر البعض غاية النقد اعادة خلق الاثر من جديد وتقريبه للقارىء وهو ما يؤكده محمد بينوس عندما يرى ان « **مهمة الناقد هي التي تصير الاثر الادبي فنا متكاملا يسمو بالروح وبالعواطف الى عالم فني خالص** » (41) ويثبت فرج المحجوب هذا الراي معتبرا ان « **الناقد الاصيل يستطيع ان يلجم بالكلمة حينا او يجعلها في مستوى الوحي السرمدي الاعظم ، وذلك جزء من رسالة الناقد الادبي** » (42) الا ان من الناقد من يقطع الصلة مع النقد ويعتبر غلطا مراعاة الغايات والاهداف للاثر الفني بل يجب ان يبقى الاثر محافظا على وحدته واستقلاله التام وهو ما يشير اليه مصطفى رجب عندما يقول في رده على احد المنتقدين له « **جائز ان يقلق ويتضجر بعد الفراغ من قراءة كل عمل ادبي ما دام ينظر الى العمل الادبي من زاوية الغاية والمقصود** » (43) ويدعو محمد مصمولي الى « **ايجابية التحاضن الفكري والزمالة الفنية القائمة رغم اختلاف النزعات** » (44) وتجدر الاشارة الى ان هذا **التحاضن** يكون على مستوى المؤلفين وعلى مستوى انواع الفنون من رسم ونحت وموسيقى ... وهناك من يعتبر النقد واسطة بين المنتج والمستهلك قد تتحدد في « **عملية اشهار** » اذ « **ينشر الشاعر اثرا جديرا بالعناية ولكن القراء العاديين يمرون بذلك الاثر كما يمرون بأثر عادي ، ودور الناقد هو التنبيه الى هذا الاثر** » (45) وهو ما يؤكده الاستاذ عبد القادر المهيري عندما يرى ان الناقد « **همزة وصل بين القارىء والمنتج ، وهو الذي يلفت الانظار الى قيمة الانتاج القيم ، وهو الذي يجعل منه حدثا لانه قد تنشر اشياء لها قيمة ولكن لا تثير من الصدى ولا تثير من الضجيج ما تستحقه لانه يجب ان يحاط الانتاج الفكري بضرب من الضجيج يجعل من لا يهتم به عادة يلتفت اليه ويقبل عليه ...** » (46) وامام هذا التصور للنقد يحاول الكتاب والنقاد تحديد شروط الناقد .

6 ـ شروط الناقد

لعل ابرز شرط للناقد يتمثل في وجوب الالمام بثقافة فنية وادبية . يرى الطاهر اللبيب ان « **النقد الادبي في حقيقته اعسر بكثير من اي صنف آخر من الكتابة لان مقوماته وعناصر تكوينه قلما توجد كاملة مجتمعة عند احد النقاد . فهو لا يليق الا بمن اتسعت دائرة معارفه فدرس الآداب العالمية وميزها عن بعضها ووقف على دقائقها ...** » (47) وقد يعمم هذا الشرط فيشمل « **الثقافة** » و « **التجربة الوجودية** » ان صح التعبير وهو ما يشير اليه نور الدين صمود عندما يعتبر ان الناقد « **يعين القارىء على اكتشاف الاصيل القيم وطرح الزائف الرديء بما له من خبرة واطلاع وممارسة** » (48) ويلتقي عبد العزيز قاسم براي خاص في الموضوع يرى وجوب الاقلاع عن « قانون التطور الطبيعي في الفن » اذ يقول : ان « **الناقد هو الذي يسجل نتائج التجربة الحالية ويتكهن بنوع التجربة القادمة ويساعد على بعثها بما له من حدس وذوق وبما اكتسبه من معرفة بقانون التطور الطبيعي في الفن بفضل ممارسته لجميع اصناف الشعر في العالم قديمه وحديثه ...** » (49) ويضيف المنجي الشملي الى هذه الشروط جانب الذوق الذي يتآزر مع فلسفة النقد اذ حسب رايه « **أحق الناس اضطلاعا بالنقد أهل الذوق الخالص من الاهواء وأهل المعرفة بفلسفة النقد لان نقد الناس بلاء عظيم** » (50) وهناك من يقتصر على عنصر « **تجربة الناقد الاجتماعية** » ومدى اتصالها بالواقع وهو ما يؤكده محمد بينوس عندما يقول : « **نحن نعلم ان الادب مصدره الشعور والاحساس الفني ونعلم ان النقد مصدره الذوق السليم وانا في رايي ارى ان الاديب اذا لم يكن مصدره الحياة وواقع الحياة فليس هو من الادب في شيء وانما هو التحجر والجمود وهو**

الرجوع الى الوراء ايضا » (51)

يلاحظ الدارس لهذه الآراء انها تكاد تكون في سياق واحد وهو الدعوة الى ايجاد نقد يسد الفراغ الموجود سواء في المستوى النظري او التطبيقي . وقد جاءت اغلبها في مقالات قصيرة عن طريق الصحف في ظروف خاصة مثل الندوات او التعليق على معركة نقدية ، وهي لا تنبع من نظرية معينة للادب بل متأثرة بالثقافة العامة والمطالعة بصفة خاصة مما يضفي عليها صبغة الارتجال والسطحية وعدم الاحتراز احيانا في الاصداح بها . ومع ذلك فقد تناولت جوانب عديدة من مفهوم النقد وقضاياه وفلسفته فتكون بذلك دليلا على ان الحوار متوفر على الاقل نظريا . وتقدم لنا هذه الاراء تصورا لمفهوم النقد الذي يصبو اليه الكتاب والقراء ، ومن اهم خصائص هذا المفهوم ، الموضوعية والالمام بثقافة متأصلة وذوق خالص ، الا ان الناحية النظرية لا تكفي لاعطائنا صورة عن النقد في ادبنا الحديث اذ لو قارناها بما توصل اليه النقد في اوروبا والغرب عامة ولا نغفل الشكليين الروس لاستنتجنا ان الامر لا يتعدى مبادرات يعود بعضها زمنيا الى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وبعض المذاهب النقدية المبكرة في القرن العشرين . فمجال الخلق والابتكار ما يزال مفتوحا اذن وقد يكون ذلك ليس على الصعيد التونسي فحسب ، وانما يتعداه الى العربي . اما السنوات الخمس الماضية فقد قدمت لنا بعض المحاولات في ذلك نذكر منها خاصة دراسة نورالدين عزيزة عن الشعر (52) ومقالات احمد الحاذق العرف ودراسة حسين الواد عن رسالة الغفران ، وهي ان كانت قليلة من حيث الكم فهي فعالة نضرة من حيث الكيف ■

يوسف الحناشي
ناقد ادبي

1) ابو القاسم محمد كَرو ، سلسلة « كتاب البعث » 1957 ، تونس
2) سلسلة « كتاب البعث » 1957 ، تونس
3) عن الدار التونسية للنشر ، 1969
4) عن الدار التونسية للنشر ، 1971
5) الصباح « مشكلة الادب والنقد » 1956/1/13
6) العمل « النقد ومسؤولية الناقد » 1964/19/12
7) العمل « ازمة النقد » 1966/4/1
8) « الفكر » النقد في تونس عدد 1962/1
9) استعمل هذا التعبير للدلالة على الحوار المتبادل حول الادب والنقد
10) الفكر — النقد الادبي المعاصر في تونس ، جانفي 1967 ص 83
11) الصباح مشكلة الادب والنقد 1956/1/13
12) انظر الاشارة رقم — 5 —
13) الصباح صيحة الازمة الادبية 1966/10/20
14) الفكر — النقد الادبي المعاصر في تونس عدد 1967/4 ص 83
15) نفس المرجع السابق
16) الصباح « مشكلة الادب والنقد » 1956/1/13
17) الفكر « قصص البشير خريف في الميزان » الصادق مازيغ ، عدد 1962/8
18) الفكر « النقد في تونس » عدد 1 ، 1962
19) الفكر « كلمات » محمد مصمولي عدد 1967/5 ، محمد مصمولي
20) الصباح « الصورة قبل الاطار » 1965/9/4 ، محمد الصادق بسيس
21) الصباح « حاجتنا الى النقد التوجيهي » 26 — 1956/2/2
22) « الفكر » حول افلاس عدد 8 ، 1959
23) « تجربة الشابي » عدد 1 ، 1958
24) تجربة الشابي عدد 1 ، 1958
25) الفكر « مركب النقص » احمد بكير عدد 9 ، 1962
26) الفكر « خواطر في الشعر والخيال » عامر غديرة عدد 10 ، 1963
27) العمل الناقد « الهادي نعمان » 1964/6/13
28) احمد خالد « شخصيات وتيارات » (المقدمة) 1970
29) نفس المرجع
30) الفكر « لماذا الادب الطلائعي التونسي ؟ » الفكر ديسمبر 1970
31) « الصباح » مشكلة الادب والنقد 1956/1/13
32) الصباح « عودة ثانية » 1956/4/13
33) الفكر — نقد الشعر عدد 4 — 1967
34) الفكر — نقد الشعر عدد 4 — 1967
34) الفكر — فلسفة النقد عدد 4 ، 1967
35) المصدر السابق
36) الفكر « نقد الشعر » عدد 4 — 1967 (في الصباح « الصورة قبل الاطار » 65/9/16
37) « الصباح » الصورة قبل الاطار — 1965/9/16
38) الفكر لماذا الادب الطلائعي التونسي عدد 3 — 1970
39) انظر الاشارة رقم 30
40) العمل « الناقد » 1964/6/13
41) المصدر السابق
42) الصباح « حول قصيدة الشعب العربي » 1956/12/13
43) مصطفى رجب « رد على تعقيب » الصباح 1956/3/2
44) محمد مصمولي « التحاضن الفكري » الفكر — عدد 8 — 1967
45) الفكر عدد 4 — 1967
46) المصدر السابق
47) الفكر ، النقد في تونس عدد 1 — 1962
48) الفكر — « النقد بين الشاعر والناقد » الفكر عدد 4 ، 1967
49) الفكر « نقد الشعر » عدد 4 — 1967
50) الفكر « فلسفة النقد » عدد 4 — 1967
51) الصباح « في مشكلة الادب والنقد » 1956/5/18
52) الصدى اكتوبر / نوفمبر 1973 في اعدادها 23/24/25/26/27 .



الموت في جزيرة الصوفي

قصة : ابراهيم بن مراد

هذه هي الجزيرة ، ولقد كان سيدا وابن أنت ايتها الرجولة ! وقد دفعته مركبة ضالة متحطمة الى شاطىء . وهو أصيل جزيرة قد تبعثرت فيها تخيلات شاحبات ذابلات وشجيرات زيتون كاسرات الطرف ذلا هزيلات الظلال . وقد كان الطريق معوجا شاحبا . وكان البحر الابيض مشحاحا . وكان البحر يذكره بشحوب النخيلات وكان الطريق يذكره باعوجاج أيامه ولياليه في مدار مغلق لا منزل فيه . فقد نضب البحر وقد جف الطريق وقد جف عود النخل وقد أعياه المسير وأيقن ان الانسان هالك ، وان الانسان لا بد ان ينتهي به الطريق والترحال والركض وراء الظل الى القبر والتراب والارض . ولكـــن معالم هذه الجزيرة تنبىء بأن استقراره هذا ليس نهاية الرحلة او هو النهاية التي لا بداية قبلها ، فقد كان يحلم بهذه الجزيرة وقد كان سيدا . واين انت ايتها الرجولة ! رغم ان الحياة هناك منعدمة والظل وارف والارض شمطاء والبحر مقع على ساقيه الاماميتين منتظرا قيام عاصفة واز باد الموج واقلاع الريح وهيجان الحوت وانطلاق السموم واعوجاج الطريق وانطماس المعالم والنجوم ، وزائرا ما ... حتى يتوتر الجو وتحتد في عينيه لحظات الانتظار وتزفر احشاؤه ، فيتنفس الهواء في هذا الخلاء ملحا او طينا او ريحا سموما ، او ما شاءت الطبيعة من هذه الاصناف ، حتى يمتلىء جوف الهواء توترا . ثم تحدث رجة خفيفة صغيرة رقيقة يمكن ان تشبه صرير موسى على ذقن او صرير باب يفتحه النسيم في يوم قائظ ، وتكون هذه الرجة ايذانا بمقدم شخص الى هذه الساحة البيضاء المتجاعدة المترقبة فيعتقد من ألقى به البحر والشاطىء الى الارض قد توقعت نزوله ، واذا الجزيرة جبل كبير كبير ذو منافذ الى كهوف كثيرة في الارض الكثيرة يحفظ به البحر الماء ، والموج والزبد والحوت والريح والمطر والزرقة والحشائش الخضراء واليابسة وصغار الطير وكبارها وعالم صغير صغير ... ويريد من ظنه ان يذهب به الى ان ما اكتشفه كنز وصلاة وخشوع وتسليم بأن الحياة جميلة وان الطقس بديع وان العالم لن يفنى وان الجنة تحت أقدام البحر ... فقد كان بحارا . وكان البحر أمنيته . وكان البحر يقلع به على قاربه الصغير الذي طالما داهمته الاسماك ، وقد استطاع طائر من طيور البحر ان يثقبه فامتص الماء ليونة الواحه فحطه الماء في دائرة من الشحوب والظل والسراب والزرقة واليبس اسمها الجبل . وقد تقلص جسمه فاذا هو بحر ، وماء دماغه فاذا هو جبل واذا هو من الجبل والبحر آدم أو طين لم يعبد بعد ولم يخلق لكنه في انتظار دائم عله يرى امرأة ما . وفكر في الصورة التي يمكن ان يخلق عليها فاختار غير التي له . لولا أن شاهد حوتا كبيرا يقع على رمل الشاطىء الحجري يتنهد ويجهد نفسه ليكتم عاصفة بكاء تنبىء بها عيناه الضيقتان الحادتان . فنظر الى الحوت بانبهار وقال لا بد ان تكون خلف حزن هذا الحوت حوتة جميلة مغناج فراشية الصدر والظهر . واقترب من الحوت . فانبزق الحوت في الماء من جديد ضاحكا ماسحا دموعه ! فشعر بنفسه مخيفا رهيبا ذا شان ، فملأه الاعتقاد من جديد بأنه سيد هذا الكون وانه رئيس مدير عام وانه سلطان السلاطين وامبراطور الاباطرة اذا أراد شيئا ان يكون يقول له كن ، فيكون . وقال : أنا ... هو أنا ، وهذا هو الثلث الخالي من الدنيا . فقد أخذ الظلام يتكاثف يتكاثف واخذ البحر يتكـاثف وأخذ الجبل يتكاثف ثم أخذ هو يتكاثف فاذا العالم كثيف واذا الدنيا رقيقة الملمس دعجاء الساقين حوراء الاذنين شاحبة العينين من البكاء لشدة الضحك الذي انتابها عندما شاهدت نملة تسرق حبة قمح بايعاز منها من قصر ملىء قمحا . أو لعلها تذكرت طوافها بنفسها وإغراء نفسها لها بالانتحار في موج مزبد او الغرق في جوف حوت صحراوي الوقع او الانتفاء في سحابة همحمة الصدى . وأرادت أن تزور الجبل الذي خلقت



فيه والبحر الذي خلقت منه والارض
التي خلقت منها فانتصبت في سفح
الجبل فرأى صاحب الجزيرة الذي الموج
والمركب المتحطم الى الشاطىء والرمل
اللين والحجر اللين والجبل قذف به
الناعم المكدس ، فرآها امرأة
ساحلية العينين صحراوية اللون
في يديها سراب وفي
قدميها حذاء إبلاد
وقالت : أنا من
القمح والشمس
والبحر والشتاء
والملح . أتيت أصطاف .
قال : أين رأيتك من قبل ؟

قالت : أنا زوجتك التي فررت عنها عندما كنت ملكا أو عندما كنت ملكة ، وهذه هي الجزيرة التي أهديتنيها عندما كنت تحبني .

قال : نعم . أذكر اني كنت سعيدا بحبك . وأنت ترين ، فقد كبرت وكبر ظلي الذي يغطي هذه الجزيرة كلها . لكن ... يخيل لي أني اعرفك .

قالت : أنا صديقتك قبل أن تتملك رقاب الناس . وقد ضحيت من أجلي بأصدقائك الذين كنت دفنتهم في هذه الجزيرة .

قال : نعم ، فقد كنت شقيا بحبك .

فاذا هي طفلة تريد أن تنام على ركبتيه . فأخذ أذنها اليمنى وأخذ يمغطها في رقة ملاعبة وفذلكة . ثم وضع رأسه على ركبتيها رغبة في النوم وإلحاحا في أن تكون نهاية رحلته .

قال : كنت ملكا .

قالت : وكـــان لك قصر كبير كبير يحتويك فلا تحتويه . ذو ثريات ذهبية قد أ تى بها من بر العبيد أو بلاد السند .

قال : وكنت لا أغادره ، وأرى العالم من نوافذه .

وكنت تشدينني إليه وإليك ، وتملئين رأسي حكايات وأملأ رأسك أكاذيب .

قالت : لقد كنت كذابا ماهرا ...

قال : كنت أخبرك بأني آمر الشمس بأن تغيب ، فتغيب ، وآمرها بأن تبزغ من الغرب ، فتبزغ . وآمر القمر بالبزوغ قيلولة فيبرز نشطا كبيرا وكنت آمر الكرمة بأن تثمر في الشتاء فتتدلى العناقيد على وجنتيك وفي فمي أمتصها وأمتص احمرار خديك وحرارة جسمك فلا أشبع من الحياة والدنيا . وكنت أخبرك بأن لي جزيرة في الثلث الخالي من الدنيا يحيط بها البحر والظلام وفيها كنوز سليمان وأنهار ورمل وطيور وقبور وعبيد . وكنت قد أهديتها لك .

قالت : نعم .

فقد كنت ساحرا وكنت شاعرا كبيرا .

قال : لكن الشعر والسحر لن يفيدا عندما انتابت ساحلنا المجاعة واليأس . وأنت تعلمين ...

قالت : ان جنود الملك والملكـــة والرقاب التي يمتلكانها قد جمعت القمح عدة سنوات ولم تذق منه إلا قليلا . وقد ملأنا القصر لايام المجاعة . وكان طول المساحة التي شغلها القمح من القصر سبعين ألف سنة مما نعد .

قال : وذات ليلة ذات قرن أشيب عتيق تسربت إلى القصر نملة ، وفي ملكي .

قالت : وكانت تلك النملة يدك .

قال : نعم . فقد كانت طويلة طويلة .

قالت : ثم تسربت في الليلة الموالية تلك النملة فأخذت حبة قمح أخرى

قال : ثم تسربت في الليلة الموالية فأخذت قمحة أخرى .

قالت : ثم تسربت في الليلة الموالية فأخذت قمحة أخرى .

قال : ثم تسربت في الليلة الموالية فأخذت قمحة أخرى .

قالت : ثم ...

قال : ثم كان اليوم الذي أقدم فيه أحد أبناء الساحل والشط والبحر والسبخة إلى باب القصر وصرخ : « سيدي أسمح لي بأن أنتحر » . ثم هوى كدودة الحشفة ثم أقبل آخر . ثم أقبل آخر ثم أقبل آخرون . وكثرت مطالب الانتحار واللعب مع الحياة والموت وفقدان المصير . وامتلأت الشوارع والانهج والازقة والممرات والزنق بالموتى . وكنت أرثي لحالهم حقا . وكنت كالخشبة على الماء استواء

قالت : ولم يبق لك في ملكوتك إلا الارض بأحجارها وترابها ...

وكانت أيام بعدئذ كثيرة . لكن الاحجار أيضا لم تحتمل رداءة الطقس وعفونة الارض والدفن الذي أجبرت عليه منذ قرون قرناء ، وهي الرعية الصالحة الوحيدة المتبقية في هذه الارض السانجة البريئة وقد أرادت ان تشرب البحر . فانبثقت من أعماق الارض منتظمة صفا طويلا معلنة احتجاجها على حالة الايقاف التي ما انفكت تعانيها وقد اتحدت فاختلطت الاحجار الكريمة والاحجار الرعاع والسفلة والدهماء وهن يصرخن ويولولن ويزغردن ويملأن الفضاء بصاقا . وكن يملأن الجو أشعة زرقاء وخضراء وأشعة « ايكس » . وقد حصل من كل ذلك لهيب . وكانت أشباح المـوتى والاوهام من المنتحرين واقفة مبهورة على الارصفة . ولم يخف ما في أعينها من بريق حاد فيه طمع وفيه خوف حين تمر حجرة كريمة ، فترف الايدي وتحاول الاقتناص والسعي في الظلام ، ثم سرعان ما تتراجع الايدي منخذلة إذ يصيبها اللهب ، أو تصيب حجيرة زغباء هزيلة مذبالة كانت في أحد المرحاضات أو المزابل القروية . حتى وصل المتظاهرات الى القصر المقعي على الساحل وأحطن به . آنئذ ارتج القصر وأعلن أنه سينتحر تضامنا مع المتظاهرات ، وقال : « سيدي ، أسمح لي بأن أنتحر » . ثم هوى متبعثرا على نفسه .

وانتصب ما كان من الارض فيه على الارض ركاما . وأنذرت الجبال والبراكين بأنها ستنفجر إذا لم تلب رغبة بني الطين والحجر . وكان في ذلك ضياع ملكوت وعمر وضياع الدنيا . وكـــان ذلك بداية الترحال والركض خلف الظل الآفل والشمس الغاربة والنجوم التي لم تبزغ . كانت بداية البحث عن الثلث الخالي من

الدنيا .

قال : قد عرفت من الدنيا ثلثها العامر في شبابي . وقضيت كهولتي في ثلثها الثاني ، في البحار . وأنا الآن في ثلثها الثالث . في نهايتها في الثلث الخالي من الدنيا .

قالت : لا أنسى أنك تركتني وحيدة للريح والمطر والاحجار الثائرة والبحر الهازىء والقصر المتراكم .

قال : كان أحد المنجمين قد أخبرني بأنني سأموت بعد عمر طويل .

قالت : ذلك المسكين . قد مات موتة شقية .

قال : كان تنبأ بموته قبل أن يقع بثلاثة أيام .

فهرب الى الخلاء واندس في جوف حمار كان هنالك ميتا منسيا وقال سأكون جزءا من جسم هذا الحمار ومن وجوده فلا يتفطن الموت إلي . لكنه في اليوم الثالث نام . نام ولم يقم . فقد مات . (يبكي) .

قالت : وقد قال لك قبل اختلائه بالخلاء انك خالد مثله أو هالك مثله . وقد هلك .

قال : قال إنني سأموت بعد عمر طويل ، مثله .

فالهرب من الموت لا يكون إلا الى الموت في جوف حمار ميت أو في جوف حوت يقع في جوف حوت . وقد هرب صاحب الملك والملكوت من الموت إلى جزيرة جبلية ذات رمال وأطيار وأنهار وأشجار ونجوم حمراء العيون . هي منبت الحياة وواهبة الخلود للدنيا . لكن هذه الجزيرة في هذا البحر المظلم في الثلث الخالي من الدنيا تقع في جوف حوت كبير كبير كان قد التهم البحر قبل أن يصبح بحرا وكان قد مات منذ قرون قرناء . وانبرق في جوفه طقس غريب السمات ينبىء بأن الجبل قائم على كذبة كبيرة وعلى بركان وزلزال ورعد وأحجار لينة طيعة لاولي الامر والنهي والبعث والنشور وقيام الساعة وانشقاق القمر ، حتى تكون منها حمار ذو تجاعيد وأذنين طويلتين وذيل قصير . وقد مات الحمار منذ مات الحوت وحلت به الدنيا تخلصا من الدنيا . فهذه الجزيرة جوف حمار ميت قد أكل النمل والناموس والذباب وكـلاب البحر وأسماك الجو والصراصير والطيور الكواسر بقية عظامه . لكنه ما زال نتن العظام عفن الجلد والرائحة كأنه مات الآن ! وقد أصابته رعشة الحياة والموت عندما ولدته حمارة أنثى ذات أثداء وكانت تتمنى أن تلد حمارا وحشيا فكان ابنها وحشي العينين والظهر واللسان . وكان حرونا وكان أصهب اللون وكـــان أخضر البطن ذا حوافر وأنياب من حديد ... وكـــان له قرنان طويلان يرتعشان عندما ينهق ، وكان طويل اللسان ذا أسنان بيضاء . وقد مات وأكله الحوت والدود والنمل قبل أن تذوب عظامه في التراب ترابا . وكان كثيرا ما يلتجىء إليه الهاربون من الموت والهاربون من الحياة لأن جوفه المتسع جوف حوت كبير فيه أشجار وأنهار وأطيار ونبات كثيرة وكنوز سليمان . وكان الهاربون يعتقدون أن الجنة فيه ، حتى يصيروا من ترابه وحشائشه وأنهاره وأطياره وأشجاره وتبتسم لهم الشمس التي يحلمون بها ويبكي القمر والنجوم حتى تغيب الشمس من مخيلاتهم ويجدوا أنفسهم في الثلث الخالي من الدنيا ، في أسفل قرن الثور الذي يحمل الارض ، فيحسون بالبرد ولفح الهجير والقيظ والسموم ورعشة الموت .

وفي كل ليلة ينبثق صدى في الجزيرة لين الوقع سميك شحن إذ تنبعث نقرات طبل . فهي حوافر الحمار تصطك وأسنان الحوت ترتعش من شدة القيظ . وتنطلق نغمات مزمار تصور الفزع والموت وفرحة الحياة والرفاهية والازدهار . هو نهيق الحمار يريد حشيشا ، والحوت يزعق إذ ما انفك الموت يزوره كل ليلة والليل هناك ممتد ممتد لا ينتهي . ويشتد في الجزيرة الركض والهرب والاقبال والصدود والاجفال والسحب الغامقة بياضا . ويرى حمار يأكل الحشيش بذيله ويجري وراء ظله يحمل على ظهره الدنيا اليابسة وفي جوفه الدنيا الغبار الكالحة الحالكـة . فالدنيا حمار ذو أذنين طويلتين والطقس جميل ذو عينين ضيقتين وصدر متسع ذي نهود جافة وصدى في أغوار الجزيرة حاد ...

وقد اعتقد المقبل الجديد على الجزيرة أنه ينام على صدر ذي نهود وعمق وشعر يتطاول على الليل والظلمة وثلث الدنيا الخالي ، وانه أول زائر لهذا العالم وانه خالد لن يذكره الموت فيه ما دام قد فر من الحياة الدنيا .

قالت : ترى إذن أني قد لحقت بك .

قال : إذن نرث الارض ومن عليها .

قالت : جئت أذكرك بما أوصاك به المنجم .

قال : المنجم قد مات .

قالت : ونحن أيضا ميتون .

وطافت بعينيه صور المنتحرين على باب قصره المنتحر . وصور النمل الآكل الحب من القصر المتآكل . وصورة القصر . وغمره الساحل الناشف ورمح في وجهه الحمار الميت . واستلقى على أعصابه الجبل اللين والبحر الصلب والتراب المتعفن وفراره من العالم والدنيا . فأغمض عينيه وقد اشتد عليهما نعاس مثخن صراخا وتعبا بعد البحث عن عينيه الهاربتين في صلب الظلام . فتهدهد على سرير من الهواء الجاف والطقس الجاف والجزيرة الشهباء والخلاء الأملس والسحب المتكومة المتكورة والحشيش اليابس في حقوله الجرداء وساحله المنتحر وثلث الدنيا الخالي . ثم نام نوما . نام .

ابراهيم بن مراد

كاتب قصصي

قصة الأدب العربي في تونس

بحث : محمد العروسي المطوي

يمكن ان نقسم الادب العربي في تونس الى نوعين اثنين : النوع الاول ما ألفه أدباء تونسيون . والنوع الثاني ما ألفه غير التونسيين . (*)

من ناحية المبدإ فان النوع الاول من المصادر يعتبر هو الاساس والمرجع الاصلي ، والاقرب الى الدقة والضبط ، والاجدر بالعناية والدرس . ولكننا — سنرى فيما بعد — ان هذه الاهمية ستزول عندما نحاول وضع ايدينا على تلك المصادر كلمس أعيانها ونواتها . وقد رأينا — سابقا — أن العصر الوحيد الذي يمكن أن نظفر فيه باكبر مجموعة أصيلة للادب والادباء التونسيين انما هو عصر القرون المتأخرة التي لا يتجاوز امتدادها بداية الدولة الحسينية ، فان أغلب مصادر تلك الحقبة التاريخية ما تزال قائمة الذات ، يمكن الرجوع اليها في مصادرها الاصلية سواء بالمكتبات الخاصة أو العامة

أزمة مصادر

ان العصور التي سبقت عهد الدولة الحسينية هي التي تتمثل فيها المشاكل التي تواجه دارس الادب في تونس . فمن المجزوم به أن مئات الشعراء والكتاب والادباء وجدوا وترعرعوا في « افريقية » منذ العهد الاغلبي الى نهاية العهد الحفصي . ولكن عندما نعود الى البحث عن مجموع ما أنتجه أولائك الشعراء والكتاب وعن الدواوين التي جمعوها والرسائل التي كتبوها ، فاننا نكاد نلمس الفراغ ، ولا نجد ما يشفي الغليل ، أو ينير السبيل ، اللهم الا نتفا مبعثرة هنا وهناك ، أو قصائد ومختارات تذكر عرضا أو على سبيل الاستطراد حسب عادة القدامى في كتب المجاميع والاختيارات . وتلك نتف لا يمكن أن نستمد منها الصورة المكتملة الواضحة للشاعر أو الكاتب أو الاديب . وكثيرا ما تخضع تلك الاختيارات الى مزاج وأسلوب المؤلف في اختيار ما يتماشى مع ذوقه ، ويتلاءم مع مزاجه ويبقى الدارس الناقد محتارا في حكمه ، مضطربا في تقويمه وتقديره .

ان كتب التاريخ والادب تذكر لنا الكثير من الشعراء والكتاب ، وتسجل لنا بعض المقطوعات والفصول النثرية . ولكن العثور على ديوان كامل لاي شاعر منهم ، أو الحصول على مجموع تام مما ألفوه فانه من النادر الذي لا نكاد نظفر به .

ولا يمكن القول بأن كتب السير والتاريخ ، ومجاميع الطبقات والتراجم عندما تعنى باولائك الشعراء والكتاب ، انما اعتنت بهم بسبب البيت العارض ، أو القصيد الشارد ، وانما اعتنت بهم وسجلت اخبارهم ، وذكرت اسماءهم نظرا لشهرتهم وسيرورة ذكرهم .

وعلى هذا الاساس من القول لا يمكن أن نتصور أن قرائح الشعراء لم تتفتق الا على تلك النتف القصيرة ، أو المقطوعات القليلة . بل اننا نتصور ان الادب التونسي لا تكتمل شخصيته — عند الدراسة — وتتضح معالمها ، وتتميز خصائصها الا اذا ساعدنا الحظ على العثور على دواوين شعراء العصر الاغلبي من أمثال ابن الصواف ، ومهرية الاغلبية ، وبكر بن حماد ، وغيرهم . وكذلك دواوين شعراء عصر العبيديين من أمثال أبي القاسم الفزاري ، وابن الرايش ، وعلي بن الايادي .

اما العصر الصنهاجي فهو أغزر مادة ، وأطول نفسا ، نذكر البعض من فحول شعرائه أمثال ابن عبدون السوسي ، وعبد الكريم النهشلي ، وابراهيم الرقيق ، وابن أبي الرجال ، وأبي طاهر التجيبي ، وابن فرحان القابسي . هذا زيادة على الاعلام الاكثر شهرة من أمثال ابن رشيق ، وابن شرف ، والحصريين أبي اسحاق وأبي الحسن ، وتميم الصنهاجي .

ولعل القارىء يقدر القيمة العظيمة التي يمكن أن

(*) انظر العدد الاول من مجلة (الحياة الثقافية)

يكسبها الادب التونسي من وفرة انتاج أولائك الشعراء قياسا على ما توفق اليه السيدان محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى بنشرهما لمجموعة هامة من آثار أبي الحسن الحصري (1) الذي لا يمكن أن ندعي أنه كان اكثر انتاجا من الكثير ممن عددنا اسماءهم قبل قليل .

وهكذا الامر بالنسبة للعصر الحفصي الذي لا يقل الازدهار الادبي فيه عن العصر الصنهاجي ، لو انه لا يصل الى مستواه قيمة أدبية ومعايير فنية ، فقد ظهر – في هذا العصر – كثير من الادباء والشعراء والكتاب والمسترسلين من أمثال ابن عريبة،وابن أبي الحسين ، وعنان بن جابر ، وابن السماط المهدوي وآل التجاني ، واضرابهم كثير .

ومع ذلك فان هذين العصرين الزاخرين بالانتاج تنقصهما المصادر الجامعة ، والوثائق المستوعبة التي تمكن النقاد والدارسين من الاستقصاء لاشكال الدراسة في توضيح الشخصية واستجماع الموضوع .

ومن المفارقات العجيبة ان المصادر غير التونسية كانت اكثر ذكرا وحديثا عن الشعراء والادباء التونسيين . وقد حفظت لنا تلك المصادر (غير التونسية) ذكر الكثير من التآليف الهامة التي فقدت أعيانها أو اندثرت ذواتها ، فكتاب « **انموذج الزمان في شعراء القيروان** » لابن رشيق الذي يعتبر أهم مصدر للادب التونسي في العصر الصنهاجي مفقود لحد الان (2) ولو لم تنقل المصادر المشرقية والمغربية نصوصا عدة من هذا الكتاب لكان أمره أشد غموضا وأكثر ابهاما .

وعندما نعود الى « **ارشاد الاريب** » لياقوت الحموي ، أو الى « **الوافي بالوفيات** » للصفدي ، أو الى « **انباء الرواة** » للقفطي (3)،أو « **عيون التواريخ** » لابن شاكر ، فاننا نجد مجموعة صالحة من الانقال عن كتاب الانموذج الذي كان موجودا في المشرق العربي،ونقل منه مباشرة مثلما فعل ذلك ياقوت الحموي في كتابه « **ارشاد الاريب** » عندما تعرض لترجمة الحسن بن رشيق أو في كتابه « **معجم البلدان** » في عدة أماكن (4)

اما اوفى المصادر المشرقية نقلا عن « **انموذج الزمان** » **فهو كتاب** « **مسالك الابصار** » للعمري ، فقد ذكر في المجلد الثاني من الجزء الحادي عشر عشرات وعشرات من الادباء والشعراء نقل تراجمهم وأخبارهم عن ذلك السفر القيم . وكذلك الامر بالنسبة للوافي بالوفيات للصفدي .

وهنالك كتاب آخر غير تونسي يعتبر من المصادر الهامة في الادب التونسي ، خاصة في العصر الصنهاجي هو كتاب « **خريدة القصر وجريدة العصر** » للعماد الكاتب الاصبهاني.فقد قام هذا المؤلف الواسع الاطلاع بتأليف موسوعة كبرى تكاد تحصر شعراء العالم الاسلامي الذين كانوا موجودين في عصره او قبل عصره بقليل . وقد خصص الجزئين الحادي عشر والثاني عشر لشعراء المغرب الاسلامي في صقلية وتونس والجزائر والمغرب الاقصى والاندلس (5)،وقد اثبت في كتابه انقالا هامة للبعض من شعراء المغرب الاسلامي عن كتب تعتبر مفقودة لحد الان مثل كتاب « **الحديقة** » لامية بن أبي الصلت وكتاب « **المختار من النظم والنثر** » لابن بشرون المهدوي . وكتاب « **الجنان** » لابن الزبير . وبذلك يمكن اعتبار كتاب « **خريدة القصر** » من المصادر الادبية للشعراء التونسيين خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين . ومما يدل على اهمية هذا الكتاب ان ابن عبد الله محمد التيجاني نقل عنه عدة مرات ، واعتمده مصدرا من مصادره (6) .

أما المصادر غير التونسية التي ألفها المغاربة فمن أشهرها كتاب « **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** » لابن بسام ، و « **الحلة السيراء** » لابن الابار . فالمصدر الاول تعرض فيه مؤلفه الى جماعة من الادباء التونسيين الذين وفدوا على الاندلس خاصة بعد الزحف الهلالي . وكان في طليعة اولائك الوافدين ابن شرف وأبو الحسن الحصري . أما ابن الابار ، فان أهم تآليفه فيما نحن بصدده هو كتابه المشهور المعروف باسم « الحلة السيراء » (7) الذي يعتبر من المصادر الجامعة لاشتات عن اخبار ملوك وولاة المغرب الاسلامي ، لان هذا الكتاب خصصه صاحبه لترجمة « الخلفاء » والملوك والامراء والولاة في تلك الاقطار ، ابتداء من القرن الاول الهجري الى القرن السابع . وهو بهذه الطريقة لا يترجم الا لمن تولى الحكم في تلك الاقطار مثبتا لكل واحد منهم شيئا من اخباره وأشعاره . من ذلك ما ذكره لتميم بن المعز الصنهاجي (8) وابنه يحيى (9) وتميم بن المعز الفاطمي (10) .

أما أبو محمد عبد الله التيجاني – مثلا – فيذكر لنا في رحلته انّ له كتابا بعنوان « **الدر النظيم** » (11) جمع فيه لطائفة كبيرة من الشعراء والكتاب . ويبدو ان الكتاب المذكور فيه من الاطالة والتفصيل في التراجم واختيار الاشعار أكثر من الاسلوب الذي توخاه في الرحلة عندما كان يتعرض بالذكر لبعض الشعراء والكتاب . فعندما تعرض لذكر ولاية أبي علي عمر بن عيسى الحفصي على المهدية قال التيجاني عنه : « **انه شاعر مجيد وقفت على ديوان شعره في مجلدين** » ثم قال : « **وقد ذكرناه وأخاه (عبد الرحمان بن عيسى) في كتاب « الدر النظيم » باتم من هذا** » (12) .

وبما ان التيجاني كان يتحدث في هذا النص عن عهد ابن زكرياء الحفصي – وكان اسبق منه بنحو القرن – فانه يمكن لنا أن نستنتج بان كتاب « **الدر النظيم** »

جمع كثيرا من أدباء الدولة الحفصية وشعرائها من بدء تأسيسها الى عهد أبي محمد التيجاني (13) . ولكن أين يوجد كتاب « **الدر النظيم** » ؟ **انه مفقود مثل كتب أخرى كثيرة ، كما ان النقل عنه لا نكاد نظفر به ، لو لم يذكره التيجاني لانعدم ذكره كما انعدمت ذاته .**

ولم يكتف ابن رشيق بما ألفه من شعراء عصره وأدبائه في كتابه « انموذج الزمان » بل نجده يخص عاصمة المهدية بتأليف مستقل سماه « الروضة الموشية في شعراء المهدية » يقول عنه أبو محمد التيجاني : **ذكر فيها (اي الروضة الموشية) من يطول تعداده** (14) كما يقول : **وفضلك المهدية وشعراؤها كثيرون لو أخذنا في استقصائهم لطال الكتاب بهم .** (15) وواضح ان عبارة « **يطول تعداده** » تدل على كثرة من ترجم لهم ابن رشيق في كتابه المذكور الخاص بشعراء المهدية . ولكن حظ هذا الكتاب لم يكن احسن من حظ « **الدر النظيم** » ولم يكتب له حتى ما كتب لكتاب « **انموذج الزمان** » فلم ينقل عنه ولم يقتبس مما يصعب على الناقد ان يقول عنه شيئا أو أن يبدي رأيا موسعا فيه . وقد اكتفى الوزير السراج في كتابه « **الحلل السندسية في الاخبار التونسية** » بنقل العبارة المقتضبة التي ذكرها التيجاني دون أن يضيف اليها شيئا جديدا (16) .

واذا كان أبو اسحاق ابراهيم المشهور باسم « **الكاتب الرقيق** » (17) قد اشتهر بتأليفه في التاريخ اكثر من اشتهاره بالادب ، فانه من الناحية الادبية يعتبر من الكتاب والمؤلفين فيها . وكان منصبه كرئيس لديوان الانشاء والرسائل لمدة ربع قرن يؤهله ويغريه على التأليف في هذا الباب ، ويشير الى تضلعه في الادب وقدرته على الانشاء . فقد ذكرت له المصادر شيئا من ذلك منها كتاب بعنوان « **معاقرة الشراب** » وآخر بعنوان « **قطب السرور** » (18)

واذا نحن اضفنا الى الكتب الادبية الصرف ، الكتب التاريخية المفقودة فاننا نقدر قيمة ذلك الضياع ، وفداحة تلك الخسارة . وهي كتب كثيرة حتى بالنسبة لمن لم يشتهروا بالكتابة في التاريخ من أمثال من سماه التيجاني بمعلم القيان (19) وتواريخ ابن شرف ، وابن الجزار ، والرقيق ، وابن تحيل ، وغيرهم كثير .

ومصدر آخر من المصادر الهامة في هذه الدراسة هو كتاب « **المغرب في حلي المغرب** » لابن سعيد (20) وهو كتاب ألفه اكمالا وتتميما لجهود مشتركة سابقة من عائلة بني سعيد الاندلسية . وقد شمل الجزء الخاص بالمغرب الاسلامي مجموعة كبيرة من الشعراء والادباء ، وشيئا من اخبارهم واحوالهم . ولكن الكتاب لم ينشر كله لحد الآن . فقد نشر منه الدكتور شوقي ضيف في السنوات الاخيرة (21) القسم الخاص بالاندلس .

وبما ان القسم الخاص بالاندلس يسير على نفس المنهج العام الذي ألف به ابن سعيد كل الكتاب ، فاننا نستطيع القول بأن القسم الخاص بشعراء المغرب كان يتبع نفس المنهج (22) وهو ان يتعرض بالذكر لكل بلد أو اقليم بذكر عاصمته وخصائصه الجغرافية ثم يعرج على موجز تاريخي لاهم الاحداث فيه . وبعد ذلك يأخذ في ذكر طبقات الرجال بعد أن جعلهم خمس طبقات : طبقة الامراء ، طبقة الرؤساء ، طبقة العلماء ، طبقة الشعراء . ثم الطبقة الخامسة وهي طبقة اللفيف . وامتازت الطبقات الاربع الاولى بمن كان له مساهمة في القريض وحظ من الشعر . أما طبقة اللفيف فيعني بها أولائك الذين ليس لهم نظم . وانما نكرهم لانه لا يجب اغفالهم . وفوق ذلك ضمن الكتاب ما أمكن له ذكره من الملح والنوادر والمضحكات اعتبرها ابن سعيد مثل الاحماض على المائدة (23) . وفي هذا المنهج من التأليف ما يساعد على فهم الكثير من خصائص العصر وأمزجة شعرائه وادبائه . ويضاف الى ذلك النتف والمقطوعات الصغيرة التي ذكرت في « **رايات المبرزين** » و « **عنوان المرقصات المطربات** » وكذلك « **بدائع البدائه** » و « **غرائب التنبيهات** » لابن ظافر الازدي ، و « **نثار الازهار** » لابن منظور المنسوب في الاصل للتيفاشي . لكن مثل هذا النوع من المؤلفات قد لا نطمع فيه بالكثير ، ولا نتطلب منه المطولات والقصائد ، وانما هو البيت او البيتان يذكر على سبيل المقابلة والمماثلة ، أو هي ملح ونوادر أتى بها الموضوع أو جر اليها سياق الحديث في موضوع ما . ولكنها على كل حال تفيد الباحث خصوصا بالنسبة للوضع الذي عليه الادب التونسي . وهو وضع لا يستغنى فيه عن جمع ذلك الشتات المتفرق مهما كانت قيمته وكميته . واذا كنا لا نأمل ان تكون لنا الدواوين الكاملة لشعرائنا المغمورين فلا أقل من أن نعمل على تجميع واحياء اكثر ما يمكن العثور عليه لاولائك الادباء والشعراء . وقد مر الاستشهاد بما صنعه السيدان محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى بخصوص آثار ابي الحسن الحصري . كما يمكن اعتبار تجربة تجميع شعر ابن رشيق من طرف عبد العزيز الميمني (24) ثم من بعده الدكتور ياغي (25) من احسن الادلة على ذلك (25) وهو عمل قد يبدو لدى البعض سهلا ميسورا ، وقد يبدو — لدى البعض الآخر — ضئيلا محقورا . ولكنه في واقع الادب العربي في تونس يعتبر عملا كبيرا وجهدا مشكورا . فاذا وقع النسج على ذلك المنوال فانه — بلا شك — سيوفر لنا نصيبا لا بأس به من هذا الادب الضائع ، وهذه الاشتات المتناثرة ولو أن حظوظ الادباء والشعراء فيه ستكون متفاوتة كثيرا نظرا لمختلف



الظروف والملابسات التي ذكرناها . ومهما يكن فان تلك الاشتات ـ اذا كتب لها ان تجمع ستكون المادة الخام لدراسة ادبية ونقدية تكون أقرب الى الوضوح والمنهجية ، وتحقيق ما نصبو اليه من غاية لا تخص الادب التونسي فقط وانما تخص الادب العربي كله ■

محمد العروسي المطوي

---

(1) نشرتها مكتبة المنار بعنوان « الحسن الحصري » سنة 1963

(2) تنظر دراستنا عن هذا الكتاب المنشورة بمجلة الفكر (ماي 1975) وقد قدمت في الاصل بحثا في مهرجان ابن رشيق المنعقد بمدينة القيروان في شهر افريل 1975

(3) رغم ما يبدو في « أنباء الرواة » و « المحمدون من الشعراء » للقفطي من عدم ذكر لكتاب الانموذج فان فيهما الكثير من النصوص التي نقلها القفطي عن الكتاب المذكور ولو بصفة غير مباشرة . ورغم شهرة كتاب الانموذج ، فاننا نجد القفطي لا يذكره من بين مؤلفات ابن رشيق عندما ترجم له في انباء الرواة (ج 1 : 304،298) وانظر رأي ش. بو يحيى في حوليات الجامعة التونسية (سنة 1971 ص 273)

(4) انظر مثلا مادة : باجة ـ جرارة ـ رصفة ـ صدف ـ الهواريون ... الخ

(5) حقق هذا القسم : محمد المرزوقي ـ محمد العروسي المطوي ـ الجيلاني بن الحاج يحيى (نشر الدار التونسية للنشر 1966/1972)

(6) انظر مثلا صفحات 43/101/102/106/367

(7) حققه ونشره د. حسين مؤنس سنة 1963

(8) الحلة السيراء (1 : 21/26)

(9) المصدر نفسه (2 : 189/191)

(10) المصدر نفسه (1 : 291/307)

(11) رحلة التيجاني (366)

(12) المصدر نفسه

(13) كان التيجاني حيا سنة 717 هـ

(14) رحلة التيجاني (366)

(15) الحلل السندسية تحقيق م .ح . الهيلة (1 : 495)

(16) الحلل السندسية تحقيق م .ح . الهيلة (1 : 495)

(17) انظر جدلا حول هذا اللقب بين م . الطالبي و ش . بويحيى في الحوليات التونسية

(18) نشر هذا الكتاب بتحقيق ابن الجندي (دمشق 1389/1969) ويغلب على الظن انه مختصر للكتاب . كما اعلنت عن تحقيق أخر للكتاب لعبد الحفيظ منصور بعنوان « الاختيار من قطب السرور » على انه يصدر خلال 1975

(19) الرحلة ص (321) وعلق على ذلك المرحوم ح .ح . عبد الوهاب بقوله : لعله محرز بن خلف المعلم المتوفى سنة 413

(20) مراحل تأليف هذا الكتاب في المدخل الذي كتبه د . شوقي ضيف للكتاب (ج 1 : 1 ـ 9)

(21) نشرته دار المعارف (1953) وأعيد نشره (1964)

(22) انظر منهج تأليف النص (1 : 9 ـ 17)

(23) (1 : 9)

(24) النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف . طبع القاهرة 1343 هـ

(25) ديوان ابن رشيق القيرواني . طبع بيروت . دار الثقافة

(26) انظر ما استدركه الشاذلي بويحيى (حوليات الجامعة التونسية سنة 1969) وهلال ناجي (هوامش ثنائية العاني/بغداد (82 ـ 87)

التصور التاريخي للأدب عند الطلبة "طلبة وهران نموذجا"

بحث : د. الطاهر لبيب

يلخص هذا العرض اهم النتائج التي أفضى اليها تحقيق سوسيو أدبي تم اجراؤه على عينة من طلبة كلية الآداب التابعة لجامعة وهران بالجزائر (*) والافتراض الذي انطلق منه البحث هو ان سبر الجانب التلقائي من اجوبة الطلبة يسمح بجمع جملة من الاعتبارات المتكررة الى حد التقولب والتي قد يحدو تصنيفها تصورا ضمنيا للادب يرتبط بنوع معين من الذاكرة الجماعية ، هذه الذاكرة ـ وهي ذاكرة طلابية ـ اكتسبت مضمونها في ظروف تاريخية وتعليمية بيداغوجية معينة .

واذا كان الاعتماد على الاجوبة التلقائية نسبيا قد أفضى الى رؤية مقولبة Vision stéréotypée فان نوعا من الاسئلة يتطلب حدا أدنى من التفكير واعمال الراي قد كشف عن تناقص بين هذه الرؤية وبين التشوق الواضح الى تجاوزها من طرف اصحابها اي المعيدين لانتاجها انفسهم .

من جملة ما طلب من الطلبة ، ذكر مجموعة من الكتاب والشعراء من الادب العربي والادب الاجنبي قديما وحديثا ومن الادب الجزائري ذي اللسان العربي وذي اللسان الفرنسي . وتوزيع القائمات المتحصل عليها كميا وزمنيا وجغرافيا يبرز بعض مركبات التصور التاريخي للادب عند هؤلاء الطلبة . هذا التصور المبني ـ استنتاجا ـ متأصل ، لكنه (او لذلك) وهو غير ارادي اساسا ، هو نتيجة لقيم وتقييمات تعليمية تقليدية مفروضة ، وهو بالتالي تعبير عن مفارقة ثقافية مبرمجة ...

(*) أجري التحقيق عن طريق الاستفتاء على عينة شملت 100 طالب وذلك في عام 1973 حيث كان صاحب التحقيق ملتحقا بقسم علم الاجتماع من كلية الآداب بوهران ، وهو يتقدم بالشكر الى طلبته الذين أعانوه على هذا التحقيق .

1 ـ الادب القديم والأدب الحديث

مبدئيا يمكن ابراز الفرق بين التعريف الاصطلاحي والرؤية الضمنية للادب في مستوى الاستقلال اللغوي . لقد طلب من الطلبة ان يذكروا اسماء الكتاب الاجانب (غير العرب) في مجموعتين مختلفين : الاولى مجموعة الكلاسيكيين Classiques والثانية مجموعة المحدثين والمعاصرين Modernes et contemporains النتيجة : ظهور خلط متكرر بين كتاب المجموعتين لا يتماشى واي اصطلاح تاريخي ادبي . من ذلك مثلا ذكر ايلوار خمس مرات وكل من اراغون ومالرو اربع مرات وسارتر مرتين وسولجنتسين ... في مجموعة الكلاسيكيين ، اي وجودهم الى جانب موليير وراسين

الكتاب الاجانب : خلط غير مجاني

لكن هذا الخلط ليس عشوائيا كما يبدو ظاهرا ، انه يتم حسب معطيين اثنين على الاقل يلفتان الانتباه ، ويدعوان الى معاودة التجربة للتاكد منهما :

أ) تحول الكتاب بالنسبة للتقسيم الاصطلاحي ذو اتجاه واحد . لقد تجلت في الاجوبة نزعة قوية الى « كلسكة » المعاصرين دون ان تبرز نزعة معاكسة . فمن بين 109 كتاب ذكرهم الطلبة وينتسبون الى القرن العشرين اامواتا كانوا أم احياء ، ذكر 19 كاتبا في مجموعات كلاسيكية . في الاتجاه المعاكس ومع استثناء كاتبين من نهاية القرن التاسع عشر لم يذكر كاتب كلاسيكي واحد في مجموعة المحدثين والمعاصرين . ونشير مسبقا الى ان الكتاب العرب

يسلكون ايضا ولو بقلة هذا الاتجاه الواحد .

ب) توازي هذا التحول ظاهرة تداع بين الكتاب المحولين . هذه الظاهرة عجيبة الى حد ان ذكر المعاصر المتحول الى الكلاسيكيين لا يتكرر مع واحد منهم رغم وجوده في مجموعتهم ، بالقدر الذي يتكرر مع معاصر آخر وقع تحويله هو ايضا . تتبع هذا ظاهرتان فرعيتان : الاولى ان **المعاصر لا يتحول منفردا بل مصحوبا بابن عصره** (وسنرى انه علاوة على ذلك « يختار » من يصاحبه) . والثانية ان مجرد **وجود المعاصر في مجموعة كلاسيكية يفككها** فلا تحافظ عناصرها على اكثر الروابط استقرارا بينها .

مثل نكر **ايلوار** (Eluard) المتوفي سنة 1952 ضمن الكلاسيكيين 5 مرات يوضح ما ذهبنا اليه : اذا اعتبرنا الكتاب المذكورين معه اكثر من مرة واحدة في المجموعة الكلاسيكية تحصلنا على التوزيع التالي :

ايلوار — اراغون 4 مرات
ايلوار — سارتر مرتان

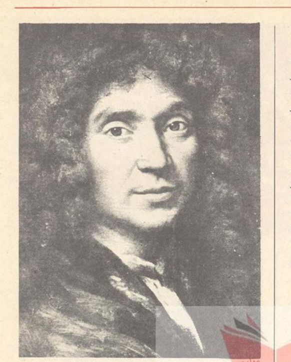
ايلوار — رامبو 3 مرات
ايلوار — فارلان مرتان
ايلوار — بودلير مرتان
ايلوار — مالارماي مرتان

ايلوار — فولتير مرتان
ايلوار — راسين مرتان
ايلوار — هيغو مرتان

يلاحظ انه اذا كان ايلوار يرتبط اقصى ما يرتبط 4 مرات على 5 مع معاصر آخر فان اراغون وسارتر المذكورين على التوالي 4 مرات ومرتين مع الكلاسيكيين هما اذن مذكوران 4 مرات على 4 و 2 على 2 مع ايلوار ، وهي نسبة لا تربطهما باي كاتب كلاسيكي رغم وجودهما في مجموعة كلاسيكية .

ان اكثر المجموعات الكلاسيكية تكرارا هي مجموعة (موليير — راسين — كورناي — روسو) كل واحد منهم يتكرر نكره مع الثلاثة الآخرين اكثر مما يتكرر مع اي كاتب آخر . مثلا على 27 مرة ذكر فيها موليير نجده 22 مرة مع راسين و 15 مرة مع كورناي و 14 مرة مع روسو ثم 7 مرات مع ديدرو وبلزاك و 5 مرات مع لافونتان و 3 مرات مع فرلان ، الا ان مثل ايلوار يبين ان وجود كاتب معاصر يفكك هذا الارتباط . وفعلا فان المجموعة (موليير — راسين — كورناي — روسو) تصبح ايلوار (راسين — فولتير — هيغو) .

من ناحية اخرى ، لا يكتفي ايلوار بان يذكر مع معاصر آخر متحول هو ايضا اكثر مما يذكر مع اي كلاسيكي وانما « يختار » مصاحبه . لقد جمع تاريخ



موليير

الادب الفرنسي بينه وبين اراغون . فهما شاركا في الحركة السريالية وفي بيانها (1924) . وعندما جابهت السريالية في الثلاثينات المشاكل السياسية اختار ايلوار واراغون الالتزام والشيوعية في حين دافع بروتون منظر الحركة على استقلاليتها . ولذلك فهو ايضا لا يتحول معهما — في اذهان الطلبة — الى المجموعة الكلاسيكية .

تداعي الاسماء اذن في اذهان الطلبة لا يرجع الى المعاصرة الزمنية فحسب ولكن ايضا الى اعتبارات اخرى فنية وايديولوجية . وهو ما يفسر مثلا تداعي المجموعة : ايلوار — (رامبو — فارلان — بودلير — مالارماي) ، هؤلاء الشعراء الاربعة هم الذين يذكرون عادة عند الحديث عن منابع السريالية في الكتب المدرسية (1) . على ان العلاقة بين الرمزية والسريالية تعطي مكانة خاصة لرامبو في الكتب المدرسية توافق هنا تكرر نكره اكثر من غيره (3 مرات مع ايلوار) . من ذلك العلاقة بين شعره وشعر اراغون الذي « **يتخذ كسريالي من كيمياء الكلمة العزيزة على رامبو وسيلة انتاجه** » (2) .

اختصارا ، اذا اخطأ الطلبة فان ايلوار لم يخطىء ! **فما يبدو مجرد خلط جاهل يحترم في الواقع عملية لا ارادية في التداعي والترابط بين الكتاب هي اقرب الى التفسير منها الى المجانية .**

الكتاب العرب : هوة بين القديم والجديد

طلبة القسم العربي لم يخلطوا هنا ولو مرة واحدة بين المجموعتين . قد « يؤسف » لذلك ! لأن عدم الخلط ناتج عن تصورهم لهوة تمتد خمسة او ستة قرون قيل لهم عنها انها « عصر انحطاط » . اما طلبة القسم الفرنسي فلم تمنعهم هذه الهوة من ذكر اربعة كتاب من القرن العشرين ضمن الكتاب القدامى ذكروا مثلا طه حسين مع المتنبي (« مع المتنبي » كتاب لطه حسين !)

وكما سبق ان لوحظ في خصوص الكتاب الاجانب يلاحظ هنا **تحول في اتجاه واحد ونزعة الى تداعي بعض الاسماء بينها روابط معينة** . فتحول اربعة كتاب معاصرين الى مجموعة القدامى لا يعاكسه ذكر اي قديم ضمن المعاصرين . ثم ان الثلاثة الذين رافقوا طه حسين لا يعسر ايجاد علاقة بينهم تفسر هذا التحول الجماعي فهم الشابي ومي زيادة وايليا ابو ماضي ...

ولكن الفرق بين هذا التداعي المحدود وتداعي المعاصرين الاجانب هو ان وجود هؤلاء المعاصرين العرب في مجموعة كلاسيكية لم يستطع ان يفكك الترابط التاريخي الادبي القومي بين عناصر الثالوث جرير – الاخطل – الفرزدق كما استطاع مرافقو ايلوار تفكيك الترابط القوي بين موليير – راسين – كورناي – روسو .

II – التوزيع الزمني

ما هو الوزن الذي تسنده الذاكرة الجماعية الى مختلف العصور الادبية ؟ قبل رسم خط بياني يوزع زمنيا انتقاءات الطلبة ويشكل تصورا كميا للتطور التاريخي الادبي نتوقف عند ظاهرة وهي **ميل الذاكرة الى ايجاد توازن كمي بين مجموعتين من الكتاب حسب نقطة زمنية معينة .**

1) الاموات والاحياء : نزعة الى التساوي

هذا التوازن الكمي سبق ان اكتشفه بعض الباحثين ، في تحقيق معروف تأكد روبار اسكاربيت Escarpit من تساوي التوزيع بين « **كتاب الماضي** » و « **الكتاب المعاصرين** » مشيرا الى تأكده من هذا القانون مرات عديدة ، لكن مع ملاحظة الميل الى تغليب كفة الاحياء تغليبا طفيفا (3) قبله كان عالم النفس الامريكي ليمان Lehmann قد لاحظ انه « **اذا سألنا عينة كبيرة نسبيا حول ما تعتبره هاما ضمن الاعمال الادبية وذلك لتحديد رؤيتها للادب لاحظنا ان هذه الرؤية تعطي للكتاب المعاصرين اهمية مساوية على الاقل للاهمية التي تعطيها لكتاب الماضي** » (4)

الا ان المشكل هو تحديد الفاصل الزمني بين الماضي والمعاصرة . ففي حين يعتبر اسكاربيت كتاب الماضي اولئك الذين ماتوا منذ اكثر من عشرين سنة قبل قيامه بالتحقيق يعتبر ليمان كل من مات قبل القيام بالتحقيق كاتبا من كتاب الماضي .

وعوضا عن تحديد مسبق للفاصل الزمني يمكننا هنا تلخيص النزعة الى التوازن الكمي اعتمادا على اجوبة الطلبة انفسهم . هذه الاجوبة تسمح بالتمييز بين الحالات التالية :

أ – ينزع طلبة القسم الفرنسي الى ايجاد توازن كمي بين من ماتوا منذ اكثر من عشرين سنة قبل التحقيق (اي قبل 1951) ومن ماتوا بعد ذلك او مازالوا احياء من الكتاب الاجانب .

ب – اذا اعتبرنا الاحياء عند التحقيق (ماي 1973) كانت المجموعة المقتربة من مسافاتهم مجموعة من ماتوا منذ اقل من عشرين سنة .

ج – يبرز التوازن عند طلبة القسم العربي بين الاموات والاحياء ضمن قائمة المحدثين والمعاصرين من الكتاب العرب . ربما ان القرن التاسع عشر لم يذكر منه هؤلاء الطلبة الا كاتبا واحدا ، أمكن اعتبار هذا التوازن بين اموات القرن العشرين واحيائه . ان الفواصل الزمنية التي ينزع حسبها توزيع المجموعات الى التوازن الكمي يمكن تحديدها ولكنها متحولة لارتباطها بخصوصية الرؤية الادبية في كل ثقافة وعلى كل ، يمكن تلخيص نتائج التحقيق الحالي كما يلي :

● الكتاب الاجانب حسب اجوبة ذوي اللسان الفرنسي :

أموات (قبل 1951) = احياء (بعد 1950)

أموات (بعد 1950) = احياء (في 1973)

● الكتاب العرب حسب اجوبة ذوي اللسان العربي :

اموات (بعد 1900) = احياء (في 1973)

على انه يجدر الالحاح هنا على أمرين : اذا اعتبرنا مبدئيا ان ذوي اللسان الفرنسي اكثر معرفة بالكتاب الاجانب وذوي اللسان العربي اكثر معرفة بالكتاب العرب لاحظنا ان **ذاكرة كل مجموعة من الطلبة تختزن من ماضي ميدان المجموعة الاخرى اكثر مما تختزن من حاضرها** ، يمكن ان تكون « مناصرة » الماضي هنا دليلا على نقص في معرفة الحاضر .

الامر الثاني **تلك المطابقة بين التوازن المقام بين الاموات والاحياء من طرف ذوي اللسان الفرنسي والتوازن المقام من طرف الفرنسيين** حسب تحقيق روبار اسكاربيت . وسنرى ان التأثر بالرؤية الفرنسية يبلغ حدا أبعد في المستوى الكيفي عندما نتعرض الى قائمات الكتاب وترتيبهم .

2) عدم التساوي بين العصور

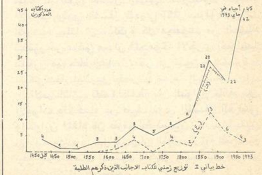
التوزيع الزمني لكل الكتاب الذين ذكرهم الطلبة يعبر عن تصورين مختلفين لتطور الادب الاجنبي والادب العربي ، تلخيصا ، **يتصور تطور الادب الاجنبي على انه تطور تصاعدي مستمر في حين يتصور الادب العربي تنازليا حتى النهضة .**

أ ــ الادب الاجنبي : تصاعد مستمر :

دون الدخول في جزئيات يلخصها الخط البياني اللاحق نلاحظ تزايدا مطردا في عدد الكتاب الاجانب يوازي الاتجاه الزمني ، فاذا اعتبرنا القرن كوحدة زمنية كان كل قرن لاحق اكثر تمثلا في الذاكرة من القرن السابق له . ان جملة الكتاب الاجانب المذكورين (182 كاتبا) تتوزع كما يلي (5)

القرن 16 : 4 كتاب
القرن 17 : 11 كاتبا
القرن 18 : 13 كاتبا
القرن 19 : 40 كاتبا
القرن 20 : 109 كتاب

هذا التزايد كما يوضحه الخط البياني موجود ايضا في مستوى نصف القرن : تحتفظ الذاكرة من النصف الثاني اكثر مما تحتفظ به من النصف الاول (انظر الخط البياني عدد 1) والملاحظ هنا انه عمليا يمكن الحصول على هذا المنحنى لتطور الادب الاجنبي دون اعتبار لاجوبة طلبة القسم العربي ، فهم لم يفردوا الا بذكر كاتبين من جملة 182 كاتبا ، وهو ما يعني ان نمط ثقافتهم لم يؤثر في تشكيل الصورة التاريخية لهذا الادب ، هذه الصورة اذا في انتاج الذاكرة الفرنكفونية وقد نقول الفرنسية : فهي من ناحية **تطابق التصور الفرنسي** الذي ابرزه مثلا تحقيق روبار اسكاربيت المشار اليه سابقا ، وهي من ناحية اخرى تكيف تطور الادب الاجنبي اي العالمي حسب تصور الادب الفرنسي ، فرغم ان الاسئلة تتعلق بالادب العالمي كان أهم من ذكروا من كل قرن فرنسيين .



خط بياني 1 توزيع زمني للكتاب الاجانب الذين ذكرهم الطلبة

ب ــ الادب العربي : تنازل ... ثم صعود :

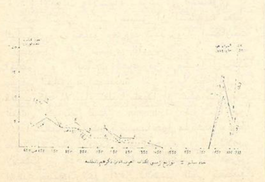
العكس هنا نسبيا صحيح ، فأجوبة ذوي اللسان العربي هي التي تحدد اجمالا المنحى العام لتطور الادب العربي كما تتصوره المجموعة الطلابية . ان تدخل ذوي اللسان الفرنسي في تشكيل الصورة التاريخية لهذا الادب لم يظهر الا في مستوى الفترة العباسية الرابطة بين منتصفي القرنين العاشر والثالث عشر . لكن هذا التدخل (باضافة عدد من الفلاسفة) لم يغير من منحى التطور كما ترسمه أجوبة ذوي اللسان العربي : هؤلاء يوزعون الكتاب العرب توزيعا زمنيا تنازليا حتى عصر النهضة :

ــ 550 ــ 650 : 11 كاتبا
ــ 651 ــ 760 : 9 كتاب
ــ 751 ــ 850 : 4 كتاب
ــ 851 ــ 950 : 4 كتاب
ــ 951 ــ 1050 : كاتبان
ــ 1051 ــ 1150 : كاتبان
ــ 1151 ــ 12550 : كاتب واحد
ــ 1251 ــ 1350 : كاتب واحد
ــ 1351 ــ 1450 : كاتب واحد
ــ 1451 ــ 1850 : لا شيء (تدقيقا : ابتداء من 1406 تاريخ وفاة ابن خلدون)

ثم يصبح هذا التوزيع تصاعديا :

ــ 1851 ــ 1950 : 13 كاتبا
ــ ما بعد 1950 : 26 كاتبا (6)

واذا كانت ذاكرة ذوي اللسان الفرنسي اقل احتفاظا بطرفي تاريخ الادب العربي : المجموعة الجاهلية ومجموعة الاحياء (انظر الخط البياني عدد 2) ثم اضافتها بعدا فلسفيا علميا الى فترة وسطى (اذ تختص بذكر الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد) **فان هذه الذاكرة تنضب في نفس الوقت الذي تنضب فيه ذاكرة ذوي اللسان العربي :** ابن خلدون آخر من تذكره الذاكرتان قبل النهضة ....



ج ـ البعث البوناباراتي :

هذه الهوة الواسعة تدعو الى تعليقات ولو هامشية ، ألا يمكن للمتأمل أن لا يحتار كيف قبل الفكر العربي فكرة البتر الحضاري التي اصبحت فكرة مسبقة يسلم بها وانها من معطيات التاريخ الثابتة نهائيا .

يعيد الطلبة انتاج الصورة المعهودة ، صورة فترة تقارب ستة قرون وصفت لهم بالانحطاط والجمود وغير ذلك من الاحكام القاسية كالتي يذكرها الفرنسيون Ankylose-Sclérose-Décadence وما شابه ذلك)

ولعل البحوث التاريخية الثقافية الجادة يمكن ان تساعد على تغيير هذا التصور التقليدي لهذه الفترة الطويلة ، هناك افتراضات كثيرة يمكن النظر فيها : كميا لم تكن هذه الفترة قليلة الانتاج (ينتسب اليها مثلا السيوطي الذي سجل رقما قياسيا بتركة 561 كتابا) . كيفيا يمكن ابراز الجدة في انتاج هذه الفترة لا اعتمادا على المعايير التقييمية الكلاسيكية وهي معايير ادبية جمالية اساسا بل اعتمادا على طريقة التمفصل بين مختلف المعطيات الثقافية ، وهو تمفصل فريد في كل مرحلة تاريخية . فللرصيد الموسوعـي والتاريخي والجغرافي والصوفي والسيري الشعبي وغير ذلك لا يمكن ان يقيم أدبيا فحسب . ان المعايير الادبية هي التي افضت الى دائرة مفرغة : اما ان تحترم هذه المعايير فيقال « إعادة » واما ان لا تحترم فيقال « لا أدب » ... هذا بقطع النظر عن نمطية جغرافية ثقافية تدحض مبدأ التعميم . ابن خلدون نفسه اشار مسبقا الى هذه النمطية عندما ابرز التفاوت الثقافي بين المشرق والمغرب في عهده « **حتى ليظن كثير من رحالة أهل المغرب الى المشرق في طلب عقولهم على الجملة اكمل من عقول اهل المغرب ...** » (7) .

يضاف الى هذا افتراض لا يقصد منه الجدل بقدر ما يقصد منه ازالة الحواجز الخارجيـة دون التصور الداخلي للتاريخ : لقد شاء التاريخ (المكتوب) ان يمتد عصر « **الانحطاط** » من **هولاكو** الى **بونابارت** : أمات الاول فأحيا الثاني ! والمهم هنا هو أن الالحاح على فكرة « **الانحطاط** » يعطي مضمونا ايجابيا خلاقا لمفهوم « **البعث** » المرتبط بحملة بونابارت ويدعو بالتالي الى الاعتراف بفاعلية التدخل الفرنسي هناك فعلا تشبث غربي وخاصة فرنسي بمفهوم بل وبلفظة « **البعث** » Renaissance كان يجب ان يكون العرب قد ماتوا فعلا ليمكن بعثهم من جديد سنة 1798 ... عن طريق مستشرقي القرن العشرين !

لقد استعمل العرب لفظة « **نهضة** » وفيها معنى القيام بل والقوة ايضا فعارض المستشرقين الفرنسيين هذه التسمية . ان شارل بلات مثلا يعتبرها من طرف العرب تسمية في غير محلها او مخالفة للاصول ! (8)

ان موضعة النهضة في صيرورة تاريخية شمولية لا تخضع الى التقطيع السابق يجعل منها مرحلة حضارية فكرية لا تقترن، في الذهن، ضرورة بتصور النهضة الاوروبية ولا بتصور انبعاث سحري للانسان العربي بل بتصور نمط جديد من المجهود والوعي فيه بعد ظرفي ولا شك ولكنه ايضا في ارتباط عضوي باستمرارية تاريخية .

III ـ مضمون الذاكرة

اذا نظرنا في قائمات الكتاب المتحصل عليها لاحظنا ان الصورة التاريخية الملخصة سابقا مرتبطة بمضمون فقير نسبيا ومقولب للذاكرة الطلابية . فاذا كان ميدان الاختيار مبدئيا او كما قد يتبادر الى الذهن ميدانا واسعا فانه ـ عمليا ـ لا يتجاوز عددا محدودا من « **الاعلام** » الذين يستقطبون الاجوبة بينما تقنع البقية بتمثيل كمي وجغرافي ضعيف .

1) التوزيع الجغرافي

قبل المرور الى عملية ارجاع مضمون الذاكرة الى قوالب نمطية « محظوظة » تجدر الاشارة الى ان **عدم التساوي في التوزيع الزمني يوازيه عدم تساو في التوزيع الجغرافي** .

اكيد انه اذا سئل أناس ينتمون الى ثقافات (او مناطق مثاقفة) مختلفة حول الادب العالمـي فان توزيعاتهم للكتاب تكون ايضا مختلفة . ولعلنا نتصور ما عسى ان يكون لون خريطة العالم العربي في توزيع فرنسي لكتاب العالم ! كذلك ـ ولكن عكسا ـ لا نباغت بنصيب الفرنسيين الكبير في توزيع مغربي :

ان الكتاب الفرنسيين يمثلون 60،4 ٪ من مجموع الكتاب الاجانب المذكورين . هذا التفوق هو الذي جعل تطور الادب العالمي يتكيف في ذهن الطلبة حسب تطور الادب الفرنسي ، ان الـ 182 كاتبا اجنبيا يتوزعون جغرافيا على النحو التالي :

- 110 من فرنسا
- 16 من المانيا
- 13 من انقلترا
- 13 من روسيا
- 12 من امريكا

ثم 3 من اليونان القديم و 2 من كل من الصين واسبانيا والنمسا وسويسرا ثم واحد من كل من ايطاليا وتركيا وبوليفيـا والشـيلي وغواتيمـالا والمجـر وتشيكوسلوفاكيا .

هذا الاستقطاب الجغرافي موجود ايضا في توزيع الكتاب العرب المعاصرين . فاذا استثنينا الجزائريين

الذين تعلق بهم سؤال خاص كانت نسبة المصريين 60،9 ٪ . ان الكتاب المذكورين وعددهم 45 كاتبا يتوزعون كما يلي :

25 من مصر
6 من لبنان
2 من فلسطين
2 من العراق
2 من المغرب
1 من سوريا
1 من السودان
1 من تونس

2) **حدود الذاكرة : القائمات القصيرة**

عندما يطلب من طلبة تختلف اختصاصاتهم ذكر اسماء كتاب من الادب العالمي دون حصر كمي تاريخي او جغرافي فالمتوقع ان تكون القائمة المتحصل عليها طويلة ومتنوعة . لكن هذا التوقع قد يكون خياليا ، فكل ما ذكر من ماضي الادب وحاضره :

182 كاتبا اجنبيا
82 كاتبا عربيا غير جزائري
30 كاتبا جزائريا كاتبا بالفرنسية
27 كاتبا جزائريا كاتبا بالعربية

هذه القائمات تصبح أقصر اذا لم يعتبر من الكتاب إلا من ذكر مرتين على الاقل اي من تكرر منهم . في هذه الحالة تصبح الاعداد السابقة على التوالي : 91 و 62 و 16 و 19 كاتبا . ان عدد المرات التي يتكرر فيها ذكر كل كاتب معيار هام . وعلى هذا الاساس نلاحظ **عملية ارجاع يحظى فيها راس كل قائمة بنسبة كبيرة يصبح معها ذكر البقية عرضيا او ثانويا ،** فمثلا 5،5 ٪ من الكتاب الاجانب (العشرة الاول من القائمة العامة) يتقاسمون 24،4 ٪ من الاجوبة في حين ان 48،3 ٪ من الكتاب انفسهم (الـ 88 المذكورين مرة واحدة) لا يتقاسمون الا 10،7 ٪ من هذه الاجوبة .

هذا الارجاع يفسر جزئيا بضعف معدل الذكر (اي معدل ما يذكره الطالب من الكتاب ، عندما طلب روبار اسكاربيت ان يذكر من اجرى عليهم تحقيقه خمسة اسماء فقط عيب عليه هذا التجديد . لكنه لاحظ انه رغم هذا التحديد المتواضع فان خمسي من سئلوا لم يذكروا الا اربعة اسماء على اقصى تقدير . ورغم ان تحقيقنا لم يحدد عددا معينا فان النتيجة تكاد تكون واحدة . ذلك انه من عشر قائمات ليست هناك الا قائمة واحدة تجاوز فيها معدل ما يذكره الطالب خمسة كتاب :

	كتاب		عرب		غير عرب
	قدامى	من القرنين 19 و 20	جزائريون لسان عربي	جزائريون لسان فرنسي	
معدل ما يذكره طلب القسم العربي	4،5	4،3	2،4	2،4	3،4
معدل ما يذكره طالب القسم الفرنسي	3،1	1،5	0،9	4،8	12،9

نؤكد هنا ما اشرنا اليه في الحديث عن التوزيع الزمني وهو **ان كل قائمة تنتجها عمليا احدى المجموعتين من الطلبة** حسب تطابق بين الطلبة ذوي اللسان الفرنسي والكتاب الاجانب او الجزائريين الكاتبين بالفرنسية من جهة وبين الطلبة ذوي اللسان العربي والكتاب العرب او الجزائريين الكاتبين بالعربية من جهة ثانية ، فمن 182 كاتبا اجنبيا و 30 جزائريا كاتبا بالفرنسية لا يوجد الا كاتبان في كل مجموعة اضافهما للقائمة ذوو اللسان العربي ولم يذكرهما ذوو اللسان الفرنسي ، عكسا ، من 82 كاتبا عربيا غير جزائري و 27 جزائريا كاتبا بالعربية لا يوجد على التوالي الا 8 و 3 كتاب لم يذكرهم ذوو اللسان العربي . هذا مع ملاحظة ان هؤلاء الكتاب « المضافين » هم ممن لم يذكروا الا مرة واحدة . معنى هذا ان **ما تختاره وتكرره كل مجموعة لا يتجاوز ما تختاره المجموعة الاخرى « المختصة »** . ولعله من الابتذال الاشارة هنا الى دور لغة التعلم في تكوين الصورة الادبية العربية او الاجنبية عند الطلاب .

3) **عبء الذاكرة : الرجوع الى الكلاسيكيين**

ان التوزيع الزمني الذي سبق رسمه بيانيا توزيع كمي اخذ بعين الاعتبار عدد الكتاب المذكورين من كل فترة دون ان يعتبر معدل تكرر هؤلاء الكتاب . لكن معرفة هذا المعدل هامة لأن من يوجد اسمه في عشرين او ستين جوابا ليس له في الذاكرة الجماعية نفس الوزن الذي لكاتب لم يذكر الا مرة او مرتين .

عن أية ظاهرة يكشف اذن معدل تكرر الكتاب المذكورين ؟ اذا كان التوزيع الزمني للكلاسيكيين الاجانب (حسب أجوبة الطلبة) يعتبر النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو أثرى فترة (انظر الخط البياني عدد 1) واذا كانت قمة هذا التوزيع الزمني



يمثله الاحياء من الاجانب والعرب فان معدل التكرر يحول مركز ثقل الذاكرة نحو ماض أبعد . هذا يعني ان **الذاكرة تحتفظ من الكلاسيكيين باسماء قليلة ولكنها تكثر من ذكرها فتعطيها بذلك اهمية اكبر عموما من اهمية المحدثين والمعاصرين .**

أ ـ فبعد ان حددت اجوبة الطلبة النصف الثاني من القرن التاسع عشر على انه اثرى الفترات « الكلاسيكية » الاجنبية نجد ان اكثر الكتاب تواترا هم اعلام الكلاسيكيين اصطلاحا اي كتاب القرن السابع عشر . ففي حين يذكر كاتب النصف الثاني من القرن التاسع عشر بمعدل 6 مرات والكاتب من الاحياء بمعدل 3 مرات ، يذكر كاتب النصف الثاني من القرن السابع عشر بمعدل 14،5 مرة . وهو أكبر معدل اطلاقا .

طبعا يوجد في مستوى الاشخاص من يتكرر ذكره من المعاصرين اكثر من الكلاسيكيين (كسارتر مثلا وهو في راس القائمة العامة) ولكن وجه الاختلاف انه **في حين تستحوذ قلة كلاسيكية على الذاكرة تكون هذه الذاكرة اكثر حرية في اختيار المعاصرين .**

ب ـ نفس الملاحظة في الميدان العربي : اذا كان طه حسين اكثر الكتاب تواترا على الاطلاق (62 مرة) فان المعاصرين العرب وخاصة الاحياء منهم هم معدلا اقل تواترا من القدامى (6،7 مرة) ، ان اكثر الفترات جمعا بين الفقر والتسلط على الذاكرة هي فترة المتنبي . فالنصف الثاني من القرن العاشر لم يوح الى الذاكرة بغير المتنبي (35 مرة) وبأبي فراس (ولكن 6 مرات فقط) يلمس هنا الى أي حد يمكن أن يهيمن في الذاكرة كاتب عربي قديم على عصره ويمحو معاصريه . ولم يكن للمتنبي ان يستحوذ لو لم يتعلم الطلبة عن ادباء اللقرن العشرين ان « **المتنبي رسول العربية** » (9) وان « **المتنبي شاعر نهضتنا الحديثة** » (10) او انه اختصارا ـ وهو ما يوافق حصيلة الذاكرة ـ « **شاعر القرن** » كما يعنون قاستون فيات (11)

4) قوالب الذاكرة : الانتقاء الصارم

الماضي اذن اقدر على المد بالقوالب من الازمنة الحديثة . فلو اثبتنا قائمة كل الكتاب المذكورين حسب ترتيب تنازلي اعتمادا على عدد المرات التي يتكرر فيها ذكر كل واحد لكان الكلاسيكيون ممثلين في راس هذه القائمة بنسبة اكبر من نسبة المعاصرين . من ذلك ان الـ 40 مرتبة الاولى من قائمة الكتاب الاجانب وهي مراتب من نكروا 5 مرات فأكثر تحتوي على 41 ٪ من الكلاسيكيين و 9،2 ٪ فقط من كتاب القرن العشرين . كذلك الـ 36 مرتبة الاولى من قائمة الكتاب العرب وهي ايضا مراتب من نكروا 5 مرات فأكثر تحتوي على 51،2 ٪ من القدامى و 3،4 ٪ فقط من كتاب القرن العشرين .

اذا اثبتنا قائمة عامة ثم اخذنا منها من ذكر من الكتاب 10 مرات على الأقل (وهو عدد المرات الذي يتأكد معه وجود كل كاتب عربي وتقريبا كل كاتب اجنبي في قائمتي ذوي اللسان الفرنسي وذوي اللسان العربي معا) أمكن الحصول على مجموعات محدودة تمثل اكبر درجة من القولبة التكرارية . هذه المجموعات وان كان تعميمها يتطلب ولا شك اجراء تحقيقات اخرى اذ هي متعلقة بعينة وهرانية فان مضمونها الناتج عن عملية انتقاء صارم من طرف الذاكرة الطلابية لا يباغت الباحث المغربي اذ هو اساسا حصيلة نوع معروف من التعلم والبيداغوجيا .

أ) الكتاب الاجانب : القولب التاريخية :

موليير : 27 مرة
راسين : 26 مرة
روسو : 19 مرة
كورناي : 17 مرة
بودلير : 16 مرة
زولا : 16 مرة
بلزاك : 14 مرة
هيغو : 14 مرة
تولستوي : 11 مرة
لافونتان : 10 مرات
مونتسكيو : 10 مرات
فولتير : 10 مرات
ديدرو : 10 مرات

لامارتين : 10 مرات
دوستويوفيسكي : 10 مرات
رامبو : 10 مرات
فارلان : 10 مرات
ب) الكتاب الاجانب : قوالب القرن العشرين
سارتر : 29 مرة
ايلوار : 17 مرة
اراغون : 17 مرة
كامو : 16 مرة
مالرو : 12 مرة

نعيد هنا ملاحظتين : الاولى الشبه الكبير بين المجموعتين السابقتين (والمحددين اساسا من طرف طلبة ذوي اللسان الفرنسي) وبين نتائج تحقيق روبار اسكاربيت لدى الشباب الفرنسي . واذا لم نعتبر الا القالب التاريخي المجمع عليه من طرف الفرنسيين وهو يحتوي 14 كاتبا يكونون حسب اسكاربيت « **القالب القومي للأدب الفرنسي** » لاحظنا ان 10 من بين هؤلاء الـ 14 كاتبا يوجدون في قائمتنا (أ) ، هذا مع ملاحظة ان الاربعة الباقين (مونتاني ، باسكال ، شاتوبريان ، دوما) هم ايضا مذكورون من طرف الطلبة ولكن 5 مرات فقط .

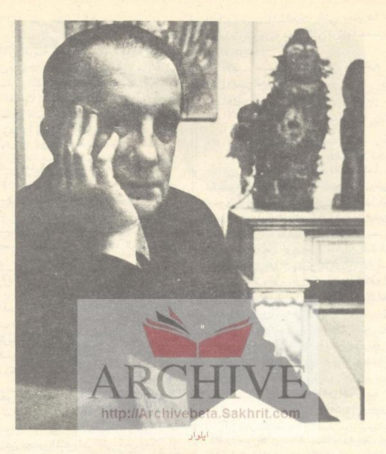
نلاحظ ايضا وبسهولة ميلا واضحا الى ارجاع قائمة الكتاب الاجانب (غير العرب) الى قائمة فرنسية . فليس هناك من بين 22 كاتبا ذكروا 10 مرات على الاقل الا كاتبان اثنان غير فرنسيين . **لا يتم المرور الى غير الفرنسيين الا بعد ان تتشكل وتتشبع القوالب الفرنسية .**

ج) الكتاب العرب : القوالب التاريخية
امرؤ القيس : 41 مرة .
عنترة : 36 مرة
المتنبي : 35 مرة
زهير : 28 مرة
الجاحظ : 25 مرة
ابو نواس : 20 مرة
الفرزدق : 18 مرة
المعري : 16 مرة
الاخطل : 14 مرة
البحتري : 14 مرة
الخنساء : 14 مرة
جرير : 11 مرة
عمر بن ابي ربيعة : 10 مرات
ابن المقفع : 10 مرات
د) الكتاب العرب : قوالب القرن العشرين
طه حسين : 62 مرة
شوقي : 22 مرة
المنفلوطي : 20 مرة
جبران : 16 مرة
الشابي : 16 مرة
ابو ماضي : 16 مرة
احمد امين : 13 مرة
توفيق الحكيم : 12 مرة
قباني : 12 مرة
درويش : 11 مرة
نجيب محفوظ : 10 مرات
العقاد : 10 مرات

ان القوالب العربية ميدان اتفاق تام بين ذوي اللسان العربي وذوي اللسان الفرنسي ، كل كاتب من المجموعتين (ج) و (د) موجود ، وفي مرتبة متقدمة ، في قائمتي المجموعتين . **الاختلاف يظهر بعد تكوين القوالب .** ففي حين يضيف ذوو اللسان العربي الى القالب التاريخي اعلاما من الجاهلية (يتممون قائمة المعلقات) يضيف ذوو اللسان الفرنسي فلاسفة من العصر العباسي . اما قوالب القرن العشرين فلا يضيف اليها ذوو اللسان الفرنسي الا كاتبين في مرتبة متأخرة .

هـ) الكتاب الجزائريون : القوالب العربية
محمد العيد خليفة : 30 مرة
الاخضر السائحي : 29 مرة
ابن باديس : 21 مرة
البشير الابراهيمي : 18 مرة
مفدي زكريا : 17 مرة
و) الكتاب الجزائريون : القوالب الفرنكفونية
محمد ديب : 81 مرة
مولود فرعون : 69 مرة
كاتب ياسين : 67 مرة
مولود معمري : 60 مرة
آسيا جبار : 18 مرة
فضيلة مرابط : 10 مرات
رشيد بوجدرة : 10 مرات
مالك حداد : 10 مرات

هنا ايضا مجموعتان متفق عليهما ويستقطبان الاجوبة استقطابا قويا . فكتاب القالب العربي الخمسة يتقاسمون 58،5 ٪ من الاجوبة . آخرهم مذكور 17 مرة في حين ان من يليه (رضا حوحو) لم يذكر الا 5 مرات . اكثر من هذا يتقاسم الكتاب الفرنكفونيون الاربعة الاول 77 ٪ من الاجوبة ، مرة اخرى يظهر الاختلاف بعد تكوين القوالب : يضيف ذوو اللسان الفرنسي مصطفى الاشرف (5 مرات) وبوربون وبلحاج علي (4 مرات) ويضيف ذوو اللسان العربي رضا حوحو (5 مرات) وصالح خرفي والطاهر وطار (3 مرات) هذان النوعان من الاضافة متصلان طبعا بتكوينين مختلفين . لكن **القالب المشترك وان نتج عن التعلم المدرسي فهو لا يختلف في معظمه باختلاف الاختصاصات او النماذج الفرعية**



ايلوار

للتعلم .

IV ـ من التجريبي الى الممكن

ان الاستنتاجات والملاحظات السابقة اعتمدت اجوبة الطلبة التلقائية ، لكن نوعا آخر من الاجوبة اكثر اعمالا للعقل يثبت انه اذا كانت القوالب تنتجها التلقائية فان التفكير يتوق الى مراجعة هذه القوالب وتجاوزها . هناك مرور من التجريبي المعاش الى وضع ممكن . هذا المرور هو في اعتقادنا من جملة ما يجب ان يهتم به الباحث مراعاة للصيرورة واعتبارا للممكن كبعد من ابعاد الواقع .

1) **الكتاب « الهامون » : تجاوز القوالب**

ان الاسئلة حول ما يمكن ذكره من الكتاب سبقها سؤال حول من يمكن اعتبارهم « هامين » من الكتاب . المقارنة بين نتائج الاسئلة الاولى وهذا الاخير يفضي الى معاينات جد هامة :

اهم ما يلفت الانتباه ان الكتاب النين تم اختيارهم على انهم « كتاب هامون » وفي هذا الاختيار شيء من التروي ـ ليسوا عموما ممن يدخلون في تركيب القائمات المقولبة . معنى هذا ان تفكير الطالب يعطي اكبر اهمية لكاتب ثم تهمله ذاكرته او « تنسى » ذكره في الاجابة عن سؤال يأتي مباشرة بعد ذلك ، **هذه « المراجعة » الضمنية أو اللاإرداية لقوالب الذاكرة تتم حسب احدى عمليات ثلاث : حذف او تهميش او اقحام :**

أ ـ اهم حذف يتعلق بالكلاسيكيين ولو كانوا في راس القائمات المقولبة ، من ذلك مثلا ان موليير وراسين وروسو وكورناي وهم اكثر من كررتهم الذاكرة لم يذكروا ولو مرة واحدة ككتاب هامين . اما العرب القدامى فأهم من انتصب التفكير ضدهم الثالوث الاموي الفرزدق والاخطل وجرير ، في حين اعادت

ذكرهم الذاكرة اكثر من عشر مرات .

ب — بعض الكتاب يلقى بهم في هامش الهامين بعد ان اعطتهم الذاكرة مرتبة هامة واوضح تهميش يتعلق بسارتر : بعد ان ذكر 29 مرة لم يعتبر هاما الا من طرف طالب واحد . سارتر المقولب يصبح سارتر ما بعد 1967 حالما يفكر في اهميته ! بالنسبة للعرب ورغم ثبوت المتنبي وطه حسين ضمن الهامين يلقى في الهامش بامرىء القيس وعنترة وهما في راس قائمة القدامى فلم يذكرا الا مرة واحدة كهامين .

ج — الى جانب معارضة القوالب (من طرف الطلبة المعيدين لانتاجها انفسهم) هناك ظاهرة اقحام تتعلق بكتاب غير مقولبين او كتاب قولبوا ولكن نذكرهم هنا من بين الهامين يؤكد من جديد اختيارا قوميا . في الحالتين تتضح رؤية ايديولوجية . فمجموعة الكتاب الاجانب ينقص فيها نصيب الفرنسيين ويضاف اليها بعض الكتاب الثوريين في مقدمتهم الاشتراكيون . الاهمية معطاة حسب الاولوية الى ماركس ولينين وماوتسي تونغ وناظم حكمت ونيرودا وغارسيا لوركا واراغون وايلوار . اما المجموعة العربية التي تحافظ على نسبة اكبر من القوالب فانها تقحم او تثبت من جديد اسماء جزائرية او مغربية ضمن من اعتبروا هامين : بعد المتنبي وطه حسين يذكر ابن خلدون والشابي وابن باديس ومفدي زكريا .

2) فروق اخرى : مما لا يقرأ الى ما يجب ان يقرأ

هناك اذن تناقض بين تلقائية الذاكرة المقولبة للصورة الادبية وبين الاختيارات الواعية . والقوالب لا تستقل فحسب عن بعض المتغيرات التي كان يمكن او يجب ان تؤثر في تشكيلها (الاختصاص مثلا) وانما تبدو معارضة لارادة التغيير : **ان الطلبة يعيدون انتاج قوالب تتعارض مع مطالبهم وتتوقاتهم .**

أ — معرفة هذه القوالب المعاد انتاجها معرفة ضعيفة او منعدمة . فالكاتب الكونون للقوالب (انظر القائمات السابقة) ليسوا كلهم ممن قرىء قراءة شخصية . الطلبة حسب اعترافاتهم في الاجوبة لم يقرؤوا الا 60 ٪ ممن ذكروا من الكتاب . فهم اذا ينتجون 40 ٪ من القوالب سماعا لا غير . اكثر من هذا **يبدو تكرر الكتاب المقولبين في تناسب عكسي مع قراءتهم :** الكلاسيكيون يتكرر ذكرهم اكثر من المعاصرين . ولكن قراءتهم من طرف الطلبة أقل . فالكتاب القدامى ذكروا في الجملة 380 مرة وقرىء منهم 38 ٪ ، في حين ذكر المعاصرون 290 مرة وقرىء منهم 67 ٪ .

ب) لكن القوالب ومعها الكتب والبرامج المدرسية تتناقص خاصة مع انواع المطالعة التي يتوق اليها الطلبة . تكفي المقارنة بين قائمات القوالب التي سبق اثباتها وبين المطالعات التي يعتبرها طلبة وهران مفقودة وضرورية معا والتي نرتبها حسب درجة تكررها في الاجوبة :

الادب السياسي ، الثوري ، الملتزم
الادب الصيني
الادب العربي الحديث
الادب الروسي
الادب الجزائري المعاصر .

ختاما :

ان الصورة التاريخية للادب كما حددتها اجوبة طلبة وهران لا تعكس المضمون التاريخي الحقيقي ولا صيرورة التتوقات والتجاوزات ، انها تبين الى اي حد تساهم البرامج المدرسية الخالية من مجهود المراجعة في بلورة تصورات خاطئة وفي وعي تاريخي خاطىء وهي التالي تعبير عن نوع من المفارقة الثقافية .

ألا يعني هذا في نهاية الامر ان القوالب الموروثة هي « تراث » لا يجرؤ على ذكر اسمه ؟ كثيرا ما نتحدث عن تراث يجب حفظه واحياؤه ، ولكن لا احد استطاع ان يحدد ما عسى ان يكون هذا التراث دون ان يرجعه الى جملة من القوالب بينها علامات جمع . من هذه الوجهة تكون القوالب التاريخية مرتبطة بنوع من الرؤية التقليدية للتراث : رؤية هي نفسها تشويه للواقع التاريخي ■

الطاهر لبيب
استاذ بالجامعة التونسية

1) قارن مثلا بما ورد في الفصل حول السريالية في الكتاب المدرسي المعروف : A. Lagarde et L. Michard. 19ème siècle. Bordas. 1962

2) نفس المصدر ، ص 356

3) R. Escarpit. L image historique de la littérature chez les jeunes; Littéra ture et société. Bruxelles. 1967. p. 151.

4) نفس المصدر ، ص 151

5) منهم 5 كتاب ينتمون الى ما قبل القرن السادس عشر

6) تفصيلا وحسب وحدة زمنية اقصر ، يكون التوزيع التصاعدي كما يلي :

1851	1875	0
1876	1900	كاتب واحد
1901	1925	4 كتاب
1926	1950	8 كتاب
1951	ماي 73	6 كتاب
احياء في ماي	73	20 كاتبا

7) المقدمة ، الفصل السادس من الكتاب الاول ، الفقرة 2

8) « Et l'on assiste à une renaissance que les Arabes désignent impropre ment sous le nom de Nahdha. « Essor ».

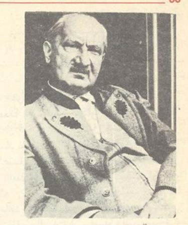
Ch. Pellat. Langue et littérature arabes. Colin. 1970. p. 195.

قارن ايضا براي قاستون فيان Introduction à la littérature arabe. Maisonneuve. 1966. p. 271.

9) عنوان مقال لامين الريحاني ، الطليعة ، اوت — سبتمبر 1936

10) عنوان مقال لعبد الرحمان شهبندر ، نفس المصدر

11) قاستون فيات ، المصدر السابق الذكر ، ص 148



"مارتن هيدقر" الفيلسوف والفلسفة

تقديم : محمد رضا الطايفي

هيدقر عربيا :

لقد مات مارتن هيدقر منذ اسابيع ، قد نكون بذلك قد فقدنا آخر الفلاسفة الميتافيزيقيين بل أعمقهم نزولا في ذات الوجود وتعمقا في مفهوم الانسان ، اذ لا يمكن ان نتحدث عن هيدقر دون ان نتحدث عن الوجود ، ودون ان نشعر بالحياة تتدفق في عروقنا ، وبقلوبنا تتفتح الى العالم . فهذا الفيلسوف الالماني يرفض ان تنطلق الفلسفة من المفاهيم الدينية الخاطئة التي قيدت ديكارت وهيقل وغيرهما من فلاسفة الميتافيزيق . لا يمكن ان نعرف الانسان بالاتكاء على المفهوم الديني للوجود (اي الوجود كحمل ثقيل وثمرة خطيئة) كما لا يمكن ان نفسر الوجود بالارتكاز على شيء خارج عن الوجود نفسه كفكرة الاله الذي يقول للاشياء كن فتكون . لا يمكن بالتالي التفكير في وضع الانسان بعيدا عن الانسان نفسه او عن امكانية وجوده في العالم او عن انتمائه الشعري للكون . لذلك لم يعد هيدقر في بحوثه الى هيرقليطس وافلاطون وارسطو فقط بل ايضا الى بعض الشعراء الالمان كهلدرين ، وراينر ماريا ريلكه،وستيفان جورج .

ويضيق مجال هذا المقال على الالمام بفلسفة هيدقر وأبعادها الفكرية والسياسية أيضا . قد نكتفي بتقديم ترجمة أولية لحياة هذا الرجل متبوعة بتحليل مبسط لفلسفته على أمل التحليل لبعض جزئيات البحث في فرص اخرى .

يجب أن نشير ايضا الى مشكلة التعريب لبعض المصطلحات الفلسفية ، اقصد تحويل المعنى من اللغة الالمانية الى اللغة العربية . وهي من المشاكل الجوهرية التي يجب الاشارة اليها وخوضها خاصة ونحن في معركة ثقافية سماها البعض معركة تعريب الفلسفة . لنوضح رأينا بهذه المناسبة وعلى ضوء ممارستنا لفلسفة هيدقر ، لا يمكن أن نعرب كلمة دون ان نحول معناها ودون أن نحمله ابعادا دلالية جديدة وذلك نتيجة لانتمائها الى فضاء ثقافي جديد . فالتحول من لغة الى اخرى ليس بالسهولة التي يراها بعض اساتذتنا ، والتعريب (بل قل الترجمة عامة) لا يمكن أن يكون غير خيانة للمعاني الاصلية أو على الاقل تحويلا لها . فقراءة هيدقر الالماني لا تكون الا بالالمانية وفي روح هذه اللغة وفضائها الثقافي والتاريخي الرحب .

ولكن هذه الحقيقة النظرية لم تمنعنا من محاولة التعريب لهيدقر حتى يصبح هيدقر فيلسوفا عربيا وترتبط فلسفته ارتباطا جذريا بلغتنا . لذلك فان ما اقدمنا عليه ليس بالسهولة التي يراها البعض . وان عربنا مفهوم Etre بالوجود فاننا استعملنا الترجمة المعروفة لدى بعض المترجمين للفلسفة الوجودية مع شيء من الاحتراز . فالوجود يعني Existence (1) والفرق بين Etre (2) من جهة Existence (3) من جهة اخرى شاسع في فلسفة هيدقر بينما توجد كلمة واحدة لضم معنيين وان ترجمنا كلمة Etant (4) بالمكانة فمحاولة منا لايجاد كلمة عربية تؤدي المعنى الهيدقري . كذلك فعلنا بكلمتي Angoisse (5) و Souci (6) اذ ترجمناها بالقلق وبالبلبلة .

نتمنى ان يكون عملنا هذا افتتاح حركة تفتح الى فلسفة هيدقر وتعريب لفكره الفلسفي كما نتمنى اصلاح بعض الزلات النظرية في فرص آتية .

ترجمة الرجل والفيلسوف :

ولد مارتن هيدقر في « مسكرش » ببلاد « الباد » في 26 سبتمبر سنة 1889 من أب يدعى فريديريك هيدقر وأم تدعى جوهانا كمف .

تلقى الطفل دراسة ابتدائية بمعهد Gymnasium de Constance من سنة 1903 الى سنة 1906 ثم بمعهد Friburgen — Brisgau من سنة 1906 الى سنة 1909 ثم تحول لدراسة أصول الدين بنفس المعهد لمدة سنتين .

كانت سنة 1911 هامة بالنسبة لتكوين هيدقر العلمي حيث شرع في دراسة الفلسفة والحسابيات والعلوم

الطبيعية والتاريخ بجامعة نفس المدينة . بعد دراسة ناجحة سمي الباحث الشاب Privadozent بجامعة فريبورغ ، وتحت اشراف الفيلسوف هوسرل ثم تزوج بالآنسة Elfride Petri سنة 1917 قبل ان يجند وان يلحق بمصلحة الاحوال الجوية قريبا من Verdun وفي سنة 1919 اعيد هيدقر الى ميدان التعليم بجامعة فريبورغ كما بشر بولادة ابنه جورج . اما ابنه الثاني هرمان فقد انزاد له بعد سنة فقط . وفي سنة 1922 اي السنة التي استولى فيها موسليني على الحكم في ايطاليا سمي هيدقر Extraordinarius (اي استاذ غير مرسم) بجامعة ماربورغ حيث درس الى نهاية سنة 1928 في سنة 1927 اصدر هيدقر كتابه الشهير Sein und Zeit (الوجود والزمن) بعد صدور هذا الكتاب سمي الفيلسوف الشاب في خلافة هوسرل اي Ordanarius لجامعة فريبورغ . وفي سنة 1930 القى هيدقر درسه الشهير Was ist Metaphysik (ما معنى الميتافيزيق ؟) اما سنة 1933 فهي من السنوات المضطربة التي عاشها هيدقر اذ اشترك في الحركة النازية ، عن وعي واقتناع ، ورشح نفسه لعمادة الجامعة بعد استقالة عميدها السابق كما خطب في طلبته داعيا اياهم الموافقة على خروج المانيا من جمعية الامم . وتعد هذه الفترة من الفترات التي اتخذ فيها هيدقر موقفا نازيا واضحا وهو يلام عليه الى اليوم من طرف مؤرخي الفلسفة رغم انه استقال من مهامه بعد سنة وتحولت اهتماماته الفلسفية شيئا فشيئا لتصبح تأملات في فلسفة الفن وجوهر اللغة الشعرية . ففي سنة 1955 ابتدأ دراساته الاولى في شعر هلدرلين Hölderlin وفي مؤلفات الفيلسوف نيتشه .

اما بعد انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء ابعد هيدقر عن التعليم في جامعة فريبورغ لموقفه النازي المعروف . ولم يرفع قرار هذا المنع الا سنة 1951 اذ عاد هيدقر لتدريس ارسطو بجامعة فريبورغ كما واصل جمع كتاباته وتبويبها واصدارها مجموعة في كتب . ففي كتابه الضخم نيتشه جمع هيدقر جميع دروسه وبحوثه التي القاها قبل الحرب . والى شهر ماي من سنة 1976 اي الى تاريخ وفاة الفيلسوف لم تتوقف دور النشر من اصدار مؤلفاته التي تجاوز عددها المائة مجلد . ولا نتوقف ما دامت مخلفات هيدقر لم تخرج بعد كاملة بين ايدي الباحثين . فدراسة هيدقر التي بدأت مع بعض الاساتذة الالمان والفرنسيين ستنشط في السنوات القادمة مع اكتشاف كتابات مجهولة او رسائل منسية في رفوف اصدقائه .

وفي انتظار الاطلاع على البحوث جديدة في فلسفته لنحاول ان نبسط للقراء خطوطها العريضة وبصفة واضحة موجزة .

1 ـ الانسان مشروع وجود في العالم

ينطلق هيدقر من الرأي القائل بأن الانسان هو الموجود الوحيد الذي يواجه مشكلة وجوده ، وهو الموجود الوحيد الذي يحاول ان يجد حلا لمشكلة وجوده في العالم .

« الوجود في العالم » هو الاساس الاول لامكانية الوجود الانساني فبدونه لا يمكن ان نتصور الوجود كما اننا نبعد التصور القائل بوجود حياة اخرى خارج هذا العالم .

الانسان لا يمكنه ان يوجد كامكانية او ان يقال عنه ذلك ان لم يصنع اساس وجوده في العالم . لا حضور للانسان خارج العالم . بهذه الفكرة يبتعد مارتن هيدقر عن التصورات الميثولوجية بالتفسيرات الثيولوجية التي تحاول بافراط في المثالية ان تفسر الوجود الانساني بالاتكاء على اعارات تصورية وخيالية . لا أساس لوجود الانسان غير « وجوده في العالم » . وجوده هكذا ، وبدون قيد او شرط . لتكن هذه الفكرة منطلقا فلسفيا لفهم العلاقة بين وجود الانسان Etre ، ومكانته بالنزول الى المجتمع Etant ، تلك العلاقة التي ما انفك افلاطون ومن سبقه من فلاسفة اليونان توضيحها او على الاقل بسط مشكلتها .

يواصل هيدقر مسيرته الفلسفية ليرى ان الوجود في العالم او Dasein عملية بروز وتجاوز للظلمة الاولية . ففي التجاوز فقط يوجد الانسان كامكانية وجود مفتوحة الى جميع التحولات ، كوعي متفتح الى الوجود والى العالم ، كنور منطلق من ظلمة العدم . فهذا النور ليس من جوهر الاله ، انه نور انساني ، متفجر داخل وعي الانسان ومبشر بانطلاق الوجود كانفتاح الى العالم . فالوعي اذن لا يأتي من الخارج لينصب داخل Dasein ، « فالدازين » وعي في ذاته اي وعي جذري .

2 ـ السقوط خارج الذات

وعي الوجود اذن جوهر الوجود الانساني . لذلك فالانسان هو الموجود الوحيد الذي يقف في الزمن ليتساءل عن الدرجة التي وصل اليها في عملية انطلاقه اي عما حقق في مشروع وجوده . ويكتشف الانسان مجانية وجوده ويشعر وكأنه رمي هكذا من اعلى قمة على الارض ليمارس وجوده هكذا ، لغير شيء . وهذه المجانية هي العائق الوحيد لتحقيق الحرية التامة لدى الانسان . ويسقط الانسان في مهاوي قدره ، وتعزله مجانية الحياة اليومية والملهيات الاجتماعية والقواعد المفروضة عن الولادة داخل الوعي الاصيل لوضعه في الوجود . وهذه الحالة يسميها هيدقر حالة السقوط

Verfallen خارج الذات . يخرج الانسان من حالة الوجود ليصبح مكانة بنزوله في المجتمع .

لنلخص ما سبق : الانسان كائن ــ مشروع ، القي به ، هكذا ، فانحدر خارج الذات داخل الذات الجماعية ، واصبح كائنا موجودا وجب ان يعاد اليه وجوده في العالم كنور جذري .

فالسقوط ليس فرضا لا يمكننا تجاوزه ، انه حالة يمكن للانسان الخلاص من براثنها بمحاولة المراجعة والتذكر الصافي لوضعيته وسلاح الخلاص في متناول الانسان ان استيقظ من غفوته الوجودية ، اي من مكانته في المجتمع . ولكن ، ماذا سيوقظ الانسان ؟

3 ــ القلق خلاص للكيان

« الشعور بالقلق » يجيبنا هيدقر . تلك الحالة التي تواجه الانسان فيضع وجوده موضع التساؤل والتأمل ، ويشعر بالعالم يدوخ حوله والمقاييس تذوب في اصباغها ، تتعرى ، يتعرى الانسان فيكشف عن حقيقة وجوده في العالم . ينظر الانسان الى نفسه وجها لوجه متحملا مسؤولية وجوده كاملة . هذه الحالة لا يمكنها الوصول اليها خارج دائرة القلق . فالقلق اذن هو الشرط الوحيد ليخرج الانسان من بوتقة الاحداث اليومية ولينعتق من شروط الممارسة المجانية لوجوده في الكون .

وفي ممارسته للقلق يقف الانسان على حقيقة الموت ، اي الذوبان في جسد الكون فيرى انه قد اينع داخله كالثمرة الشهية . فالموت ليس ظاهرة خارجية عن الوجود الانسان . انها من جوهر الوجود نفسه وعلى الانسان ان يواجهها في قلق كامكانية لوجوده .

وهذه الفكرة وجدت عند الشاعر الالماني راينر ماريا ريلكه في « مراثي دوينو » حيث استعمل كلمة Dasein نفسها في المرثية السادسة اذ يقول ان الوجود في العالم تأكيد للموت وأن الانسان يحمل الموت في داخله كثمرة يانعة منذ انفتاحه الى الكون .

لنلخص ما سبق : الانسان ليس سوى مشروع متفتح الى امكانية وجوده ، وهو مجانية اي وعي لكونه ملقى هنا ، هكذا ، وبدون سبب معين ، وهو سقوط خارج الذات الى درجة الذوبان في الكيان الجماعي . ولكن الانسان يستطيع ان يعيش وجوده حياة حقيقية بتطهره من شرط السقوط في القلق الجذري .

جميع هذه الحالات تتجمع او تبرز للانسان في حالة انسانية معينة ، يسميها هيدقر حالة البلبلة Sorge ففي هذه الحالة يتساءل الانسان عن وجوده ليوضح ما وصلت اليه امكانيته ويعتريه عندها شعور بالضعف لانه لا يستطيع ان يكون اكثر من امكانية ويبدأ في تذبذبه بين المكانة والذوبان .

يضيف هيدقر انه لا يمكن ان نتصور الانسان كوجود في العالم خارج بوتقة البلبلة . فالبلبلة شرط لانبعاث النور داخل وجود الانسان .

الى هذا الحد يتخذ بحث هيدقر اتجاها جديدا ان ينتقل داخل مشكلية الوجود والمكانة على مساحة جديدة او فضاء جديد للبحث وهو الزمن ، او الزمنية ، اقصد حالة الوجود الزمني للانسان . كيف ذلك ؟

4 ــ الوجود في زمن الولادة الحرة

حالة التشكك تضع الانسان امام وجوده فيرى انه مشروع مفتوح الى الآتي . كما انه يستحيل على الانسان في هذه الحالة ان ينسى انتماءه الى شيء مضى ، الى شيء كان هنا ، ولكنه مضى . تتضح اذن قيمة مفهوم الزمن عند هذا الحد : فالانسان لا يستطيع ان يضع اساس وجوده في الحاضر الآتي . فهو الان نتيجة ماض مضى ليس في امكانه تغييره ولا حتى نسيانه ، وهو ايضا وجود سيتحول مع الآتي .

الانسان اذن وجود في العالم ووجود في الزمن . والزمن ليس سوى الانسان وقد وصل الى درجة قصوى من معرفة كيانه .

لا ينزل الانسان اذن في الزمن كما ينزل داخل عالم خارج عن ذاته بل ان الزمن من جوهر وجوده في العالم ، وهو التجربة الاولية للانسان في محاولة توضيح وضعه البشري .

يتخلص الزمن بالمفهوم الهيدقري من هيمنة التصور التكاملي للحظات فالزمن لم يعد تكدس « لمجموعة من اللحظات المتحدة فاللحظات بالنسبة لهيدقر تتباعد عن بعضها البعض ولكن داخل وحدة عضوية . والازمنة ينعتق بعضها من البعض بصفة حركية وتتباعد ولكنها في تباعدها تتوحد في حالة الولادة الحرة للانسان داخل الوجود اي تفجره في اللحظة الحاضرة .

يرى هيدقر ان الآتي يلعب دورا هاما بالنسبة للماضي والحاضر على عكس سارتر الذي ينتخب الحاضر في كتابه « الوجود والعدم » ان كان وجود الانسان زمني في جوهره ، اي بتعبير آخر تاريخي ، فالتاريخ في مفهومه الاولي كتعبير عن الماضي لا يعني شيئا الا بالنسبة لانسان متفتح الى الآتي . الانسان كما يقول رايمون آرون Raymond Aron في مدخله للفلسفة ينتخب تفسيرا معينا لماضيه وذلك على ضوء الآتي الذي يرتئيه ، او كما يقول هيدقر يختار الانسان ابطال تاريخه على ضوء التحول الذي يتمناه لمشروع وجوده . لا وجود للتاريخ اذن خارج الآتي كامكانية تحول وجودي . وفي تأمله في الآتي كامكانية يجب على الانسان ان لا يبعد امكانية الموت والنهاية . فالنهاية في اصل وجود الانسان في العالم في اصل بدايته .

محمد رضا الكافي

شاعر


هيراقليطس
المفكّر الغامض
دراسة : عزالدّين المدني

لا تصدق من ياتي اليك بنعيه . فهو لم يمت ، ولعله لا يفنى .

امنحني لحظة حتى اصفه لك : هو آدم الطول والجلد ، مصهود الوجه . انظر اليه : بريق الغرباء في عينيه ، شقوق الجوالين في قدميه . رداء الكهان على جسمه النحيل ، لا ينزعه في الصيف ولا في الشتاء .

أعتقد ان هذه الاوصاف التي أتخيلها تقرب شخصه اليك . لكنك تود نبذة عن حياته حتى تطمئن اليه ، وتعرفه اكثر . ليكن في علمك ـ اذن ـ انه ولد في القرن السادس قبل المسيح ، وعلى وجه التحديد سنة 544 ، بمدينة افسوس اشهر المدن الايونية الاثنتي عشرة . ورغم ما يفصل بينكما من القرون والاقطار ، فهو من تراثك بل هو من يومك .

كان جده كبير الكهان . وكـان والـده كبير الكهان . ويقال في الاخبار الاولى انه تولى ـ هو ايضا ـ منصب كبير الكهان . لكن ، تنازل عنه فجأة لاخيه .

انت تتصور ـ دون شك ـ ان هذا الرجل غريب السلوك ، وإلا ، فكيف نفهم تنازله عن الكهانة الكبرى ؟ فلا بد ان لذلك سببا ... رآه الناس يقبل على الجموع في البطاح المستديرة . فيصرخ فيها بالعبر والامثال ، والاسجاع ، والاشعار ، ويعير حكماءها ، ويحتقر علماءها ، ويستنفرها الى التغيير . رآه آخرون ايضا معجبا بنفسه . أنانيا ، بطرا ، ناشزا عن النواميس ، والعادت ، والسلـطة ، والـكهانة ، والحكمة ، والناس أجمعين .

ثم لقبوه بالمفكر الغامض . لماذا ؟ آلانه يزعجهم بكلمة « تغيير ؟ » آلانه يلقي كلامه ايجازا ورمزا لا يدركه الا القليل واقل من القليل ؟ آلان المفكرين راموا تصنيفه تحت شعار ما ، وفي زمن ما ، وفي بلاد ما ؟ والمسكين ... لم يتصنف ! ألم اقل لك من قبل : لا تصدق من ياتي اليك بنعيه . الان كلامه المختزل يؤول الـف تأويل ، ولا يقف احد على التأويل الصحيح ؟ آلان المفكرين الذين اخترعوا القوالب ، والمفكرين الـذين تقولبوا في القوالـب يرفضونه ويطرحونه من حسابهم بحجة الغموض او بحجة انه لا يدخل في قوالبهم ؟ لكنه نفر منهم جميعا ، وظل وحيدا . السبب في وحدته انه يدعو الى التغيير المستمر ، ذاك التغيير الذي ينفي الثبات في الواقع والدنيا والكون .

قد تسائلني : لم أنا أعود الى هذا المفكر الاغريقي الذي سبق سقراط ؟ أرى في عينيك هذا السؤال . اجيبك صراحة : انه من اصدقائي الكثيرين الذين عاشرتهم طويلا . كما لك انت اصدقاء . وهل صحيح ما بلغني عنك ؟ انك مدمن على قراءة ارنست بلـوك ، بعد مطالعتك انا كسيماندر ، واشتغالك بابي نصر الفارابي ؟ !

انت تدرك جيدا ان اجيال هذه الدنيا تطمح الى التصوف ، وتتوق الى الهندسة ، وتسمو نحو الفضاء الكوني ، لا سيما في هذه الايام . كما تدرك ان هيراقليطس هو من اوائل المفكرين الذين طرحوا سؤالهم المحرق على الكون ، يوم كان الكون بوارا ، ويوم كان الانسان عاريا من كل تجربة ، ويوم كان هيراقليطس يجسم التوق الاول للانسان .

وانت تعلم ـ دون شك ـ ان مفكرين من امثال هيدقر ، وبول نيزان ، وبوليتزار، واكسيلوس في مطلع هذا القرن واواسطه قد عادوا الى المفكرين الـذين سبقوا سقراط ، كصاحبنا هيراقليطس ، وامبيدوكل . وبرمينيدس ، ليستخرجوا منهم زادهم الحديث . لكني اسالك : علام قامت موضة اليوم في فرنسا تهتم بابيقور وبفلسفته وبمن درسه ودرسها قديما وحديثا ؟ فقد صدر منذ شهر كتابان الاول : من تاليف جان بولاك عنوانه « تفكـير الـلـذة . نصوص اخلاقية من ابيقور » . (676 ص) والثاني : من تاليف روديس عنوانه « ابيقور ومدرسته » (416 ص) .

لا شك ان هذين الكتابين ينفعانك جدا . لا سيما وانت دارس الفلسفة الاغريقية دراسة المحبة والعثرة والتوق لا دراسة القوالب ...

وفي ختام هذه الرسالة ،اود ان اهديك بعض شذرات من « كتاب الكون » لهيراقليطس . لقد ترجمتها خصيصا لك . واعتبر ترجمتي هذه ، تأويلا من بين التاويل الكثيرة التي خصت فكر هيراقليطس .

* *

ـ الشمس عريضة مثل قدم الانسان !

ـ اذا كانت السعادة متعة جسمية ، فاننا نقول اذن ان البقر يكون سعيدا عندما يجد الحمص ليكون طعاما له .

ـ لطالما سعوا دون جدوى الى تطهير انفسهم بالتلوث بالدم ، كما لو اراد انسان الاغتسال بالوحل بعد وقوعه في حوض من الوحل .

ـ تتجدد الشمس كل نهار . وهي لا تنفك تتجدد في خلود . (او : هي لا تنفك تتأبد في تجدد)

ـ الشمس جديدة كل نهار ، لانها تشارك في سلطان ديونيزوس .

– اذا صارت جميع الاشياء دخانا ، فاننا سنعرفها بأنوفنا .

– تتلاءم المتناقضات ، ويخلق النشاز اجمل الانسجام ، إذ المصير بأسره نضال .

– النضال هو والد جميع الاشياء وملكها الاعلى .

– لكم أنب هيراقليطس هوميروس الذي قال : « لينتفي الخصام بين الآلهة والبشر » لان كل شيء يفنى .

– تباين اللذات عند الحصان ، والكلب ، والانسان . فالاحمرة مثلا تؤثر التبن على الذهب ، لان طعامها اطيب لها من الذهب .

– ائتلافات بين الكل واللاكل ، بين القريب والنائي ، بين الانسجام وضده . يولد الواحد من كل شيء . وتولد جميع الاشياء من الواحد .

– الحيوانات هي ايضا ، الوحشية او الداجنة ، التي تطير كالتي تعيش على الارض او في الماء ، تولد وتنمو وتموت وفقا للنواميس الالاهية التي تحكمها . وهكذا ، فان كل ما(من ؟) يزحف على الارض هو خاضع للضرب .

– الذين ينزلون نفس الانهار يستحمون في مجرى ماء جديد دوما . والارواح هي نفسها مفرزة من الرطوبة .

– لا يجدر بالانسان – من غير العوام – ان يكون قذرا ، ان يتلطخ ، وان يتلذذ في الصرب . الخنازير تؤثر الصرب على الماء الصافي .

– لمن يتنبأ هيراقليطس ؟ « انه يتنبأ للمتسكعين في الليل ، للابدال ، للذين مسهم الجن ، لسادنات الالاه ديونيزوس (1) ، لذوي الالهام » انه يتوعدهم بالآخرة . انه يتنبأ لهم بالنار (2) لانهم علموا انفسهم بانفسهم – دون تدين – الاسرار التي يعترف بها البشر .

– يا بشر ، انتم تفهمون وتتكلمون دون معرفة !

– عندما يولدون ، فانهم يبتغون العيش ، ثم الموت ، او بالاحرى يبتغون ايجاد الراحة ، ويتركون اطفالا سيقاسمونهم نفس المصير .

– ميت هو عالم احساساتنا اليقظة ، ان الذي نحسه اثناء الرقاد هو النوم .

1) او للنساء المغرورات (بمعنى اخر وتأويل اخر)
2) النار بمعنى احد عناصر الطبيعة لا بالمفهوم الاسلامي

– المنقبون عن الذهب يحفرون كثيرا ويجدون قليلا .

– تترقب البشر اشياء بعد الموت ، انهم لا ينتظرونها ولا حتى يتخيلونها

– البحر هو اول تغير للنار . نصف البحر يصير ارضا ، ونصفه الآخر سحابا متقدا .

– يذوب البحر ، وطبقا لنفس القانون ، تتوزع كثافته بمقدار معلوم ، كما كان ذلك قبل ان يصير ارضا يابسة .

– الواحد وحده هو الحكمة . هو يتألم ولا يتألم من حمل اسم زوس المنعش .

– انه قانون الطاعة ايضا لارادة واحدة .

– تطابق بين النضال وزوس .

– الذين لا يدركون ما يسمعون يشبهون الصم . فبسببهم برر هذا المثل السائر : « حاضرون فهم غائبون »

– يجب على فلاسفة الطبيعة ان يستكشفوا ميدانا واسعا جدا .

– تغتسل الخنازير في الزبلة ، وتغتسل الطيور الدواجن في الغبار او الرماد .

– يشهد هيراقليطس بان طاليس كان اول منجم .

– يزعم هيراقليطس ان هوميروس كان يعرف ايضا قوانين الاجرام السماوية .

– لا نعلم المعرفة المتعددة الحكمة . والا لقنتها لهيزيود ، وفيثاغورس ، وكسينوفانس ايضا ، وهيكاتي .

– لا وجود الا لحكمة واحدة : وهي معرفة الفكر الذي يقود الاشياء من خلال كل شيء .

– قد يستحق هوميروس طرده من الالعاب العمومية وجلده . وكذلك أرشيلوك .

– يجب على الشعب ان يناضل في سبيل قانونه كما يذود عن اسوار مدينته .

– لن تستطيع بلوغ تخوم الروح مهما قادتك قدماك على جميع الدروب وعلى ابعد مسافة ممكنة : فلكم هي عميقة الكلمة التي تسكن الروح .

– لا نؤول الظواهر الجوهرية حسب الصدف .

– انسان واحد يساوي عندي عشرة آلاف

انسان اذا كان له نبل اكثر .

ـ نحن ندخل ونحن لا ندخل في نفس الانهار . نحن نكون ونحن لا نكون .

ـ الكل واحد ، مجزأ وغير مجزىء ، مخلوق وغير مخلوق ، فان وخالد ، كلام وخلود ، والد ومولود ، الاه وبشر . ليست هذه بكلماتي ، بل انكم تسمعون الفكر . اذن ، من الحكمة الاعتراف بان الكل واحد .

ـ الدنيا انسجام من التوترات ، تتشنج تارة ، وترتخي طورا ، كانسجام القيثارة والقوس .

ـ زمن حياتنا صبي يلعب ويدفع البيادق . انه ملوكية صبي .

ـ النضال والد كل شيء ومليكه . فهو ينجب بعضهم كالآلهة ، والبعض الآخر كالبشر . ويجعل البعض عبيدا ، والبعض الآخر احرارا .

ـ الانسجام الخافي يتجاوز الانسجام الظاهر .

ـ افضل كل ما يتصل بالبصر ، وبالاذن ، وبالمعرفة .

ـ لا يختلف الظل مع النور ، ولا الشر مع الخير . فطبيعتهما واحدة ومتطابقة .

ـ هيزيود هو سيد اغلب الناس . انهم يتخيلون انه كان يملك اكبر المعرفة ، وهو الذي لم يكن يعرف الليل ولا النهار . ذلك انهما متطابقان .

ـ الخير والشر واحد . فالاطباء الـذين يجرحون لحوم المرضى ، ويحرقون جل اجسامهم ، ويعذبونهم شر تعذيب ، يطالبونهم بالاجر بغير عدل ، اذ ان نجاعة الدواء تؤثر في اجسام المرضى تاثيرا مؤلما كالداء .

ـ اليد التي تكتب تسير في خط مستقيم وفي خط لولبي . فطريقهما واحد وهو نفس الطريق .

ـ الطريق الذي يصعد وينزل هو واحد وهو نفس الطريق .

ـ يحوي البحر اصفى المياه واعفنها . فبالنسبة للسمك فانه يشرب مياه البحر ويحيا بها ، وبالنسبة للبشر ، فانهم لا يشربون مياه البحر وتقتلهم .

ـ لنحيا من الموت ولنمت من الحياة .

ـ اولئك خالـدون فانون ، هؤلاء فانون خالـدون . انهم يحيون من موت اولئك ، ويموتون من حياة هؤلاء .

ـ الصاعقة تقود الكون !

ـ اسمي الصاعقة شبعا وقحطا . الشبع هو العالم المخلوق طبقا لقانونه . القحط هو النار التي تأتي عليه .

ـ ستحكم النار باضطرامها المـطرد ، وستلتهم كل شيء .

ـ الله نهار وليل ، شتاء وصيف ، حرب وسلم ، خير عميم ، ومجاعة . فهو يتغير كالنار الممزوجة بالبهارات .

ـ معتقدات البشر هي زهو الصبيان .

ـ ينبغي ايضا ان نتذكر من ينسى الى اية غاية يؤدي الطريق .

ـ يجب ان نعرف ان الكون نضال ، ان العدل نزاع ، ان المصير بأسره يتحكم فيه الخصام .

ـ ايها البلغاء : انتم المسلحون بالكلمات الكاذبة .

ـ ان اجمل قرد هو قبيح ، قارنه بالانسان !

ـ ان الانسان الارجح عقلا اذا قورن بالحكمة ، وبالجمال ، وبجميع الفضائل ، وبالصفات الالاهية يبدو قردا .

ـ عندما تتغير النار ، فهي تستريح ، اذ يكون من التعب والالم ان يخدم خادم اسيادا لا يتغيرون .

ـ الحياة والموت هما نفس الشيء ، كذلك اليقظة والنوم ، والشباب والشيخوخة . لانها متحولات متبادلة .

ـ للناس في حال اليقظة دنيا واحدة ، وهي مشتركة بينهم . وفي حال النوم ، كل منهم يعود الى دنياه .

ـ لزوس النور ، ولهاديس الظلمات . لكن الظلمات تنتقل فتريا الى منزل زوس وتثير دورة التحولات .

ـ النار تقود كل شيء عبر الكل دون ان تترك الكون ثابتا .

ـ بحثت عن نفسي بنفسي .

ـ العيون اصدق شهود من الآذان .

ـ بالنسبة للالاهي ، كل شيء جمال ، وفضيلة ، وعدل . لكن البشر هم الذين تصوروا الانصاف والظلم .

ـ في الدائرة يتطابق البدء والنهاية

ـ ما كان فكرهم وعقلهم ؟ انهم يمتثلون للذين يغنون في مفترق الطرقات ، وللذين يتخذون جماعات الناس دليلا لهم ، دون ان يعرفوا ان الكثرة متعفنة ، وان قلة من البشر فاضلة .

ـ كائن كل يوم واحد ! عيب على هيزيود الذي كان يجهل ذلك .

ـ كل يوم يشبه كل يوم آخر .

ـ من بين الخطباء الذين استمعت اليهم . لم يدرك واحد منهم ان الحكمة منفصلة عن كل شيء .

ـ خير للانسان ان يخفي جهله من ان يعلنه .

ـ الفكر كوني .

ـ النور الجاف يخلق اجود الارواح واغزرها حكمة .

ـ الطبيعة تحب الاختفاء .

ـ البرد يسخن ، الحرارة تثلج ، الرطوبة تجف ، الجفاف يندى .

ـ ليس للانسان عقل . بل للوسيط المحيط عقل .

ـ الانسان محروم بصفة طبيعية من العقل .

ـ لا تضحك الناس حتى تصير اضحوكتهم .

ـ سمات الشرف تستعبد الالهة والبشر .

ـ الثقافة شمس اخرى للمتعلمين .

ـ الفضيلة اقصر طريق نحو المجد .

ـ الدنيا ملأى بالارواح والعباقرة .

ـ ادخلوا بثقة ، لان الالهة هاهنا ايضا حاضرة .

ـ النفوس التي قتلت في المعركة هي اطهر من النفوس التي افناها المرض ■

الرمال على الجنوب

شعر : سوف عبيد

الشمس في الجنوب تطلع من الرمل
تسقيه كل صباح من خمرته
وفي الجنوب بنت صحراوية العينين
فيهما نبعان
تخرج كل صباح الى الصحراء تحلم زمنا على الرمل
خفيف لمس خطواتها على الرمل
لذيذة ساعة الحلم
افاقت على الشمس تضربها على وجنتها
تغرس اشعتها في عينيها
نحتها بيديها
وتربعت على كثيب تبكي على الرمل
فيبكي معها الجنوب
يبكي تحت الشمس !

زياتين الساحل تتمدد على البحر ...
....
الشمس في الجنوب تطلع من الرمل
تسقيه كل صباح من حمرته
وفي الجنوب ولد اسمر الجبين عليه تنعكس الشمس
يخرج كل صباح الى الصحراء يجري مع الغزلان
يسرح عينيه نحو انهمار ازرق السماء على احمر الرمل
ينتظر قوافل البدو
يستربع على الرمل يلهو بالرمل والرمل يزحف
يزحف على الجنوب
يزحف تحت الشمس

سنابل الشمال تتمايل مع النسيم
....
الشمس في الجنوب تطلع من الرمل
تسقيه كل صباح من ثمرته
وفي الجنوب عيون دائمة الحزن
دائمة الانتظار
تنبع كل شروق شمس
تنضب كل غروب شمس
لو رايتم عيون الجنوب
كيف تنوب
اذ تسقط الشمس في الرمل
نوار العشية يبدا التفتح
....

سوف عبيد

من تاريخ الديبلوماسية في تونس

بحث : محمود بو علي

مما لا شك فيه هو الفقر الذي يلاحظ في المكتبة التونسية او كما يقال في البيبليوغرافيا التونسية من حيث التآليف الخاصة بالمواضيع الدبلوماسية المرتكزة على الأحداث التي تهم ماضينا وحاضرنا والتي تحمل في معطياتها العناصر القارة الأساسية الكاشفة عن مستقبلنا .

وهذا الفقر المؤسف له سببان اثنان :

أولهما : هي مجموعة العراقيل المجحفة التي كانت تصادم وتعارض الباحث التونسي في هذا الميدان الحيوي ازاء مصير كل الدول وقد حرصت كل مؤسسة من مؤسسات الحماية على ان لا يتفطن الانسان التونسي بهذا العلم وان لا يكتشف بممارسة مواده على اسرار دواليب العلائق الدولية هذا لضمان ابقاء الحواجز المانعة دون اتصاله كفرد من رعية الباي المحمية بالعالم الدبلوماسي خوفا من ادراكه بمسالك من شانها تثير طموحه الى التحرر وبانوار تضيء حتما سبلا موصلة نحو الخروج الى عالم الحوار والتفاهم والوئام الدولي في كنف المساواة بين الأمم .

وثانيهما : هو ما بقي في الأذهان من بقايا بذور عقلية المحمي الذي تسيطرت عليه عقد الاستنقاص وهو طبعا هكذا لا يمكنه ان يتصور ان ماضي بلاده (كماضي الدولة التي استعمرت بلاده وانطلقت عنه بعد حين) هو ماض مجيد وشهير وعريق يزخر بالثورات من حيث مواد هذا التاريخ الدبلوماسي وقد كانت بالخصوص وبدون شك تونسنا العزيزة في طليعة البلدان التي سجل نشاطها الدبلوماسي الى الأبد منذ خمسة وعشرين قرنا .

وهذه الفترة الزمانية العظيمة المدى خاصة عندما يقارنها المرء بما هو ينعت عند العديد من الأمم بالماضي الطويل هي في نظر ثلة متفتحة من المؤرخين قد استهلت من قبل بقرون .

صورة فوتوغرافية للخاتم الكبير الاحمر والمسك بالحاشية الحريرية الحمراء والخضرا المختومة به الوثيقة الموقع عليها في 22 نوفمبر 1270 بين تونس وفرنسا .

والحجة عند هؤلاء المؤرخين تتجسم في تلك الاتصالات العتيقة والمستمرة والنشيطة التي كانت تقع على شواطئنا وفي تخوم قطرنا والتي لم يتم احصاءها الى اليوم وقد ابرمت ببلادنا او شملته بنودها وذلك منذ غابر العصور الى سنة 509 قبل المسيح وهو تاريخ اول وثيقة دبلوماسية بلغنا نصها الحرفي وقد كانت موقعة من طرف قرطاج وروما لغاية واضحة معلنا عليها رسميا وترمي تلك الوثيقة الى تقسيم النفوذ البحري والعظمة الدولية بين العملاقين وهما آنذاك يتمتعان بنعومة اظفارهما ولكنهما كل واحد من جهته ينتظر الفرصة السانحة فرصة الدهر التي بفضلها اما تصبح قرطاج تبارك توحيد ضفتي البحر الأبيض المتوسط وما بينهما في كنف العمل المثمر والازدهار التجاري والسلم الشاملة للرفاهية ومتعة الحياة واما تغدو فيه روما وهي سيدة العالم العتيق وقد تملكت بكل اصول ثروته وهذا بعدما استعبدت شعوبه باستعمال انجع هياكل عسكرية عرفها التاريخ في ذاك الوقت لا من حيث العدد بل من حيث التنظيم المحكم والعقلية النادرة المتجسمة في الروح النضالية التي ليس يوجد فيها مكان للشفقة ولا للرحمة .

اذا فلا يتردد هؤلاء المؤرخون مثلا عن ذكر الاتفاق المعروف المبرم في سنة 814 قبل المسيح بين عليسة وأحد ملوك البربر بكونه اول معاهدة دولية سجلت في تاريخ قرطاج وقد سبق هذا الحدث حتى بناء العاصمة الافريقية وهؤلاء المؤرخون يرددون ما يشعر به كل واحد منهم من اعجاب بخصال الطرفين لما يبرهن عليه سلوكهما من سامي المستوى الدولي وخالص احترام للعهود الدبلوماسية في احقاب تاريخية ما زالت تسودها الوحشية البدائية والروح الوثنية والخضوع لغرائز العنف خاصة بين الأجانب .

ومن سنة تاسيس العاصمة الافريقية الخالدة الذكر الى اسبوع تحطيمها وذلك عند انتصار الهيمنة الرومانية عليها اي من عام 814 الى عام 146 قبل المسيح امتازت الدبلوماسية القرطاجنية بنوعية وحيوية واغراض سلمية واسعة النطاق خاصة بفضل الاضافة التدريجية التي حصلت لها عبر القرون بازدياد النشاطات المرتبطة اولا بوضعية وسلوك الأجانب المستقرين تحت نفوذها وثانيا بالعلائق الاقتصادية والبشرية القائمة مع الخارج سواء كانت عبر البحر او عبر الصحراء وزد على هذا كله المعاهدات التي يمكن اثباتها ودرس ما بقي من نصوصها ثم تسليط الأضواء على كل الظروف التي سادت على ابرامها مع العديد من دول العالم العتيق وهناك مجال سيصبح فتحه شيئا فشيئا متيسرا هو ما كان بقرطاج من هياكل ساهرة على سياستها الخارجية . وان وجدنا الكثير من المثقفين

على علم بهزيمة حنبعل بزامة في اكتوبر 202 قبل المسيح فانه من العسير ان نلتقي بمن يزودنا بمعلومات عن مخطط هذا القائد العبقري ذاك المخطط العظيم الرامي لمحق السيادة الرومانية الشاملة والغاشمة من كل الأقطار المغلوبة على امرها والذي لم ينفك في تركيزه عبر بلدان الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط عشر سنين من سنة 202 الى سنة 193 قبل المسيح أي حتى اللحظة التي ختمت فيها انفاسه .

وفي الأثناء أي مع تسلسل الحرب البونيقية الثانية أي من قبل رجوع حنبعل الى مسقط رأسه ببعض السنين ابتدأت اتصالات روما بالملوك والأمراء وحتى مشائخ القبائل البرابرة وكانت ترمي تلك الاتصالات العلنية طارة والسرية في اكثر الأطوار الى انتصاب شبكة من الأحلاف تمكن الغزاة اعداء قرطاج من اثارة التعلات المنشودة لتفتح بسببها المناوشات ضد العاصمة المزدهرة والمسالمة الافريقية .

فهذه السياسة التي دامت الى نهاية عهد يوبا الثاني والتي هي نوع من الدبلوماسية المتجهة الأطراف المستضعفة لها من خصائص التلاعب ، ومواقف الدهاء وألوان الأسرار الخفية ودرجات الاغراء ما يستحيل تلخيصه في اقل من مجلد ضخم .

اذا فاحتجاب افريقية الدبلوماسية لم يكتب له الدوام الا من اواسط القرن الأول بعد المسيح الى غرة اكتوبر 439 يوم دخول جنسريك امبراطور الوندال الى قرطاج فكان هذا الحدث هو بالذات تدشين فترة عجيبة من تاريخ البلاد حيث اصبح ذلك القوم الدخيل يشتبه تدريجيا بالسكان الأصليين الى ان تجسمت فيه ردود الفعل التقليدية الأصلية ضد رومة سواء في الميدان الدبلوماسي او في العمليات الحربية بفضل مشاركة البرابرة الفعالة .

ومن ناحية اخرى كان هذا العهد يمتاز بسياسة لينة نحو الأفارقة مما جعله أهون بكثير عما سلفه تحت الهيمنة البيزنطية والذي اصبحت فيه الحرب وحدها ولا الدبلوماسية تسود العلائق بين الغزاة وابناء البلاد الذين اظهروا من روح المقاومة ما جعلهم في مستوى رجال يوغرطة بطل القرن الأول من تاريخ الاستعمار الروماني بافريقية ... حتى جاء الاسلام !

وان كان دخول البربر في الاسلام وقع تلقائيا وبكل ابتهاج فردا فردا بل ايضا افواجا وهي حقيقة تاريخية لا منازع فيها فان اطوار تشييد ولاية ثم دولة اسلامية بافريقية ما زالت تنتظر الباحثين خاصة وقد تعددت الآن المراجع التي تفيد بان كل المؤامرات والانتفاضات والحروب الداخلية التي سالت بسببها دماء الأفارقة والعرب كانت في الواقع كالتي سبقتها في عهود ما قبل الاسلام تجري لا على مستوى العقيدة

الدينية بل كانت اهدافها تنحصر في الحصول على السيادة السياسية بافتكاك دواليب النفوذ ، يتصادم اثناءها الفاتحون وابناء البلاد والفاتحون بين بعضهم بعض وايضا ابناء البلاد بين بعضهم بعض باسم الدين في غالب الأحيان ولكن في غيابات الضمير كان الهدف المنتظر هو الانتصار السياسي . وعند مستهل العهد الأغلبي اصبحت بلادنا اول دولة اسلامية عرفها التاريخ تتمتع بالاستقلال الذاتي وتنتهج سياسة خارجية خاصة جعلتها ابتداء من سنة 801 ميلادية تقوم مقام همزة الوصل بين العالم الاسلامي والعالم المسيحي اي بين الشرق والغرب وبين اوروبا والعالم العربي أو كما يقال اليوم بين الشمال والجنوب . فهكذا صارت تمر بافريقية البعثات الدبلوماسية ذهابا وايابا التي كانت تتبادلها الخلافة العباسية مع شارل العظيم كما كانت مع هذه السفارات شخصيات من بلادنا تلعب دور المعين او الدليل او الخبير في ذلك الميدان الدقيق التي ما زالت فيه التقاليد آنذاك تسترجع ما كانت عليه قبل انهيار الحضارات العتيقة .

اما في العهدين الفاطمي والصنهاجي فان الدبلوماسية الافريقية اتخذت أثناءهما مواقف تحررية نادرة حيث شاهد المعاصرون جيوشا اسلامية تركب البحار وهي آتية من المهدية قصد تعزيز المقاومة الايطالية المسيحية ضد الاحتلال الألماني كما شهد المعاصرون استشهاد عدد كبير من هؤلاء الأبطال في سبيل نصرة الحق والسلم وشاهدوا ايضا رجوع اخوانهم رافعي الرأس الى افريقية بعد انهزام قوات اوطون الثالث الجرماني تحت هجوماتهم التي سبقت باكثر من الف سنة زحف التونسيين الخالد الذكر على جبال كسينو .

اما القرن الحادي عشر بعد المسيح ففيه انشأت بتونس الدولة الخراسانية التي فتحت المجال للعلاقات التجارية بين العاصمة ومدن ايطالية مثل بيز وفلورونس أو فرنسية كمرسيلية وكانت المخاطبات تقع في غاية من الاحترام المتبادل والاخلاص والمودة كما خصصت

فنادق شاسعة لاسكان الأجانب ولتقديم البضائع الواردة من بلدانهم . وقبل ان يعرف في البلدان الأخرى ظهر في بلادنا ما يسمى بالقانون الدولي الخاص وبحقوق الأجانب الذين كان لهم من الضمانات فيما يخص الحياة والمال والمكاسب والعرض الممنوحة لهم من طرف السلطات التونسية بغاية الاكرام ما لا يجدونه آنذاك في أي قطر من اقطار اوروبا وكان السبب الأصلي لهذه المجموعة النادرة من الامتيازات التي كانت تدعم طمأنينة الزائر والتاجر الأجنبي والعابر السبيل هي مستنتجة بصفة مباشرة من التقاليد العربية والتعاليم الاسلامية المنبثقة من **حلف الفضول** الخالد الذكر .

وقد كان ابرام هذا الحلف في مكة قبل النزول ببضع سنين في الظروف الآتي ذكرها :

فقبل ظهور الاسلام بقليل نادى تاجر اجنبي في مكة يشكو العاص بن وائل من زعماء قريش اذ لم يؤد اليه ثمن بضاعة اشتراها منه فقال :

بالقصي لمظلم بضاعته
ببطن مكة نائي الدار والنفر

ففزع لذلك قوم من العرب يقدسون الحق وتحالف من اجل ذلك بنو هاشم والمطلب وبنو زهرة بن كلاب واسد ابن عبد العزى وتيم بن مرة على ان يكونوا في عون كل مظلوم ونصرته وسمي ذلك الحلف **بحلف الفضول** وقد حضره محمد رسول الله شابا فلما جاء الاسلام بعد ذلك اقره النبي وشهد انه لو دعي اليه في الاسلام لأجاب .

والجدير بالذكر في هذه المناسبة ان **حلف الفضول** قد عقد لحماية زائري مكة والحج اليها قبل الاسلام وبعد النزول فكان عملا دبلوماسيا لتنظيم عقد هذا المؤتمر السنوي العظيم وتأمين وصول الغرباء والأجانب من ابناء القبائل ثم الأقطار النائية اليها والحياة فيها حتى لا تتملكهم نزعات الخوف من عداء بعضهم لبعض بل تتغلب المصالح المتبادلة على الحدود الضيقة التي عاشت في نطاقها القبائل والأمم فرادى فينمو المجتمع العربي ثم الاسلامي وختاما يتطور المجتمع البشري كله ويسير بخطى ثابتة نحو التضامن والتكافل والازدهار والأخوة المنشودة .

فالعهد الحفصي الذي دام قرونا . القرون الظلماء الأوروبية . العهد الحفصي الذي استقبلت فيه تونس العديد من السفراء ابرمت اثناءه عشرات الاتفاقيات والمعاهدات والوثائق الدبلوماسية التي تتميز بسماحة لا مثيل لها في اي سجل من سجلات تاريخ دبلوماسية الأطراف المقابلة ولهذا نرى اليوم بكل استغراب ما حصلت ببلادنا من كوارث مدة قرون لأن حكامها لم يطلبوا ولم يثابروا في طلب نفس الحقوق التي كانوا يتكرمون بها بكل سهولة لتكون هي ايضا كسبا مقدسا لرعاياهم ولدولهم في نظر الأطراف المقابلة .

وهكذا يصبح مثلا انتصار المستنصر بالله على صليبية لويز التاسع انهزاما دبلوماسيا لأن هذا السلطان سلك سلوك « **نفس مؤمنة** » عندما تفاوض مع الدبلوماسيين المحنكين الذين كانوا يعرفون كيفية الحصول على اهداف الحرب بالدبلوماسية حتى بعد الخيبة في ساحة الوغى واحسن من كل تعليق لنتامل نص المعاهدة التي تم التوقيع عليها بضعة اشهر بعد موت لويز التاسع اي في 22 نوفمبر 1270 والتي هي اقدم وثيقة دبلوماسية ابرمت بتونس وبقيت بحذافرها الى اليوم وهي محفوظة في دار الوثائق القومية الفرنسية بباريس تحت عدد ج 297 رقم 1 .

وهذه الوثيقة الدبلوماسية المختومة منذ سبعة قرون تبرهن عن دخول تونس منذ العهد الوسيط في طور المعاهدات غير متساوية والالتزامات المجحفة والهفوات الدولية البالغة الخطورة لأنها اعتبرت سوابق مقدسة وهي سوابق قاتلة للسيادة الخارجية والداخلية الأمر الذي جعل البلاد فيما بعد أثناء وجودها تحت الهيمنة العثمانية تتجرع مرارة سياسة الفرقاطة والايهانات المتنوعة التي تسلط على الدول الضعيفة لاجبارها تحت افواه المدافع على امضاء معاهدات الصداقة وهي مطالبة هكذا بالقوة لاعطاء اكثر فاكثر من الامتيازات التي وهبتها سابقا في مدة عظمتها بتلقائية اكرام المسلم للضيف والزائر والغريب والشهامة العربية .

واستمرت هذه الحالة المريعة تدريجيا الى سقوط تونس تحت الحماية الأجنبية سنة 1881 واضمحلال بقايا سيادتها الخارجية حتى ليلة توقيع الاتفاقية الفرنسية التونسية سنة 1955 تلك اليوم الذي اصبحت فيه تونس من جديد تنتظر حياة دبلوماسية حقيقية بين كافة دول العالم .

(للمقال بقية)

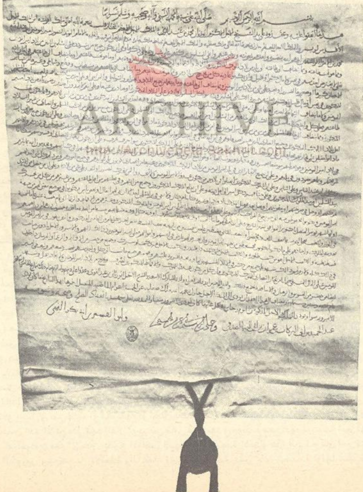
محمود بوعلي
مؤرخ تونسي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم تسليما

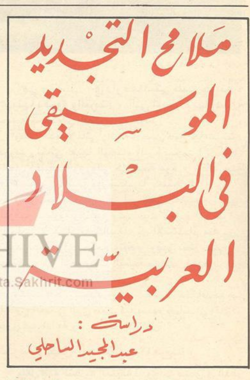
★ هذا ما اتفقوا عليه وعقدوه على يد الشيخ الأجل الأكرم ابو زيان محمد بن عبد القوي ★ الملك الأجل المعظم المختار فليب بنعمة الله تعالى ملك افرنسه ابن الملك الأجل الأقدس لويس والملك الأجل المعظم جارل بنعمة الله تعالى ملك صقليه والملك الأجل المعظم تيبلط ملك نفاره امدهم الله تعالى لتوفيقه والخليفة الامام المويد المنصور امير المومنين ابو عبد الله محمد بن الأمراء الراشدين ايدهم الله بنصره وامدهم لمعونته ورضي عنهم وابقى للمسلمين بركتهم على شروط ياتي ذكرها وهي ان يكون جميع من يتردد من المسلمين الذين من بلاد امير المومنين ومما هو تحت طاعته ومما ينضاف الى طاعته الى بلد من بلاد الملوك المذكورين والاقماط والزعماء او الى جزيرة من الجزاير المعروفة بهم او ما هو تحت طاعتهم او ما ينضاف الى طاعتهم في امان الله تعالى لا يعترض احد منهم في نفس ولا مال كثير او قليل وان يكفوا عادية كل من يخرج من بلادهم ومما هو تحت طاعتهم وما ينضاف الى طاعتهم من مسطحات وقطع وشياطي وغيرها من ساير الأجفان كبيرها او صغيرها لضرر او تعد على شيء من بلاد امير المومنين ومما ينضاف الى طاعته وما بينهما من جميع البلاد والجزاير والسواحل والمراسي او على احد من سكانيها فمتى اصيب احد من المسلمين المذكورين في نفس او مال قليل او كثير فعليهم جبر ذلك على المسلمين ورده سوا كان المسلمون واردين على البلاد المذكورة او صادرين عنها وعلى انهم لا يمدون احدا يريد ضرر بلد من بلاد امير المومنين ولا ما ينضاف اليها ولا احد من اهلها وعلى انه متى انكسر لأحد من المسلمين المذكورين جفن او جفن للنصارى وفيه احد من المسلمين المذكورين في مرسى من مراسي بلادهم وفيما يكون تحت طاعتهم فعلى كل واحد منهم حفظ ما يصل من ذلك الى بر طاعتهم من المسلمين او من اموالهم ورد جميع ذلك الى المسلمين وعلى ان يكون جميع من يحل من مراكب المسلمين والنصارى من غير البلاد المذكورة ومما ينضاف الى طاعة المسلمين في مرسى من مراسي امير المومنين في امن مثل امن اهل البلاد المذكورة ما داموا في المرسى المذكور او مقلعين واردين او صادرين وعلى ان يكون جميع من يصل من تجار اهل بلاد الملوك المذكورين وجميع النصارى الذين هم اصدقاؤهم في امن الله تعالى في انفسهم واموالهم على المعهود المتعارف فيما لهم وعليهم من بيوعهم واشريتهم محفوظين في ترددهم واقامتهم ما داموا مقبلين على تجارتهم محافظين على ربوط هذا الصلح ويكون لهم من الشروط مثل ما اشترط على الملوك المذكورين سوا حرف بحرف وعلى ان يكون رهبان النصارى او قسوسهم سكانا في بلاد امير المومنين وهو يعطيهم موضعا يعمرون فيه دياره وبيوت الصلاة ومواضع لدفن موتاهم والرهبان والقسوس المذكورون يعظون ويصلون مجهرا في كنايسهم ويخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معودون في بلدهم وعلى ان جميع التجار الذين في بلد امير المومنين من بلاد الملوك المذكورين وغيرها من النصارى يكونون على عوايدهم في جميع امورهم ويرد لهم كل شيء اخذ لهم وكل شيء لهم عند الناس وعلى الناس وعلى ان الملوك المذكورين لا يقبلوا في بلادهم من يكون عدوا لأمير المومنين ولا ينجدوا لمن يتحرك لضرر او لتعد على شيء من بلاده وعلى ان من حصل من الأسرى ببلد المسلمين او بيد الملوك المذكورين وبقي حيا فيرد كل اسير الى اهل دينه وعلى ان يقلع الملوك المذكورين وجميع من اليهم وفي محلتهم من اهل طاعتهم ومن غيرهم من كل من تحرك بحركتهم او وصل في صرختهم او معونتهم او يصل بعدهم مثل الملك ادورد او غيره كاينا من كان ولا يبقى في بر المسلمين احد الا ان بقى لهم اثقال او بعض ناس فيكونوا في موضع معين لهم من جهة امير المومنين ويكونوا محفوظين منه الى حين رجوع المراكب اليهم وعلى ان مدة انعقاد هذا الصلح بين امير المومنين والملوك المذكورين وغيرهم من الاقماط والزعماء الى تمام خمسة عشر عاما شمسية اولها شهر نوفمبر

المتصل باكتوبر الموافق لشهر التاريخ وعلى ان يعطي لهم مائتا الف اوقية ذهبا وعشر آلاف اوقية كل اوقية منها يقبض عنها من الفضة ما قدره خمسون درهما من دراهمهم في الوزن والطيب لعجل لهم منها نصف العدد محضرا والنصف الثاني مقسط بين عامين شمسيين من تاريخه نصف المقسط يقبض آخر كل عام من العامين المذكورين والذين يبقون في برامير المومنين بعد سفر الملوك واجنادهم على ما ذكرنا يكونون محفوظين من جهة امير المومنين وان تعرض لهم عارض في انفسهم وموالهم فعلى امير المومنين رد ذلك اليهم والانبرور الأجل بادوين صاحب قسطنطينة والكمت الأجل الفوس كمت طلوزه والكمت الأجل كي كمت دافندر والكمت الأجل هري كمت لوسنبرك وجميع من حضر من الأقماط والزعماء والفرسان داخلون في ذلك كله ولازم لهم ذلك شهد على جميع من ذكر الأعلا المشهودين بما فيه بعد تقريره عليهم وفهمهم جميع ما نسب الى كل واحد منهم بمحضر جميعهم وليعطي امير المومنين على المال المتبقى ضمانا من تجار النصارى للملوك المذكورين وان كل من يكون عدوا للملوك والأقماط المذكورين يصرف ويخرج من بلاد امير المومنين ولا يعاد يقبل وشهد ايضا من حضر من القسوس والرهبان والأساقفة بجميع ذلك وامير المومنين ايده الله تعالى وولده المبارك الأسعد والشيخ الأجل ابوزيان بن عبد القوي وعدوا على دينهم وامانتهم لتمام ذلك بتاريخ الخامس لربيع لآخر عام تسعة وستين وستمائة ويضاف الى هذا العقد ان يودى الى الملك الأجل جارل بنعمة الله ملك صقلية عن الخمسة اعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يودى للانبرور سوا ويودى للملك الأجل المذكور من اليوم رجاى في كل عام ما كان يودى للأنبرور مثنيا والحمد لله تعالى شهد بانعقاد الصلح وصحته وثبوته عبد الحميد بن ابي البركات بن عمران بن ابي الدنيا الصدفي وعلي التميمي بن ابراهيم بن عمر وابو القسم بن ابى بكر النجبى .



صورة فوتوغرافية للوثيقة الاصلية لنص المعاهد من طرف ممثلين الحكومة الحفصية من جهة وفيليب الثالث ابن الوزير التاسع ملك فرنسا

فنون



تجربة « اوركستر 71 » بين الاصالة والتجديد

تجربة « **اوركستر** 71 » هي تجربة موسيقية ظهرت الى الوجود في مطلع السبعينات بفضل حماس ثلة من الشباب الموسيقي الذي درس اسرار علم الموسيقى بالمعهد التونسي اولا ثم بالمعاهد الفرنسية العليا .

وقد تمثلت هذه التجربة في بعث اوركستر عرف بالسنة التي برز فيها الى الوجود ، واتخذ منطلقا للتجارب الموسيقية التي تبناها استوديو 71 بالاذاعة الوطنية حيث وجدت هذه المجموعة من الشبان كل تشجيع ودعم مادي وادبي من قبل المخرج احمد حرز الله (1) الذي تولى وقتئذ رعاية هذه التجارب وبادر بتسجيلها اذاعيا بعنوان « **استوديو** 71 » .

وقد كانت هذه التجارب الموسيقية عبارة عن انتاج جديد يبدو غريبا عما تعودنا به من قبل من حيث الجودة لحنا ونظما باعتبار ان المجموعة الشابة التي تتركب من ملحنين شبان امثال محمد القرفي (2) وعبد العزيز بن عثمان (3) والعربي العلاقي (4) وعز الدين العياشي (5) وحمدة الوسلاتي (6) وعبد الكريم صحابو (7) لم تتعاط الا تلحين القصيد العربي الفصيح . فكان العربي العلاقي في قصيد « **معاناة** » للشاعر سويلمي بوجمعة ، وكان المطرب الملحن عبد الكريم صحابو قد ادى قصيد « **انت من انت** » لابي القاسم الشابي ، كما تضمنت هذه التجارب محاولة جريئة من رائد هذه المجموعة وهو محمد القرفي الذي تولى توزيع زجل وهرمنته في نغمة الاصبعين التونسية للشيخ المرحوم احمد الوافي (8) .

وهذه التجربة الجريئة يمكن اعتبارها الاولى من نوعها من حيث تجديد المالوف بثوب هرموني قشيب وذلك بادخال عناصر التوليفة الموسيقية والتوزيع الاوركسترالي .

وبعد ظهور هذه التجربة انقسم الموسيقيون التونسيون بين مؤيدين ومناهضين . وحجة المحافظين تعتمد منطق تقديس التراث ، واعتبار ما قامت به هذه المجموعة « عملا من رجس الشيطان » . واحتارت الاذاعة الوطنية اول الامر بين تسجيل هذه التجارب ورفضها حتى جاء المخرج احمد حرز الله . وكان اذاك مستشارا فنيا للمدير العام للاذاعة والتلفزة الوطنية فاقدم على تسجيل هذه التجارب بعنوان « **مخبر استوديو** 71 » .

على ان هذا الاوركستر الذي ظهر سنة 1971 لم يعمر طويلا بل ان حركته كانت عبارة عن طفرة ثورية في مجال الموسيقى سرعان ما اخمدت في المهد . اذ انها لم تتواصل الا سنتين حيث .ان اول عرض لنشاط هذا الاوركستر الفني (وهو الاخير ايضا) اندرج في نطاق المهرجان الدولي لقرطاج سنة 1973 .

وامتاز ذلك العرض بتقديم قصيدين للفنان العربي العلاقي وهما « **مررت بدربي** » اداء محسن الرايس « **ومعاناة** » لمصطفى الشارني . كما تولى الشاب احمد عاشور (9) توزيع اغنية عتيقة للاستاذ الهادي الجويني (10) بعنوان « **تحت الياسمينة** » وقد اداها المطرب احمد زروق .



• اوركستر 71 •

واذا كانت التجربة الموسيقية التونسية قد أجهضت فان الشأن يدعو الى التأمل في اسباب هذا الاخفاق ومسبباته في حين نجحت التجارب الموسيقية التي طلعت علينا في مستهل السبعينات بالمغرب وسوريا والجزائر ولبنان ومصر وغيرها من البلدان العربية الاخرى .

التجربة المصرية في الماضي والحاضر

في مصر ظهر في اواخر الستينات الشيخ امام المطرب والملحن الضرير الذي كان اول داعية للعودة الى ذلك المعين الذي لا ينضب ، وهو التراث الشعبي . فما كان من الشيخ امام الا ان فتح الباب على مصراعيه لموجة عارمة من الاغاني الشعبية ظهرت في السوق وطغت على الاجهزة الاعلامية والوسائل السمعية البصرية بصورة تدعو الى الدهشة والذهول .

واقتفى اثر الشيخ امام العديد من الملحنين امثال علي اسماعيل (11) الذي كرع من مناهل فرقة رضا للرقص التي كانت تمده باغاني التراث الشعبي وهو الذي كان يدير فرقتها الموسيقية .

كما ظهر بعد ذلك الملحن بليغ حمدي الذي استحوذ على ابلغ صوت يتمتع باوسع رقعة جماهيرية وهو صوت عبد الحليم حافظ الذي ولى عن اغانيه العاطفية وعن ميزاته في الشجن واللحن الحزين ، واخذ يغني « **انا كل ما اقول التوبة** » و « **سواح** » واغاني الزعيق والنعيق شان مطربات الدرجة الثالثة اللاتي طفحن على سطح الفن باغان رخيصة نظما ونغما من نوع : « **العتبة قزاز** » و « **السلم نيل في نيل** » و « **ماشربش الشاي اشرب قازوزة** » « **وما اخوذش العجوز** » .

وهي اغان لا تقل سخافة من حيث المبنى والمغنى عن الاغاني الركيكة التي راجت سوقها في مطلع العشرينات مثل « **يا منعتشة يا بتاعت اللوز انا بدي الاعبك فرد جوز** » . او « **ايه العبارة ايه العبارة ... لسة في ايدي حرق السجارة** »

وهي من قبيل « **في دار صاحبتي كليت حويته : عديتها بالروم والنزيته** » التي اشتهرت بها المطربة حبيبة مسيكة في العشرينات بتونس .

وظلت هذه الاغاني رائجة في مصر حتى جاءها سيد درويش فقضى عليها القضاء المبرم بمجرد ان بدأ في تلحين اغنية « **زوروني كل سنة مرة** » وذلك سنة 1914 بمقهى البلدية بالاسكندرية مسقط راسه .

وكان سيد درويش سيد الموسيقى العربية من حيث الموهبة الفطرية والنبوغ ومن حيث العودة الى التراث الشعبي لا لمحاكاته كالببغاء بل للاستلهام منه دون تقليد أعمى بل بحكمة وتبصر وعمق نظر حتى لا يستخرج الا الجوهرات الثمينة من كنز نخره الصدأ من طول النسيان والاهمال .

فكانت الحان سيد درويش رائعة وخالدة فاقتحم بها المسرح الغنائي الذي ضرب فيه بسهم صائب في وقت لم تبرز فيه اذاعة ولا سينما ولا تلفزة !

تجربة (جيل الجيلاله) المغربية

ولعل هذه التجربة العميقه قد وجدت صدى في القطر المغربي الشقيق حيث ظهرت مجموعة (جيل الجيلاله) . وتتالف هذه المجموعة من رائدها الشاب حميد الزوعي وعبد الكريم القصبجي ومحمود السعدي وابن عيسى العباسي والمطربة سكينة الصفدي .

ومبدأ هذه المجموعة التي نجحت في تجاربها الفنية في قضية الاصالة والتجديد تتمثل في قراءة الماضي من خلال الحاضر في نظرة مستقبلية .

ولعل هذا الشعار هو سر نجاح هذه المجموعة التي بقيت رائدة في تجاربها الموسيقية منذ انبعاثها في سنة 1972 .

واذا كانت هذه التجربة المغربية قد حققت نجاحا باهرا فان ذلك لم يحل دون فشل بعض التجارب الاخرى مثل تجربة مجموعة « ناس الغيوان » التي ظهرت سنة 1971 .

ولعل المقارنة بين التجربتين المغربيتين التي لا تفصل

بين بروزهما الا سنة واحدة قد جاءت مقدما في خصوص التراث الشعبي المصري الذي نجح مع سيد درويش وفشل مع بليغ حمدي وبعض الموسيقيين الذين اقتصروا على ترديد اللحن الشعبي بما له من محاسن وما يؤخذ عليه من مساو . فالقضية اذن هي قضية اختيارات اساسية في الرؤية الحضارية . وتجربة « **ناس الغيوان** » قد فشلت كما فشلت تجربة « **ناس الديوان** » التي ظهرت سنة 1968 من خلال البرنامج الاذاعي والتلفزي الــذي نظمته الاذاعة المغربية بعنوان : « **الطريق** » وقد مسح 12 اقليما مغربيا بحثا عن التراث للحفاظ عليه اولا ، ثم لتهذيبه وتطويره ثانيا ، ثم لاتخاذه منطلقا نحو آفاق مستقبلية لموسيقى عربية اصيلة حضاريا ، وعصرية شكلا .

ولعل هذا البرنامج يذكرنا كثيرا ببرامج عديدة شكلا من برامج الاذاعة والتلفزة الوطنية التي اشتبهت في المحتوى والمضمون واختلفت شيئا ما في التقديم والاخراج .

ففي حين اعتمد برنامج « **هواية من كل ولاية** » للفنان صالح المهدي (12) على تدوين التراث بالتحول الى عين المكان ، تولى برنامج « **متحف الاغاني** » تسجيل الاغاني التراثية بالاستوديو مع شيء من التصرف من قبل صاحب البرنامج الشاعر عبد المجيد بن جدو (13) .

وكذلك الشان بالنسبة لبرنامج « **نجوم الغد** » الذي ظهر سنة 1971 لابراز بعض الاصوات الجديدة في حين عكف برنامج « **مواهب** » الذي ظهر سنة 1975 على دراسة الالحان الجديدة التي ياتي بها هواة التلحين من الشباب المثقف .

تجارب مجموعة « الاخوة ماغري »

اما التجربة المغربية الجديدة التي حققت نجاحا باهرا لا يقل روعة عن نجاح مجموعة« **جيل الجيلاله** » فهي مجموعة « الاخوة ماغري » التي اتخذت من المــوسيقى الغربية مطية لعلمنة التراث الشعبي المغربي .

فهذه التجربة الجديدة يمكن تلخيصها في قسمين :

الاول ادبي من حيث الكلمات التي كثيرا ما تستمد من التراث ، ثم تهذب حسب مقتضيات اللحن الغربي .

وهو القسم الثاني من التجربة حيث ان اللحن يكون غربيا مائة بالمائة اي خلوا من كل ربع المقام وهو الميزة التي تمتاز بها موسيقانا العربية عن سواها من موسيقى بلدان العالم كما ان ادوات التنفيذ وهي الالات الموسيقية تبدو غربية ظاهريا الا انها عربية في الاصل كالقيثارة او الارغن .

فتجربة « **الاخوة ماغري** » لا تختلف كثيرا عن تجارب الخفافيش البريطانيين الذين ظهروا في مطلع الستينات وتجارب « **البوب ميوزيك** » او « **الفولك صونغ** » التي ظهرت في مطلع السبعينات مع جيمي هندريكس ومهرجان وودستوك الذي كان شعاره : « **حب وموسيقى وسلام** » .

فالمراحل التجريبية والمنهجية تكاد تكون واحدة الى ابعد حدود التشابه والتجانس حتى من حيث التنفيذ الآلي .

فلحن « **الاخوة ماغري** »لاغنية « **ليلي طويل** » جاء في مقام غربي عرف بالمينور وهو المقام الصغير بالنسبة للمقام الكبير الغربي .

وطرق تنفيذ هذه الاغنية جاءت عن طريق آلتي القيثارة اللحنية والقيثارة الايقاعية والارغن الكهربائي وآلة الايقاع الغربية .

ونجحت التجربة من خلال الرقم القياسي الخيالي التي حققته اغنية « **ليلي طويل** » « **للاخوة ماغري** » من حيث ان المستمع الى لحنها دون الانتباه الى الكلمات ليخالها غربية صميمة بحكم صياغتها في نغم غربي ووحدتها الايقاعية الغربية على الرغم من ان هذه الآلات تعود تاريخيا الى اصل عربي . على ان المتأمل في اللحن لا يسعه الا ان يدرك انه من صنع عربي ، لانه تشتم منه ورائحة التلوين العربي من حيث الصياغة والاداء صوتا . الى جانب الكلمات التي كانت طيعة للحن الغربي منهجا ، والعربي اداء وانشادا بحكم ان المقام الصغير يتجانس كثيرا مع مقام النهاوند العربي منشأ والفارسي مولدا ، مثل تجانس المقام الكبير مع مقام العجم عشران العربي نشأة والفارسي ميلادا .

وهكذا نجحت التجربة المغربية الاولى لمجموعة « **جيل الجيلاله** » من حيث المنهجية العلمية في تجديد الاصالة الحضارية بنظرة مستقبلية . كما نجحت التجربة المغربية الثانية « **للاخوة ماغري** » من حيث علمنة المــوسيقى العربية وجعلها تتخطى حدودها الاقليمية ، مثلما نجح في ذلك الاخوان عاصي ومنصور رحباني بالنسبة للقطر اللبناني ، وسمير حلمي بالنسبة للقطر السوري حيث تزعم حركة تجديدية سنة 1971 عندما لحن في ثوب تجديدي قشيب قصيد ابي نواس : « **حامل الهوى تعب** » وقد نجح بهذا القصيد في المباراة العربية الاولى التي نظمها المجمع العربي للموسيقى بتونس في شهر ديسمبر من سنة 1971 .

اما التجربة التونسية فلم يكتب لها النجاح لانعدام المنهجية العلمية من حيث النظرة الفلسفية والموضوعية لاصالتنا الحضارية ومن حيث الموقف المذهبي الذي يجب اتخاذه حيال قراءاتنا لتراثنا الموسيقي ، وكذلك لفقدان الاطارات الكفيلة بأداء هذه الرسالة الحضارية العسيرة التي لم تنطلق من ارضية حضارية سليمة ايديولـوجيا ، واضحة المعالم مذهبيا وذات رؤيا



ناس الغيوان

مستقبلية لما يجب ان يكون عليه تراثنا الفني باعتباره جزءا لا يتجزأ من مقومات شخصيتنا الحضارية العربية الاسلامية .

عبد المجيد الساحلي
ناقد موسيقي

1) **احمد حرز الله :** من مواليد سنة 1938 بمدينة المنستير تخصص في الاخراج السينمائي والتلفزي . انتدبه السيد محمد اسماعيل مدير الاذاعة السابق مستشارا فنيا فتبنى تجارب اوركستر 1971

2) **محمد القرفي :** يشغل الآن خطة رئيس مصلحة الموسيقى بالتلفزة الوطنية من مواليد 1948 بتونس درس الموسيقى بالمعهد القومي التونسي ثم بالمعاهد الفرنسية العليا . تزعم حركة 71 بعد ان قام بعدة تجارب في مجال المسرح الغنائي والمـوسيقى التصويرية للافلام السينمائية .

3) **عبد العزيز بن عتماز :** ملحن تونسي من مواليد سنة 1946 بتونس . لمع نجمه اولا كمطرب في نطاق منظمة الشبيبة المدرسية حيث درس الموسيقى ممارسة ثم اصبح ملحنا بعد ان انتدبته فرقة قفصة لمسرح الجنوب . نجح في تلحين القصيد وبعض المسرحيات والافلام .

4) **العربي العلاقي :** ملحن تونسي من مواليد سنة 1938 بالعاصمة برز في مجال تلحين القصيد فلحن لعديد من الشعراء مثل عبد الحميد خريف ومحمد الافريقي . كما قام بتجارب في تلحين الاغنية التونسية نظما في شيء من التجديد من حيث الصياغة اللحنية والتوزيع الاوركسترالي . درس طويلا بالمعهد الرشيدي للموسيقى التونسي ثم بالمعهد القومي للموسيقى ويجيد العزف على الة العود .

5) **عز الدين العباسي :** من مواليد سنة 1945 بدمشق . درس الموسيقى بالمعهد القومي التونسي حتى احرز على شهادة الكفاءة التي اهلته للتدريس بالمعاهد الثانوية له تجارب في ميدان الحين المسلسلات التلفزية وهو كذلك عازف ماهر على آلة الكنترباص .

6) **حمدة الوسلاتي :** ملحن تونسي من مواليد سنة 1948 بالعاصمة . درس بالمعهد الفلاحي بضاحية سيدي ثابت ثم بالمعهد القومي للادارة الا ان ولوعه بالموسيقى حال دون اتمام دراسته فاتجه الى المعهد القومي للموسيقى حيث درس التلحين والعزف على آلة العود . يشغل خطة موظف بوزارة الفلاحة ويقوم ببعض التجارب في المسرح الغنائي حيث لحن مسرحية « عشنا وشفنا » كما لحن قصيدين « خبريني » و « سانساك » من تاليف الشاعر محمد الافريقي .

7) **عبد الكريم صحابو :** ملحن ومطرب من مواليد سنة 1951 بالعاصمة التحق بالجامعة حيث درس الحقوق الا ان ماهيته الموسيقية جعلت منه استاذا بالمعهد القومي للموسيقى بعد ان درس الموسيقى بالمعاهد الثانوية . يحسن الغناء والعزف على العود والكمان . لحن قصيد الشابي « انت من انت » .

8) **الشيخ احمد الوافي :** هو احد اعلام الموسيقى التونسية ولد بالعاصمة سنة 1860 من اسرة عرفت بميلها للطرب والغناء . ودرس العربية بالجامع الاعظم حيث اشتغل برداجي أي بطريقة المدائح والاذكار كما اشتغل بالتلحين فلحن زجل « يا لقومي ضيعوني » كما اصلح العديد من الالحان الاندلسية عندما كان في خدمة البارون الانقليزي ديرلنجي الذي اقام بمصطاف سيدي ابي سعيد الباجي من ضواحي العاصمة توفي الشيخ احمد الوافي سنة 1921 .

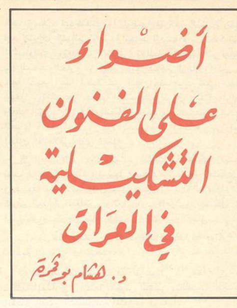
9) **احمد عاشور :** هو اول قائد اوركسترا سمفوني تونسي من مواليد سنة 1945 بالعاصمة التحق بالجامعة التونسية حيث درس الحقوق . الا انه لم يواصل دراسته الا في الموسيقى بالمعاهد الفرنسية العليا حتى اذا رجع الى تونس انتصب للتدريس . ثم تولى قيادة الاوركستر السمفوني .

10) **الهادي الجويني :** هو الفنان الكبير الهادي الجويني من مواليد سنة 1909 بالعاصمة لقد جاءت الحانه مجوهرات ثمينة خاصة في نوع الفلامنكو الاسباني الذي لحن فيه روائع الاغاني مثل « **لاموني** » وهي من كلمات الفنان الليبي التونسي البشير فهمي . وكذلك اغنية « **تحت الياسمينة في الليل** » . يشغل خطة موظف بالاذاعة الوطنية منذ تاسيسها سنة 1938

11) **علي اسماعيل :** ملحن مصري من مواليد سنة 1919 . تخرج من المعهد العالي للموسيقى العربية بالقاهرة مع فوج المطرب عبد الحليم حافظ وكمال الطويل وفايدة كامل . اشتهر بالموسيقى المسرحية والتصويرية . انضم الى فرقة رضا التي لازمها الى ان توفي سنة 1974 .

12) **عبد المجيد بن جدو :** شاعر من مواليد سنة 1918 بالعاصمة . درس بالجامع الاعظم لكنه لم يواصل دراسته بل ولع بنظم الشعر ثم انخرط في سلك الاذاعة الوطنية منذ تاسيسها سنة 1938 .

13) **صالح المهدي :** اشتهر بلقبه الفني « زرياب » من مواليد سنة 1924 بالعاصمة . لم يدرس الموسيقى بالمعاهد المختصة لعدم وجودها . بل اقتصر على اخذ المالوف على الشيخ خميس الترنان ووالده الشيخ عبد الرحمان المهدي . وتعلم عزف الناي على يدي الشيخ علي الدرويش الحلبي الذي قدم الى تونس سنة 1930 لالقاء بعض الدروس في جمعية الخلدونية . يشغل الآن خطة مدير ادارة الموسيقى وهو كذلك رئيسا منتخبا لمجمع الموسيقى العربية بمصر .



النحات العراقي محمد غني من ابرز الموجودين على ساحة الفنون التشكيلية في العراق ، وقد ولد ببغداد سنة 1929 ، ودرس في معهد الفنون الجميلة وتخرج منه سنة 1952 ، ثم اصبح استاذا في نفس المعهد سنة 1953 . وفي السنة الموالية حصل على منحة من الحكومة الايطالية للدراسة في روما ، وبقي فيها حتى 1961 ، حيث اكمل دراسته في اكاديمية الفنون الجميلة بفرعي النحت والميداليات . ولما عاد الى بغداد عين اول استاذ للنحت في اكاديمية الفنون الجميلة التي اسست عام 1961 ولا يزال بها حتى اليوم .

واول معرض شارك فيه هو « معرض ابن سينا » ببغداد سنة 1952 ثم انتمى الى « جماعة بغداد » للفن الحديث التي انشأها جواد سليم سنة 1951 وهي تعرض سنويا ، واقام ايضا معارض عديدة جماعية وفردية في روما وبغداد ، وهو اول من خصص معرضا في بغداد للنحت على الخشب والبرونز ، وأخر معرض فردي له اقامه في بيروت سنة 1968 .

وقد حصل على ميداليات مختلفة في روما وبغداد ، اهمها جائزة احسن نحات عراقي عام 1964 .

ــ قلت لمحمد غني اول ما التقيت به اننا في تونس لا نعرف شيئا كثيرا عن الحركة التشكيلية في العراق ، وخاصة في فرع النحت ، ونحن نقدر بالظن ، من خلال ما نقرأه ، ان هذه الحركة توجد في مقدمة النشاطات التشكيلية المتواجدة على الساحة العربية ، سواء من حيث غزارة عطائها او تنوع مصادر استيحائها ، فكيف الأمر بالنسبة للنحت خاصة ؟

❊ لقد كان النحت معدوما في العراق ، حتى جاء جواد سليم (1) بعد دراسته في انقلترا فادخله ضمن مواد معهد الفنون الجميلة حينما عاد سنة 1950 . ولم يكن يوجد آنذاك ببغداد سوى ثلاثة تماثيل لنحاتين اجانب ، وكان الأجانب ايضا هم الذين يدرسون في معهد الفنون الجميلة . فجواد سليم اذن هو اول مدرس عراقي للنحت ، وانا متخرج في دفعة طلبته الأولى . ولكن اعمال النحاتين العراقيين ظلت في الحقيقة متواضعة ، ومقتصرة على التماثيل والانجازات الفردية التي تقدم في المعارض الجماعية . ولم يكن هنالك نصب مقامة في الساحات العامة ، فلما جاءت ثورة تموز 1958 كلفت جواد سليم باقامة نصب الحرية واعطي مطلق الحرية في التصرف لتنفيذ هذا الأثر الضخم . فسافر لهذه الغاية الى روما وطلبني كمساعد اول له ، لأنه يريد ان يكون هذا النصب بايد عراقية بحتة ، خاصة وانه اول نصب يقام منذ الآشوريين . وقد نفذنا هذا النصب بالفعل معا ، وبقينا في فلورنسا حوالي سنة ونصف للقيام بعمليات السكب .

ــ ولكن نصب الحرية ليس الوحيد في بغداد ، وانما يلاحظ الزائر انتشار النصب على شاطىء دجلة ، وفي الساحات العامة ، وهو أمر ملفت للانتباه بالنسبة لعاصمة عربية ، لأن اقامة التماثيل التذكارية والنصب القومية ليس من تقاليد الحضارة العربية ، وانما هو نتيجة من نتائج لقاح الغرب في المجتمعات العربية الاسلامية .

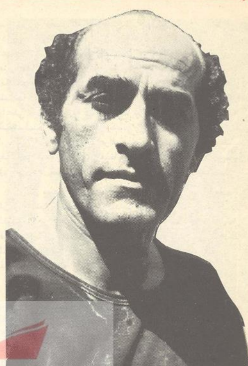
❊ هذا صحيح ، اذ انه يوجد ببغداد الآن حوالي ثلاثين نصبا منفذة اما على الحجر او على البرونز ، وكلها من عمل النحاتين العراقيين الذين يمكن تصنيفهم الى فئتين ، فئة تختص بالشخصيات التاريخية ، وفئة تختص بالشخصيات الأسطورية . وانا من الفئة الثانية ، فقد ركزت اهتماماتي على الميثولوجيا العراقية في اطوارها التاريخية المختلفة وهكذا فقد نفذت نصبا لحمورابي ونصبا يمثل شهرزاد وشهريار وأخر يمثل قهرمانة علي بابا .

ــ ولكنك انت تنتمي الى ما يمكن تسميته بالرعيل الاول ، اما الحالة اليوم فقد تكون اختلفت بعد اتساع أكاديمية الفنون الجميلة التي تدرس فيها . وبالمناسبة ، ما هي بالضبط وضعية النحت في هذه الأكاديمية ؟

❊ عندما تأسست الأكاديمية ، لم يكن فيها في فن النحت غير طالبين اثنين ، اما الآن فاننا نقبل كل سنة عشرين طالبا في فرع النحت وتدوم الدراسة اربع سنوات ، فيكون مجموع العدد الدائم في فرع النحت 80 طالبا سنويا من مختلف الجنسيات العربية .

والأكاديمية تابعة لجامعة بغداد ، ويقبل فيها الطلبة بعد الحصول على الثانوية (الباكالوريا) ، وبعد اختبار عملي للتأكد من القابلية للنحت . والدراسة [illegible]ان نظرية وتطبيقية ، وهذه الثانية تنفذ على الطين وا[illegible]الخشب ، وانا الذي ادخلت الطين والخشب في المنا[illegible]ول مرة .

ــ الذي يتابع منجزاتك في النحت يجد انك مررت بتاثيرات مختلفة قبل ان تستقر على بعض المحاور الجوهرية . فأعمالك المنفذة في روما ، لما كنت لا تزال طالبا ، عليها مسحة ايطالية هلينستية واضحة ، وان كانت انسيابية الخطوط ، والعلاقة بين الحركة والابعاد المكانية تحمل عناصر شرقية واضحة. تحدد علاقة الفضاءات ، ولكنك عندما قدمت الى العراق تغيرت معطيات الالهام عندك ، كما تغيرت وسائل التنفيذ .



محمد غني

※ بكل صراحة ، كانت اهتماماتي منذ البدء فكرية ملتزمة ، ومصادر الهامي واضحة . واذا كان هذا هو رأيك كناقد تشكيلي في اعمالي في روما ، فانني من جهتي اعتبر ان خطي كان دائما ثابتا ، وهو البحث المستمر عن الربط بين الموضوع والشكل انطلاقا من تربة العراق في مفهوميها المادي — أي ما توفره من وسائل للتنفيذ — والحضاري ، اي ما توفره من مصادر للالهام والاستيحاء . ولذلك فانني في المرحلة الأولى كانت المواضيع الشعبية هي محور اهتماماتي ، فانكببت على السوق والمقهى ، والشارع العام ، والعباءة ، والأمومة .

— ولكن طريقة التنفيذ عندك تكشف عن تغلغل عميق للفن الآشوري في نفسك ...

※ ان البناء المعماري للشكل هو الذي يهمني ، ولذلك فان طريقة التنفيذ عندي لها علاقة اكيدة بالنحت القديم السومري والآشوري ولكنها ليست علاقة اخذ مباشر . وقد مزجتها فيما بعد بعوامل اخرى ، عندما انكشفت لي آفاق الفن الاسلامي وتجريد الزخرفة الاسلامية ، وشفافية الخط العربي ، فاصبحت لي دراسة جديدة في هذه الانماط من الفنون الاسلامية . فمتابعتي للمتاحف والمساجد والبحث عن الأثريات وتجوالي المستمر بالعالم الاسلامي ، تمثل كلها عناصر استلهام جديد وطريقة جديدة لا أزال حتى الآن اعمقها .

— ولكن كيف يمكن ادخال هذه العناصر كلها في موضوع العباءة مثلا ، فقد شغلك هذا الموضوع فترة من الزمن ، ونفذت فيه عشرات التماثيل ، كلها تجريد للعباءة ، ولحركاتها الاسطوانية ، وتعبيرها الالتفافي ، ثم للعلاقة المغلقة التي تقيمها بين الجسد والخارج من جهة ، وبين عناصر الزمان والمكان من جهة ثانية ، هذا فضلا عن انها اجتماعيات تمثل مظهرا رجعيا ، وتؤكد على انغلاقية المجتمع العراقي في علاقته بالمرأة ، ولعلك انتبهت الى هذه النقطة ، لأني وجدتك عندما تجرد العباءة ، تضع لها في كل مرة فتحة في مكان ما كتعبير عن رفض المدلول الانغلاقي الذي تحمله .

※ اريد اولا ان أؤكد لك بانني تناولت العباءة كأثر متحفي يجب ان يزول ، انا ارفضها لأنها عامل ضغط اجتماعي ، وارفضها ايضا لأنها عامل أجنبي دخيل ، فالمرأة العربية لم تكن تعرف العباءة المنغلقة ، وانما الثوب العربي بشكل عام فضفاض ومفتوح انفتاح الصحراء المترامية الآفاق .

— اسجل هذا الرفض المبدئي للوظيفة الحضارية ، ولكن من الناحية التنفيذية في النحت ؟

※ لقد لفتت العباءة انتباهي اثر عودتي من روما ، واثارني شكلها المعماري فربطتها بالقوس البنائي وبالشباك البغدادي وبشكل القبور الاسطوانية المتعارفة في بغداد .

— هذه القبور الاسطوانية هي تجريد لنساء في عباءات مبطوحات فاذا أضفت اللون الأسود الذي هو لون العباءة السائد ، بدا لك ان العباءة هي في نهاية الأمر تجريد لفكرة الموت والرفض في آن واحد .

لقد اثارني انا ايضا ، في طريق الى النجف ، وفي كربلاء ، منظر النساء القابعات على الاعتاب او على حافات الطرقات ، في عباءاتهن السوداء ، باوضاع معمارية مختلفة ، كانها في نهاية الأمر صيغ احتجاج مختلفة .

※ تماما ، العباءة ، من الوجهة الاجتماعية ، هي وثيقة تاريخية لفترة زمنية ، فيها نوع من الاحتجاج الضمني على وضعية المرأة . وحتى أؤدي الأمانة بشكلها الصحيح ، انجزت دراسة حقيقة لشكل العباءة وطريقة لبسها . وكل وضعية لها اسمها الشعبي المعروف ومميزاتها ، فصارت اعمالي ، موسوعة تاريخية للعباءة باوضاعها المختلفة .

— ثم من العباءة انتقلت الى الخطوط العربية ؟

※ انا لا أزال حتى الآن انجز اعمالا عديدة انطلاقا من الخط العربي المنحوت ، وقد وجدت المجال واسعا في اكتشاف العلاقات بين انسيابية وليونة وطراوة الحرف العربي ، وبين ما يحمله من شحنة العنف والتمزق في بعض انواعه ، وخاصة الحرف الكوفي الذي هو امتداد غير منظور للكتابة المسمارية ، مما يسمح بالربط الحضاري بين التراث العراقي القديم والتراث العربي الاسلامي .

— لقد رأيت انك منكب على تنفيذ هذه المحاولة في مجال زخرفة الأبواب ، فقد نفذت عددا كثيرا فيها لبيوتات خاصة وعامة وجعلت من باب البيت أثرا فنيا ، ومجالا للابداع .

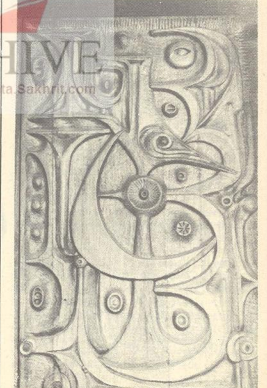
والباب هو اول ما يعترضك من البيت او اي حيز مكاني ، فهو الواجهة الحقيقية التي تنبئك بالداخل الحضاري ، وقد كانت

الأبواب في الماضي اكثرها مزخرفة ، وكان الناس في المعابد او المحلات العامة او البيوت الخاصة يولون عناية كبرى لزخرفة الأبواب ، ثم تغيرت هذه الوضعية بسبب المعادلة المعمارية المعاصرة ذات الطابع الأملس المسطح .

※ اني اول نحات معاصر يستفيق على هذه القيمة الوجدانية والحضارية للباب ، ونظرا للاتساع النسبي لمساحة الأبواب ، فاني اجد في تنفيذ اعمال النحت عليها متنفسا عجيبا . اني اشترط فقط ان تقدم لي الخشبة جاهزة دون قيد ، ثم اسرح فيها . وقد نفذت لحد الآن اربعة عشر بابا . منها اثنان لمؤسسات عامة هما مصرف الرافدين والمركز القومي للاستشارات الادارية ، وباقيها يوجد خارج العراق ، في أوروبا والشرق . واذا كانت عناصر العمل فيها واحدة ، وهي اكتشاف تنويعات وتوزيعات في الخط العربي المسماري ، فان تجميعات هذه العناصر في الباب الواحد لا تشبه الواحدة منها الأخرى ، وكذلك لا يشبه احد الأبواب الآخر .

ـ لقد نفذت نفس الأسلوب ايضا على الميداليات

※ اني اول من عمل الميداليات في العراق ، واصبح لي فيها اليوم تخصص ، وقد قمت بعدد كبير منها ، لجهات رسمية وخاصة ، وفي مناسبات ثقافية وفنية ورياضية . وقد ادخلت فيها جميعا نفس الاسلوب والاستفادة من التراث ، واستعمال



جزء من نحت على باب

خطي الخاص المؤلف من الكوفي والمسماري .

ـ يقولون عنك انك ذو اتجاه صوفي ، وشفافية كثير من اعمالك تنم عن ذلك .

※ أنت تعلم ان العراق كان دائما ارض الحركات الصوفية والتمرد ويبدو لي ان الفرد العراقي حمل في نفسه دائما طاقة من الرفض ، ولذلك تصطدم الطبقات الحاكمة بمجموعات ضغط ، فتجد هذه المجموعات ان الخلاص الوحيد لها هو الانكفاء على النفس ، ان الصوفية صفاء داخلي ، واحسن الاعمال تاتي نتيجة لذلك الصفاء ، بداية من الصومعة الى المسجد ، والمشهد ، وفي النفس الصوفي يحقق الفرد حريته المطلقة كما ان الانجاز الفني هو أعمق وسيلة للتعبير عن الحرية ، ولذلك فاني بالفعل في بداية تفضيل الانزواء والعمل ، وتحقيق الذات في انجاز الأعمال الفنية .

ـ هل تجسمت هذه الحرية في النحت العراقي القديم الذي هو من مصادر استلهامك ؟

※ ان الفنان السومري بالرغم من انتمائه للمعبد ووجود خطوط معينة عليه ان ينفذها ، يحس بحريته المطلقة في الخلق من خلال الاعمال الفردية والمنمنمات التي تحمل الطابع الذاتي ، ولذلك فقيمتها الفنية اكثر بكثير من قيمة المنجزات الكبرى التي خلفها النحاتون السومريون . وهذه الميزة لا توجد في النحت الآشوري الذي كان نحتا رسميا موجها بكل معنى الكلمة ، ولا توجد فيه آثار فردية وجدانية الا في بعض اللقطات الصغيرة التي يتمرد بها الفنان على الأوامر الرسمية كما في (اللبوة الجريحة) (1)

ـ الأمر الملفت للانتباه بالرغم من دراستك الأوروبية ، هو انتفاء التأثير الأوروبي عليك .

※ انني انتمي أساسا الى النحت السومري والآشوري ، واطعمه بمعطيات حضارية عربية واسلامية ، ولا تكاد توجد عندي أية اشارة الى الفن الأوروبي هذا هو مفهوم الاصالة المتفردة المتميزة عندي ، واعتبر اننا نمتلك من العمق الحضاري ما يغنينا عن التقليد ، وقد لا يمنع هذا الاضافة ، وهو ما يحاوله آخرون ، اما انا فاحاول ان اركز مفهومي الخاص في طلبتي طبعا هذا لا يمنع وجود اعمال اخرى ، ولكنك عندما تراها تستطيع ان تردها حالا الى اصولها ، فتقول هذه نسخة فلان الايطالي او فلان الفرنسي او فلان الانقليزي .

على ذكر الانقليز ، لقد حكموا العراق زمنا ، وتخرج قسم من التشكيليين العراقيين في لندن ، وفي غيرها من العواصم الأوروبية ، ولكن الملاحظة البارزة هي ان اكثر اعمالهم لا تحمل استمرارية مركزة للتاثير الغربي ، وانما هنالك تطويع وتنويع واستعمال للعناصر المحلية .

※ ان العراق قد بادر منذ البدء ، الى خلق صوت فني متفرد ومتميز باسلوب معاصر ، وعمل على احياء مدرسة الواسطي وهذه البادرة تمثل دعوة الى كل الفنانين العرب للاستفادة من الذات واستلهامه باساليب تنفيذ عصرية . ورساموا أوروبا المشاهير ، هم انفسهم قد استفادوا من استلهام التراث العربي الاسلامي . فنحن اولى منهم بذلك . هذا فضلا عن ان المعارض الغربية قليلة في العراق ، بل نادرة ، مما ادى الى ردة فعل انعزالية لدى الفنان العراقي جعلته يعول على نفسه . وهذه

الانعزالية هي في نظري من اسباب نجاح المدرسة العراقية .

ـ لقد زرت المعرض التونسي ، فما تعليقك عليه ؟

✻ بكل صراحة ، لقد فوجئت فيما رايته من اللوحات ، بان الألوان والمساحات ليست لها علاقة بتونس ، وانما هي تكاد تكون امتداد للأجواء الأوروبية وضبابية باريس وتراكم الحياة وتكدسها في المجتمعات الغربية .

ـ لو كنت تونسيا ، ماذا كنت اذن تفعل ؟

✻ لو كنت فنانا تونسيا لاستفدت من الشكل المعماري للبيوت والقباب والأقواس والتجمعات السكنية والآثار الاسلامية . ولو كنت رساما لاستغللت اللونين الأبيض والأزرق والمساحات الواسعة . ثم ان اللباس التونسي قابل للتشكيل على مستوى الرسم والنحت ، فهو ذو حركية بديعة ، اكثر من حركية العباءة ، اذا أخذناه خاصة في انماطه الفضفاضة .

(يتبع)

اجرى الحديث

د . هشام بو قمرة

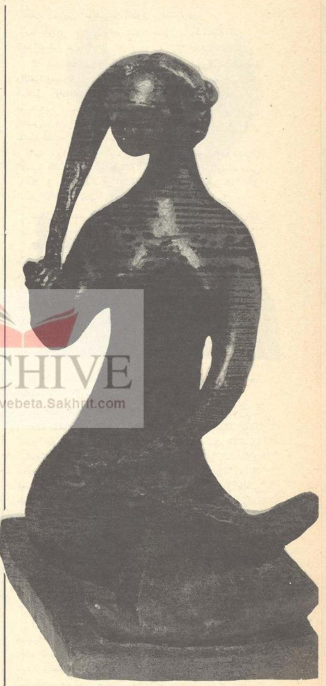
---

(1) اللبوة الجريحة هو جزء من مشهد صيد يرى فيه الملك يصطاد الاسود ومن حوله الحراس ، كاشارة واضحة الى جبن الملك . والنحات كان رسميا يسجل بطولات الملك ، ولكنه احاطه بالحرس والصيادين المهرة الذين يحتمي بهم الملك عندما يدهمه الخطر . فقوة الموقف كله في صراع الأسد لا في صراع الملك ، اي في قوة المقاومة ، وكأن النحات أشفق على الأسود ، او أحس انه هو المصاد فترى اغلب المشهد أسود ولبوات جريحة متحدية نزيف الدم .

(2) الواسطي ، يحيى بن محمود ، اشتهر بكتابة نسخة من « المقامات » للحريري ، وتصوير مناظرها بيده وقد فرغ منها في رمضان سنة 624 ، وهي تضم مائة صورة ، وهي تعتبر نموذجا رائعا لفن المنمنمات العربية ، كما يعتبر الواسطي قمة فيه (انظر فن التصوير عند العرب ، تاليف ابتكنهاوزن ، ترجمة الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ، ص 104 وما بعدها) وقد اقيم اول مهرجان فني تكريما لذكراه ، ودعوة للاصالة التشكيلية ، عام 1972 في بغداد ، وقد تلاقى الفنانون العرب آنذاك وولدت فكرة اقامة معارض سنتينية (بينال) عربية اولها يقام في بغداد ، وبعدها في بقية الأقطار العربية ، وقد اقر الاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب هذه الفكرة في مؤتمره الأول سنة 1973 ، واقيم معرض السنتين العربي الأول في بغداد عام 1974 .

★) خلال اقامتي بالعراق ، في مدة الأسبوع الثقافي التونسي ، اغتنمت الفرصة للاتصال ببعض التشكيليين العراقيين لنقل خبرتهم الى القارىء التونسي ، وهذا القسم الأول مخصص للنحت ، وبعده سأقدم القسم المخصص بالرسم

1) ولد جواد سليم عام 1920 في انقره من ابوين عراقيين وتوفي في بغداد عام 1961 وقد درس النحت في باريس عام 38/1939 وفي روما 39/1940 وفي لندن 46/1949 وهو مؤسس فرع النحت في معهد الفنون الجميلة ، ومؤسس « جماعة بغداد للفن الحديث » عام 1951 ، وقد ساهمت اعماله في جميع المعارض الوطنية التي اقيمت خارج العراق ، وهو صاحب « نصب الحرية » الشهير المقام في الباب الشرقي ببغداد ، وابو النحت العراقي الحديث (انظر كتاب الفن العراقي المعاصر ، منشورات وزارة الاعلام ، السلسلة الفنية رقم 15 ، بغداد 1972 وكتاب جواد سليم ونصب الحرية لجبر ابراهيم جبرا ، بغداد 1974)



المتمشطة (فترة رومه)

البُوليفونيّة والتوليف في الموسيقى العَربيّة

بحث : محمد سعادة

قد يظهر موضوع البوليفونيا من ابعد المواضيع التي يحتمل ان يكون لها اتصال ما بالموسيقى العربية ، ولست ارمي من خلال هذا البحث الى الادعاء ان الموسيقى العربية هي بوليفونية حسب المعنى المتعارف . ولا يمكن ان يتصور الانسان ، وبدون شك ، ان اسحاق الموصلي مثلا كان يلحن في هذا النوع من الموسيقى . كما انه يعسر الزعم ان الفارابي كان يعزف بمحضر سيف الدولة الحمداني على طريقة هايدن او موتزارت . انما غايتي هي الوصول الى بيان ان الموسيقى العربية ليست غريبة عن فكرة البوليفونيا . وتكبر اهمية هذا الموضوع اذا نظر اليه الانسان من حيث ارتباطه بالتاريخ العام اذ يقول ج . هنري فارمر في « مصادر الموسيقى العربية » :

... « وليس من البعيد ان ياتي الترقي نحو توليف الانغام المختلفة عند اوروبا الغربية من العرب » .

الموسيقى العربية وميزاتها

يجب ان نعرف اولا ان الموسيقى الشرقية عامة والعربية خاصة تخضع الى اللحن الواحد . وهي صفة حافظت عليها الموسيقى العربية بالذات الى درجة انها اصبحت تتميز بها دون سواها ، فتكاد تنسب هذه الصفة اليها وحدها .

ولفظة بوليفونيا (تعدد الاصوات او التعددية الصوتية) تدل على وجود صوتين مختلفين فاكثر في آن واحد .

وللبوليفونيا أنماط عديدة اشهرها الهارموني . وقد اشتهرفن البوليفونيا في اوروبا خاصة حيث بدأت أول محاولات فيه منذ القرن العاشر المسيحي .

ويتحدث فارمر عن صفة تشابه اللحن وانفراد الصوت في الموسيقى العربية ، فيقول في « تاريخ الموسيقى العربية » :

« وكان كل مغن يغني في نغمة واحدة او مقام اذ لم يعرفوا تاليف اللحون المتفرقة كما نعرفها نحن » .

ويواصل الموضوع في باب آخر :

« وكانت الموسيقى لحنية او متشابهة . وسواء رافق المغني في اغنيته آلة واحدة او خمسون ، فانه لا يعزف غير اللحن ، لانهم « يعزفون كواحد » كما



عازف العود . منمنمة لمخطوط عربي (يرجع تاريخه الى القرن الثالث عشر م .)

يقول مؤلف كتاب الاغاني » .

وفي الحديث عن التطور الذي شمل الموسيقى في العصر الاموي يقول فارمر في نفس الكتاب :

« ... وربما تضمن التطور دخول نغمة اخرى ، تضرب في آن واحد مع اللحن الاصلي » .

البوليفونيا في مستوى النغم

جاء في كتاب « الموسيقى الكبير » للفارابي :

... « ثم اذا تأملنا الالحان تأملا كثيرا وجدنا فيها اقترانات للنغم وترتيبات لها ، وأعني بالاقترانات اجتماع اثنين منها او اكثر » .

ها نحن في صلب الموضوع بدون شك . وواضح ان الترتيب هو التوالي الذي عكسه الاقتران ، وهو تآلف الاصوات اي حدوثها في آن واحد .

ولكن الفارابي لا يعلمنا هل كان اقتران الاصوات مستعملا عند اهل الصناعة فعلا ، ام اذا كان فقط يقتصر عليه في التجارب العلمية . على انه في دراسته المتعلقة بالاجناس يقول لنا ان منها (الاجناس) ما دخل ميدان الصناعة ومنها ما بقي غير مستعمل . فهل يحق لنا اذن ان نستنتج ، من خلال هذا ، من جهة ان

العرب استعملوا شيئا من البوليفونيا تولى واندثر لعدم تدوينه وفرضه ؟ وان نتساءل من جهة اخرى عما اذا كان العرب فضلوا عن وعي مواصلة المحافظة على اللحن الواحد كما فضل الغربيون سلك طريق البوليفونيا ؟

اما ابن سينا فانه يعتبر في كتاب الشفاء « **ان ما اسميه التاقت الصوتي ، هو من العناصر الثانوية التي تضاف الى اللحن** » . وهي في نظره من محسنات اللحن . ومن بين هذه العناصر ، يذكر ابن سينا ما يسميه « **التمزيج والتركبات** » .

فالتمزيج في راي ابن سينا هو احداث صوت تعزف بعده اصوات مختلفة ، على ان يقع الرجوع بسرعة الى الصوت الاول قبل ان ينقطع رنينه فتكون النتيجة ان يسمع مع الاصوات المتواترة ، وفي نفس الوقت ، صوت مستمر . ويمكن ان نشبه هذه الخاصية بما يحدث تقريبا في آلة المزود (المزدوج)

اما التركبات فهي تتمثل حسب ابن سينا في عزف صوتين على بعد رباعية او خماسية او على اية نسبة اخرى .

كما جاءت في كتاب النجاة لابن سينا هذه الفقرة ، وهي على غاية من الاهمية :

« ... **والتمزيج اصناف** ، فمنه يدرج الى الحدة **ومنه يدرج الى الثقل ، ومنه بلا تدريج ويسمى التشقق ، وهو ان يوضع احد الاصبعين على جملة وترين متساويي الطبقة ، ويرعد بالاصبع الباقية على احدها ، ويمسك من غير** ترعيد . والترعيد هو **ان يخلط بالنغم الاصلية في نقرة واحدة نغمة موافقة لها . وافضل ذلك ان يكون من الابعاد الكبار ، وافضله الذي بالكل ثم الذي بالخمسة ثم الذي بالاربع** » .

ولنواصل بحثنا ونسأل اللاذقي (القرن الخامس عشر) فنجده على علم بموضوعنا . اذ يقول : « **ان الاصوات تكون اما متتالية او متاقتة** » متوخيا في ذلك نظرية أسلافه . بل ويبين لنا مبدا التآلف والتنافر في الهارموني بالمعنى العصري . ولا يكتفي اللاذقي ببيانات علم العدد والظاهرة الطبيعية ، بل يتعمق في المسالة ، ويشرع في دراسة هذه الظاهرة الفنية كما كان يتعاطاها اهل صناعة عصره ، فيزودنا بقواعد ثابتة لما يسميه الترجيع وهو التمزيج بعينه في معناه الجذري حسب ابن سينا كما ذكرنا من قبل . ولكن بقي ان اقول انه من اطرف ما جاء على لسان اللاذقي ذكره ان الحديث عن الترجيع يتطلب وحده كتابا كاملا ...

واذا انتقلنا الى فترة اخرى وهي القرن السابع عشر فاننا نجد شارح كتاب الادوار الذي يبين لنا مرة اخرى ان العرب اعتنوا بمشكلة تاقت الاصوات . ويفيدنا انهم انما اضافوا عددا من الاوتار الى الاتهم حتى يتسنى للعازف احداث صوتين معا . ويرى الكاتب ان الاصوات المقترنة تعتبر من محاسن العزف حيث تكسبه جمالا ورونقا .

نرى اذن ان العلماء العرب قد اهتموا اهتماما واضحا بالظاهرة المعروفة بالبوليفونيا ، وذلك في حالة تطورها على الاقل .

وبعد ان قدمت بعض الاستنتاجات حول البوليفونيا المطبقة على النغم ، فاني سانتقل الى الحديث عن تاقت الايقاع في الموسيقى العربية وقد أسلفت الاشارة الى ان للبوليفونيا أنماطا عديدة ، ومن بينها البوليريتمي او فن تعدد الايقاع .

البوليريتمي

على نقيض ما هو معروف ان خمسين عازفا يؤدون « كواحد » فان وجود اكثر من ناقر يفرض اختلاف الضرب مع حدوثه في نفس الوقت حسب وحدة وزنية تربط بين الناقرين . فهي « **البوليريتمي** » بذاتها . وقد ظهر اعتناء العرب بهذا الفن في مظهر يتحدى الآلات المنغمة والناقرة اسموه التصفيق الذي ذكره الفارابي . ومن اروع طرق تاقت الايقاعات ومما يدل على قدمها ، تلك التي يتحدث عنها صفي الدين عبد المؤمن في رسالته الشرفية (القرن الثالث عشر) : **يحكي لنا ضابط السلم العربي انه استمع الى عدد كبير من مؤلفات العرب القديمة (في عصره !) وقد استعملت فيها ايقاعات مختلفة في نفس القطعة** . على انه يقف منها موقف الناقد بل المعلم اذ لاحظ ان البعض من هذه القطع لم يراع فيها اصول الوزن !

ويتناول شارحه الموضوع بالدرس فيضيف انه من الممكن جمع جميع الايقاعات في لحن واحد .

وكان تعدد الايقاعات عند العرب يخضع الى اصول مضبوطة ، فيقسمها عبد القادر بن غيبي الى طريقتين : بالتوالي او بالتاقت ، سالكا منهج الفارابي في الاصوات . ويذكر ابن غيبي قالبا تلحينا كان يعرف بـ « كل الضروب » يستعمل فيه ضربان مختلفان في آن واحد . اما « الضرب » فهو قطعة ذات ايقاعين يمكن حسب ابن غيبي ان يستعمل فيها اربعة ايقاعات بنفس الطريقة . ولعل ابدع ما يوصل اليه في تعدد الايقاعات ما قاله هذا العالم نفسه انه اذا توفر الادراك الايقاعي ، فانه يمكن لكل اصبع ان يؤدي ايقاعا مختلفا عن الاصابع الاخرى في آن واحد .

واذا اضفنا الى ذلك تشريك اليدين والرجلين ، فاننا نبلغ قمة عالية في فن التاقت ذي المظهر الرائع الخلاب حيث تتجلى سليقة البشر الايقاعية ثم الحركة ، مع الدورية المتجددة الموزونة .

محمد سعادة
موسيقار واستاذ بالمعهد القومي للموسيقى بتونس

المعهد القومي للآثار والفنون
المكتبة التاريخية
1
نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة
تأليف
تونس 1975 فرحات الجعبيري

نظام العزابة عند الاباضية الوهبية في جربة

تاليف : فرحات الجعبيري

الناشر : المعهد القومي للآثار والفنون ، المكتبة التاريخية ، العدد الاول

تونس 1975

396 ص . الثمن : ؟

يعالج هذا الكتاب قضية ذات شأن في حياة المذهب الاباضي بالمغرب الاسلامي خلال عصور معينة ، ونعني هنا نظام العزابة ، وقد كان له دور فعال في مرحلة الكتمان من تاريخ الدعوة ، واستمر العمل به في المناطق الاباضية الى الفترة المعاصرة . وقد لفت نظرنا في هذا التاليف أمران :

أولا : أن مؤلفه أحرز به على شهادة الكفاءة في البحث العلمي من قسم العربية بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالجامعة التونسية بملاحظة حسن جدا (1).

ثانيا : انه صادر عن معهد يضم بين اقسامه مركزا للبحث العلمي ، وهو المركز المشرف ـ دون ريب ـ على تبني هذه الاعمال العلمية ونشرها(2) ونعني « المعهد القومي للآثار والفنون » (3) ويمثل هذا التاليف الحلقة الاولى من المكتبة التاريخية للمعهد .

ان من يلاحظ هذين الأمرين ينتظر ان يجد في الكتاب حدا أدنى من معايير المنهجية العلمية في طريقة التاليف ، وفي المحتوى ، بل اننا نذهب الى ان مثل هذه الدراسات المقدمة لنيل شهادة جامعية في البحث بعد الاجازة ينبغي ان تبرز المجهود الشخصي ، وروح الابتكار بالاضافة الى الدربة على البحث ، فمن الصعب ـ اذن ـ ان تقتصر على سرد معلومات مشتتة تتكرر في طياتها أخطاء في المنهجية والمحتوى ، كما سنرى .

يشتمل الكتاب على توطئة ، ومدخل تاريخي ، واربعة فصول اساسية ، وخاتمة تمتد من ص 233 الى ص 314 ، وتتضمن هي بدورها خاتمة ص 313 ، هذا فضلا عن الملاحق والفهارس ، وثلاث مقدمات : مقدمة المؤلف ، ومقدمة الشيخ سالم بن يعقوب ، ومقدمة الاستاذ محمد الطالبي .

وقد قيدنا اثناء قراءتنا للكتاب مجموعة من الملاحظات قسمناها الى نوعين : ملاحظات تتصل بالطريقة ، واخرى حول المحتوى .

اولا ـ ملاحظات منهجية .

1 ـ ص 14 ، سطر 19 : احالة على دائرة المعارف الاسلامية وذكر الصفحة مع اهمال عدد المجلد ، فلو أحال على الفصل دون ذكر الصفحة لامكن ذلك ، اما وقد ذكر الصفحة ، فلا بد من التنصيص على الجزء .

2 ـ ص 18 ، تعليق رقم 1 يحيل على الطبري ، وابن الاثير دون ذكر للجزء والصفحة .

3 ـ ص 19 ، سطر 3 ، ينقل فقرة بين قوسين دون احالة ، وكي يتبين القارىء الخلط والاضطراب نورد الفقرة كاملة ، فقد ورد في مطلع الصفحة ما يلي : (والناظر في كتب التاريخ عامة لا يجد تاريخا مضبوطا لدخول هذه الفرقة بلاد المغرب ، غير اننا نجد في كتب الاباضية نصا يمكن الباحث من الاستنتاج .

« عن عبد الرحمان بن رستم ، اول من جاء يطلب مذهب الاباضية ونحن بقيروان افريقية ، سلمة بن سعد قال : «قدم علينا من ارض البصرة ، ومعه عكرمة مولى ابن عباس» ، لو نقل نص الدرجيني بأمان لجاء كلامه واضحا مفهوما ، قال ابو العباس احمد الدرجيني في كتاب « طبقات المشائخ » : « حدثنا غير واحد من اصحابنا عن الامام افلح عن ابيه عبد الوهاب عن جده عبد الرحمان بن رستم انه قال اول من جاء يطلب مذهب الاباضية ونحن بقيروان افريقية سلامة بن سعيد قال قدم علينا من ارض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس معتقبين على بعير فسلامة يدعو الى مذهب الاباضية وعكرمة يدعو الى مذهب الصفرية » (4)

4 ـ عدم احترام الطريقة المعروفة المتبعة في الاحالة على المصادر والمراجع في كثير من التعاليق ، انظر مثلا ، ص 18 و 19 ، و ص 35 ، تعليق 2 .

5 ـ ص 72 ، سطر 7 : « يقول البرادي روايا ما رتبه ابو عبد الله في هذا الشان عن الدرجيني . »

نجد المؤلف يذكر من بين مصادره « طبقات المشائخ » للدرجيني ، وتقتضي طريقة البحث الاحالة عليه مباشرة ، كما فعل في بعض المواضع ، ويمكن بعد ذلك ان يحيل على كتاب البرادي الذي نقل بدوره نص ابي عبد الله محمد بن بكر عن الدرجيني .

وفي التعليق رقم 6 من نفس الصفحة يحيل بالطريقة التالية : « انظر البرادي ص 207 الجواهر ... » !

6 ـ ص 77 ، سطر 11 : « فرده (اي العزابي المذنب ح . ج) ، وتركه ، وتاخير رده ، وتعجيله انما يتعلق بـ :

(1) عظم الجرم

(2) القدم في هيئة العزابة » تمعن في هذا الاسلوب في دراسة علمية .

7 ـ ص 87 ـ 89 : يتحدث عن « وظيفة الغسالين » ، ثم يتحدث عن القاضي في 11 سطرا ، ثم يعود الى « وظيفة الغسالات » .

8 ـ ص 104 ، سطر 1 ـ 4 ، وتعليق رقم 1 و 2 : خلط ، واضطراب في الاسلوب ، ويبدو من السياق ان الاسطر المذكورة هي فقرة منقولة من رسالة مؤرخة في سنة 1971 ، ولم يوضع نصها بين قوسين ، وجاء في تعليق رقم 2 : « هو شيخ عزابة بريان بوادي ميزاب ... » ، ولكن على من يعود الضمير هو ؟

9 ـ ان الحديث عن نظام العزابة الذي وضعه الشيخ ابو عبد الله محمد ابن بكر في العقد الاول من القرن الخامس الهجري ينتهي في ص 151 ، ثم يبدأ الفصل الرابع عن « تطبيق نظام العزابة في جربة » من ص 153 الى ص 319 (4 أ)

ويبدو الامر اول وهلة طبيعيا ، ولكن

حين نعود الى عنوان الكتاب (ونحسب انه ايضا عنوان شهادة الكفاءة في البحث) نلمس خللا واضحا في المنهجية ، فقد وصل الى الموضوع بعد مدخل وثلاثة فصول اساسية ، ثم يتحدث في الفصل الرابع والاخير عن نظام العزابة في جربة .

ونلاحظ في هذا الصدد ان الحديث عن نظام العزابة من الصفحة الاولى الى ص 150 يتعلق بمناطق الفرقة الاباضية في المغرب بصفة عامة ، آلا تقتضي المنهجية السليمة — اذن — ان يكون العنوان منسجما مع المحتوى ،فيرشدنا الى ان الحديث عن نظام العزابة عند الاباضية ببلاد المغرب مع عنوان ثانوي — ان اقتضى الامر — يشير الى تطبيقه بجزيرة جربة .

وقد حرصنا على أثارة هذه النقطة لان تصميم الموضوع وتوزيع مادته يعد — في راينا — من اهم النقاط المنهجية في دراسة علمية ، ثم نلاحظ في الآن نفسه ان عنوان الفصل الرابع هو « تطبيق نظام العزابة في جربة » ، ويتطلع القارىء الى معرفة تفاصيل هذا النظام في جربة ، وكيف طبق ؟ ولكنه يجد نفسه امام تاليف مستقل يبدا بترجمة صاحب الفكرة ابي مسور اليهراسني ص 153 — 165 ثم جماعة غار مجماج ص 167 — 176 ، ثم يعود الى ترجمة ابي زكرياء فصيل بن ابي مسور اليهراسني ، ص 177 — 185 . ونلاحظ ان فصيل بن ابي مسور هو شيخ ابي عبد الله محمد بن بكر مؤسس نظام العزابة ، وقد ترجم له المؤلف طويلا في الفصل الثاني ابتداء من ص 61

أليس من التسلسل المنطقي السليم ان يتم الحديث عن ابي مسور ، وابنه فصيل في التوطئة عن الظروف التي جعلت شيوخ الدعوة الاباضية يفكرون في ارساء قواعد نظام العزابة ، ثم تكليف ابي عبد الله بذلك ، وترجمته ، وبعد ذلك يشرع في الحديث عن محتوى نظام العزابة ، ثم تختص جربة بفصل عن الشيوخ الذين سهروا على تطبيق هذا النظام ، بها ، لان النظام في الحقيقة واحد ، فهو الذي طبق بجبل نفوسة ، و في بني مزاب ، او في جربة . والعصر الرابع المشار اليه لا يتجاوز تراجم الشيوخ الاباضيين الذين اشرفوا على نظام العزابة في جربة من النصف الاول للقرن الخامس الهجري الى القرن الثالث عشر الهجري .

وقد أدى هذا التناقض الواضح بين عنوان الكتاب ومحتواه ، وعدم الدقة في الترتيب الى خلط منهجي بين .

10 — ص 313 : الخاتمة ، وهي حسب النص خاتمة للكتاب كله ، ثم نجد في الصفحة الموالية 314 فقرة بعنوان « بقايا هذا النظام بجربة » .

ثانيا — ملاحظات حول المحتوى : (5)

1 — ص 17 ، سطر 9 : « واذا علمنا تغلب دول الاباضية على طرابلس في القرن الثاني هـ ... من سنة 127 هـ ... الى 149 هـ ... » .

ما معنى استعمال صيغة « دول الاباضية ، وهل نستطيع الحديث عن دولة إباضية قبل تأسيس تاهرت . فقد عرفت منطقة طرابلس احداثا عسكرية بين عبد الرحمان بن حبيب الفهري والاباضيين ، ولا سيما بعد مقتل عبد الله بن مسعود التجيبي انتصر فيها الاباضيون فسيطروا على طرابلس ، ثم انتزعت منهم سنة 132 هـ في ارجح الروايات ، ثم سيطروا عليها بزعامة ابي الخطاب المعافري سنة 141 هـ وبعد سقوط حكم الفهريين في القيروان . ثم استرجعها الجيش العباسي بقيادة محمد بن الاشعث الخزاعي بعد انتصاره في معركة تاورغاء (6) في صفر سنة 144 هـ ، ومقتل ابي الخطاب .

اما فقرة المؤلف فتشير الى تعاقب « دول » إباضية على طرابلس من سنة 127 هـ الى 149 هـ ، وهو زعم غريب .

2 — ص 18 ، سطر 7 : يتحدث عن الفرقة الاباضية فيقول « سميت بهذا الاسم نسبة لامامها السياسي عبد الله إبن إباض » فقد كان عبد الله بن اباض امامها الديني قبل كل شيء ، ولو قال « امامها الديني — السياسي » لجاز ذلك .

3 — ص 18 ، سطر 11 : يحيل في حديثه عن « الاباضية في المغرب » على مرجع معاصر يتمثل في مقال نشره الشيخ بكري بالفرنسية في « حوليات معهد الدراسات الشرقية A.I.E.O. بالجزائر سنة 1957 ، ولا يذكر المصادر الاباضية نفسها مثل « طبقات المشائخ للدرجيني ، او السير للشماخي . و مصادر تاريخ المغرب الكلاسيكية المعروفة مثل « البيان المغرب » لابن عذاري .

4 — ص 24 ، سطر 13 : « اما سقوط الدولة الرستميةفقد نتجت عنه ثورتان ويعني هنا ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد ، وثورة ابي خزر يغلى بن زلتاف . اننا لا نستطيع علميا وتاريخيا ان نقول ان الانتفاضتين جاءتا نتيجة سقوط الدولة الرستمية .

5 — ص 56 يضع فقرة تحت عنوان « مؤلفاته وبعض آرائه » ، فيكتب ثلاثة سطور عن مؤلفاته في نقل غير منهجي ويذكر لنا عن آرائه ثلاث نصائح من الكلام العادي البسيط ويبقى القارئ يترقب التعرف الى آرائه في شؤون الدعوة ، او في الفقه الاباضي ، او في غيرهما من المسائل الدينية .

6 — ص 61 ، سطر 14 : يتحدث عن المعنى الاصطلاحي لكلمة العزابة قائلا : (يقول ابو عمار عبد الكافي « ومن هنا (الخمسون الاولى من المائة الخامسة هـ القرن الحادي عشر م ابتداء « العزابة » ثم يقول في تعليق « طبقات أبي عمار : انظر بداية الجزء الاول من طبقات الدرجيني ص 6

اما نص الدرجيني فهو : « وممن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الخامسة ، ومن هنا ابتداء العزابة ، ابو عبد الله محمد بن بكر ... » (7) ويخبرنا في الورقة السابقة (3 ب) قائلا : « هذا الفصل نقلته مما فعله الشيخ ابو عمار عبد الكافي » .

ونظرا ان المؤلف أحال على الدرجيني فلا نعرف — اذن — هل ان الجملة الموضوعة بين قوسين هي فعلا من كلام ابي عمار عبد الكافي ؟ ثم أين هو كتاب الطبقات لابي عمار الذي وقعت عليه الاحالة ، وحتى تدرك مدى الخلط ننقل لك ما جاء حول هذا الكتاب في قائمة المراجع (ص 340) :

« ابو عمار عبد الكافي ق 6 هـ :12 م .

الطبقات : ذكر اسماء علماء الاباضية الى القرن 6 هـ/12 م في بداية ج 1 من طبقات الدرجيني خ البارونية نسخ 1174 هـ » فهل يفهم المرء شيـ —

هذا ؟ فما دام المؤلف وضع كتاب ابي عمار بين « المراجع » فان القارىء ينتظر ان يذكر مكان المخطوط ورقمه ، ان كان له رقم ولكنه يقرأ انه مخطوط » في بداية ج 1 من طبقات الدرجيني » .

7 – هنالك كثير من الملاحظات البسيطة والمقارنات **الغريبة** نشير على سبيل المثال الى ما يلي : يتحدث عن مراقبة العزابة لحفظ التلاميذ للقران فيقول : « وهذا الحفظ يمكن طالب القرآن من ان يرتقي الى الدرجة الثانية فهو بمثابة مناظرة الدخول الى التعليم الثانوي » (ص 139) .

8 – ص 72 سطر 6 : نقل جمله – اثناء الحديث عن مظهر العزابة الخارجي في سطر 8 عن نظام العزابة الذي رتبه ابو عبد الله بن بكر كما جاء في « طبقات المشائخ » للدرجيني ووضعها بين قوسين محيلا على البرادي في تعليق رقم 6 . ثم اخذ ينقل النص حرفيا دون وضعه بين قوسين ودون إحالة في **الهامش** وذلك من ص 72 سطر 9 الى ص 73 سطر . وياليته نقل حرفيا فحسب بل نجده يتصرف في النص قصد تقويمه . فيخطىء احيانا حين يحاول اصلاح الصواب (8) !

واليك بعض الامثلة :

اولا – ص 72 . سطر 9 : نقل المؤلف العبارة التالية :

« منها اول ما يتجرد من طريقة اهل الدنيا بحلق شعر راسه . ثم لا يتركه يطول أبدا . فالعزابة من شانهم عدم (ترك) الشعر » .

وأصل النص : « فمنها انه اول ما يتجرد ... فالعزابة من شانهم عدم الشعور » .

ونلاحظ هنا ان اسلوب الدرجيني لا يخلو من بعض الكلمات والتراكيب العامية شانه في ذلك شان كثير من المصادر الاباضية المتاخرة . ان الطريقة السليمة تقتضي ترك النص كما جاء في المصدر المنقول عنه مع اقتراح تغيير في الهامش .

ثانيا – ص 72 سطر 11 : « ومنها الا يلبس ثوبا مصبوغا إلا الابيض ولا باس بعلم الطرفين والطراز ما لم يتفاحشا » .

وأصل النص : « الا يلبس ثوبا مصبوغا إلا البياض ولا باس بعلم الطرفين ... » (طبقات المشائخ ورقة 47 ب) .

وما معنى « .... ولا باس بعلم الطرفين والطراز ما لم يتفاحشا » في هذا السياق والصواب : « ... ولا باس بعلم الطرفين والطراز ... » .

ثالثا – ص 72 ، سطر 13 : « ثم ان اقتصر على عباءة او ملحفة لم يشنه ذلك ولم يعبه بل ذلك به أليق وان لبس ذلك على قميص كان أكمل ما لم يكن مبتدئا . ولا سبيل الى اقتصاره على قميص دون اشتماله او التحافه وارتدائه » وورد النص في « طبقات المشائخ » «ثم ان اقتصر على عباءة او ملحفة .... ولا سبيل الى اقتصاره على قميص دون اشتمال او التحاف وارتداء » .

رابعا – ص 73 ، سطر 1 : « ان اعتم فالتلحي على ما جاء في الاثر . وليس العمامة بضربة لازب » . ويعلق على هذه الجملة قائلا : « اي العمامة ليست ضرورية اذ يضيف انه يمكن الاستغناء عنها » فما هو الامر الغامض الذي فسره ؟ ثم ما دام ينقل حرفيا عن نص الدرجيني دون احالة او تنبيه فلماذا حذف الجملة وتلخيصها في التعليق ؟

جاء في طبقات الدرجيني : « وان اعتم فالتلحي على ما جاء في الاثر ، وليس لبس العمامة بضربة لازبة بل لا باس باستغنائه عنها . فان اقتصر على العباءة ... » وبعد حذف الجملة المذكورة يواصل المؤلف النقل الحرفي عن الدرجيني دون حرج !

ولا يتسع هذا المجال لمواصلة المقارنة بين نص المؤلف ، وهو نص يبدو للقارىء انه من تاليفه ، وبين ما ورد في طبقات الدرجيني ، ولكننا نلاحظ ان هذا النقل الذي يكاد يكون حرفيا يستمر خلال صفحات !ابتداء من صفحة 117 (9) .

9 – ص 205 **سطر 1** : يخبرنا المؤلف انه سيعتمد ابتداء من هذه الصفحة على الملحق الاول من كتابه ص 324 . وهو عبارة عن رسالة لسليمان الحيلاتي لا تتجاوز صفحة ونصفا . ثم يتحدث عن يعيش بن موسى الزواغي . ونظرا لندرة المصادر حول اخباره يذهب المؤلف **بعيدا** في الافتراض والاستنتاج ونورد هنا مثالا على ذلك من امثلة كثيرة يذكر **الحيلاتي** في رسالته ان العزابة من زمان الشيخ يعيش بن موسى في القرن السابع الهجري تجتمع عليه في كل نازلة ... (10) .

وتتحول هذه الاشارة عند المؤلف الى ما يلي : « ويذكر الحيلاتي انه **شيخ الحلقة** في القرن السابع » ويذكر **الحيلاتي** ما يفيد ان وفاته كانت بعد سنة 750 هـ » كيف حدث هذا الاستنتاج . وتم ضبط السنة ؟ وقد يقبل المرء هذا الاستنتاج لكن كيف يستطيع المرء ان يستنتج من نص الحيلاتي ان مسجد وادي الزبيب اسس من اجل الشيخ يعيش لمجرد انه قريب من مسكنه (ص 206)وفي ترجمة ابي القاسم البرادي يقول : « يعتبره الحيلاتي شيخ العزابة في هذه الفترة » (ص 208 . سطر 3) وورد نص الحيلاتي كما حققه المؤلف نفسه بالصيغة التالية :

« ثم تولى بعده (اي بعد الشيخ يعيش) الشيخ ابو الفضل قاسم البرادي وهو المدرس بالجامع المذكور . واذا وردت نازلة **يجتمع هو واكابر المشائخ عند عمنا سعيد يامون** » (ص 328)

فهل يدل هذا النص انه كان شيخ العزابة !

وبعد ان اعلمنا في ص 208 ان الحيلاتي يعتبر البرادي شيخ العزابة . ثم يقول انه توفي في بداية القرن التاسع الهجري . يذكر في ترجمة سعيد يامون (ص 209) ما يلي . « لم نجد عنه الا ما ذكره الحيلاتي وقد نقله عنه ابن تعاريت ويفيد (اي ما ذكره الحيلاتي) انه شيخ عزابة جربة » ويعلمنا في السطر الموالي انه توفي سنة 800 هـ . اي قبل وفاة البرادي . وليفهم القارىء بعد ذلك ما يشاء !

ولا مناص في نهاية هذه الملاحظات من الاشارة الى كثرة الاخطاء المطبعية . وقد حاول المؤلف تداركها في ملحق « الخطأ والصواب » ص 384 – 387 . ولكن هذا الملحق لا يتضمن جميع الاخطاء مثلا : ص 9 . سطر 22 جملة مبتورة – قسطيلية جاءت في ص 32 قصطيلية . ثم في ص 35 : قصنطيليا . وفي ص 41 : قصطالية وقصطاليا .

اننا لم نفهم سر هذه العناوين الفرعية التي تفصلها بضعة سطور مثلا : ابو عبد الله في جبال بني مصعب – اسباب تنقله الى بني مصعب – نشاطه بجبال

بني مصعب ص 39 ــ 40 .

اما اهم ما لاحظناه في اخراج الكتاب وطباعته ذلك البياض المتكرر داخل النص . انظر مثلا : ص 35 ، 36 ، 37 ، 38 ، 40 ، 45 ، 46 ، 50 ، 54 ، 55 ، 64 ، 65 ، 68 ، 69 ، 77 ، 78 ، 263 ، 329 ، 330 . ويشعر القارىء ان الهدف من ترك هذا البياض المتكرر في النص من اوله الى أخره هو تضخيم حجم الكتاب !

ان هذه اهم الملاحظات التي لفتت نظرنا اثناء قراءتنا للكتاب ، وقد اعرضنا عن ذكر كثير من الاخطاء الثانوية أملين ان تسهم هذه الملاحظات في دعم روح العناية والدقة من حيث المنهجية والمحتوى في الاعمال ذات الطابع العلمي .

الحبيب الجنحاني

---

(1) «ولقد اشرف على هذا البحث الدكتور محمد الطالبي ، وشارك في المناقشة الدكتور المنصف الشنوفي» ، مقدمة المؤلف ، ص 3 .

(2) نسجل في هذا الصدد بارتياح تشجيع المعهد لحركة النشر ، فقد صدر عنه في سنة 1975 كتابان : نظام العزابة ، ورصيد مكتبة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب بقسم المخطوطات بدار الكتب الوطنية .

(3) بعد ان يذكر المؤلف اسم المعهد الرسمي في الغلاف ، وفي الصفحات الاولى يأبى إلا أن يغيره في المقدمة ، فيسميه « المعهد القومي للآثار والفنون الاسلامية » .

انها ملاحظة هامشية حقا ، ولكن القارىء سيربط بينها وبين ملاحظات اخرى سنذكرها حول الطريقة .

(4) طبقات المشائخ ، مخطوط مكتبة معهد الاستشراق بجامع كراكوفيا ، رقم 275 ، ورقة 5 أ .

(4 أ) ان الفصل ينتهي في الحقيقة في ص 285 ، ثم تبدأ فقرة ليس لها علاقة متينة بعنوان الفصل تتحدث عن علاقة الاباضيين في جربة ببقية اهل الدعوة في جبل نفوسة ، ووادي مزاب ، وعمان ، ثم الحديث عن صلة العزابة بالدول التي حكمت جربة او حاربتها .

(5) هنالك ملاحظة عامة تتصل بالمحتوى ، وهي طغيان طريقة سرد المعلومات ، وانعدام المنهج التحليلي .

(6) مسيرة ثمانية ايام من طرابلس .

(7) « طبقات المشائخ » ، ورقة 4 أ .

(8) اعتمدت في المقارنة على مخطوط جامعة كراكوفيا من « طبقات المشائخ » ، والاحظ ان المؤلف يقول في تعليق رقم 5 وقد اعتمدت على البرادي بعد ان قارنت بين النصين لتوفّره اكثر من الطبقات .

(9) قارن ذلك بنص الدرجيني في « طبقات المشائخ » سبق ذكره ورقة 48 أ ، وما بعدها .

(10) ص 328 وقد وردت هذه الفقرة مضطربة في تحقيق المؤلف للرسالة

○ زمن الزخارف

سمير العيادي
الدار العربية للكتاب
122 صفحة

صدر أخيرا كتاب « زمن الزخارف » للكاتب التونسي سمير العيادي عن الدار العربية للكتاب (مارس 1976) . وهو مجموعة قصصية جاءت في 122 صفحة واحتوت على سبع أقاصيص هي : **الشمعة قبل انطفائها ـ غياب حضرة الدكتور ـ المفكر فوق الصخرة الملساء ـ قصة حريق ـ السيف والسياف ـ حديث الشرفات العالية ـ حقد مستوحى من قصة بوليسية .**

ويختتم أول « **قارىء** » **لهذا الكتاب ، وهو عزالدين المدني ، المجموعة القصصية بقراءة** « **زمن الزخارف** » ، والمدني لا يغلق الكتاب في الحقيقة ، بل يفتحه من جديد ، تحت أضواء جديدة ، تنشرها مجلة الحياة الثقافية في هذا العدد لاهمية المسائل المطروحة التي تطرحها أولا ، ومساهمة متواضعة منها في التعريف بهذا الكتاب ثانيا .

قرأت بعناية هذه المجموعة القصصية التي يصدرها سمير العيادي بعنوان « **زمن الزخارف** » . وكذلك المجموعة القصصية الاولى التي حملت عنوان « **صخب الصمت** » ، والتي آثارت في مطلع السبعينات بتونس حدثا أدبيا نشرت أصداءه الاذاعة والتلفزة والمجلات التونسية والعربية ، وأسهمت أيضا إسهاما كبيرا في دعم الحركة الادبية ، بل والفكرية والفنية التونسية الجديدة ، وبلورتها ضمن أفراد « جيل الاستقلال » وخارجهم .

لقد كانت قراءتي لهذه المجموعة القصصية الثانية متعددة الاوجه ، متباينة الدرجات ، أعتقد أنها كانت على قدر ما فيها من مستويات ، لكني لم أستنفد شحنتها كافة ... وشأن هذه المجموعة القصصية كشأن كل نص أدبي ـ كقطع الشعر ، ونماذج الرواية والقصة ، ونصوص النقد ، وانماط المسرح ، والملاحم ، والسير يخضع لامكانات البعد ، ويتقيد بالتاويل ، ولا يفلت من الاعتراض .

البعد : ما يرمي اليه الكاتب (كسمير العيادي) من اهداف في الكتابة الجمالية ، والموضوعية ، واللغوية ، والصوتية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والذاتية الشخصية ، وغيرها . (بقطع النظر عن نجاح الاهداف او خيبتها) ذلك ان الكتابة كل شامل ، لا يمكن ان تتفاضل العناصر على بعضها البعض ، والا كانت الكتابة مبتورة .

التاويل : ما يتلقاه القارىء (مثلي ومثلك) من الذبذبات الادبية الصادرة عن النص في اثناء القراءة وبعدها . فمنها ما يوثقه القارىء في حافظته الادبية توثيقا لاشعوريا لانه مسلم بها . ومنها ما يصبغه القارىء بالوان من تربيته ، وظنونه المسبقة ، ومواقفه ، وتكوينه الثقافي والسياسي والحضاري ، ومعتقداته ، واستلاباته اليوميه . ومنها ما يتمثل به القارىء في العديد من أرائه ومواقفه .

الاعتراض : ما يقدمه القارىء في حاضر النص وفي امتداده عبر المستقبل دوما من وجهات نظر تناقش في حدها الادنى ما يتلقاه من الذبذبات ، وتحتج في مستواها الاوسط على ما افسده الزمن

فيها ، وترفض رفضا باتا على صعيدها الاعلى كل ما لا يجسم فيها روح العصر ، وما لا ينسجم ضمنها مع القيم الانسانية القارة .

ذلك ان القارىء بديل النص

لكن النص يبقى هو النص لا يعوض . كأنه كائن حي . لانه طرف في نزاع الزمن .

لن الجأ الى البحث عن مفاتيح هذه المجموعة القصصية . لان « زمن الزخارف » ليست قفلا . ولا كنزا مدفونا . ولا لغة قبلية « البورورو » . ولا هيكلا من معميات الطلاسم والالغاز والرموز ...

فكل نص فتح وفاتح ومفتوح .

لا أحب أن أعرض على القارىء عضلاتي النظرية والنقدية المفتولة في القصة والرواية والادب خلال هذه القراءة .

إذ أن ميدان الكتابة غير ميدان « الكاراتي » .

فالناقد هو اللاحق دوما ، ولذلك هو متواضع .

لن استعمل التفكير الميكانيكي الذي يقول بالحتمية الميكانيكية ، فأدين الكاتب بالبرجزة الصغيرة مثلا لانه عالج قضايا الحب والموت والبورجوازية الصغيرة .

اعتقد ان القارىء راشد ، ولا حاجة به الى التوعية .

حسبي ان اشارك القارىء فيما تلقاه من الذبذبات ، وفيما اضفاه عليها من الوان شخصية ، وفيما قد يقدمه من بديل ، فاعلمه بالدائرة الفكرية والفنية التي تحور فيها « **زمن الزخارف** » حتى اساعده على ادراك هذه المجموعة القصصية ، وفهم صاحبها ، ومتابعة نشاط الحركة الادبية التونسية الجديدة .

ينتمي سمير العيادي بحكم سنه (مولود سنة 1947) وانتاجه (اول ما نشر سنة 1963) الى جيل الاستقلال . وهو جيل الكتاب والفنانين التونسيين الذي برز اثر سنة 1956 سنة استقلال تونس ، وعلى وجه التحديد في مطلع السنوات الستين .

وهذا الجيل يختلف عن الاجيال الادبية والفنية التي سبقته . فلئن كان الجيل الاول (1900 ـ 1930) قد جدد الشعر وانشأ القصة والمسرح والرواية واخذها من الغرب جميعا ، وزرعها في الارض الفكرية التونسية ، ولئن كان الجيل الثاني (1930 ـ 1950) قد دعم القصة ، وركز المسرح ، واستوحى بعض انتاجه من التراثين الشعبي والادبي القديم ، واخيرا ، لئن كان الجيل الثالث (1950 ـ 1960) تابعا لموجات الشرق والغرب ، وهزيل الانتاج في القصة والرواية والمسرح والشعر في معظمه مع برعجة في الطرائق الاستشراقية الخماء ، وسبب ذلك الهزال انشغاله بالكفاح التحريري ولنخراطه في العمل النقابي ثم من جراء توليه المناصب ، فان الجيل الرابع قد اضطلع بتحمل مسؤولية انتاج :

ادب لا يخضع للشرق ولا للغرب : تونسي عربي .

فكر يتضمن القيم الانسانية القارة كالحرية والعدالة وينود عنها : خلاق ، شاب دوما ، يتحاور مع التراث ، ويراجع التاريخ ، ويحاسب مساره ...

فن تتجدد نظرته واشكاله وصيغه مع تجدد الزمن ، وياخذ ادواته من العلم والمعرفة والفلسفة : فلا يحاكي ، ولا يقلد ، ولا يقرد ، بل يبحث ، ويختبر ، ويجرب .

وطبيعي ان كافة افراد الجيل الرابع لا يتقاسمون هذه المبادىء ، ولا يتشاركون فيها . الا ان الكثير منهم ـ ومن بينهم سمير العيادي ـ اكدوا هذه المبادىء ، وجسموها من خلال اعمالهم الشعرية ، والقصصية ، والمسرحية ، والثقافية العامة .

ان هذه المبادىء التي تبدو بديهية في نظر البعض لاول وهلة هي في حقيقة الامر خطرة ، وجريئة ، ومتحدية ، لا سيما اذا علمنا انه كلما نطق ناطق بفكرة ، او باتجاه ، او بنظرة ، او بموضة في الشرق او الغرب الا ترددت اصداؤه في تونس من مطلع القرن العشرين الى السنوات الخمسين . فكأن تونس ، وشعب تونس ، وآمال تونس هي الفرع ، وكأن الآخرين هم الاصل . وهذا لون من الاستلاب الثقافي المرير ! على ان هناك استثناءات نورانية في خضم هذه الضحالة الشخماء المتكررة عبر السنين : اقصد ابا القاسم الشابي ، والطاهر الحداد ، وعلي الدوعاجي .

لقد اعلن الكاتب احمد الهرقام ، وهو على حق ، في منتصف السنوات الستين ان جيل الاستقلال هو جيل الرفض : رفض الاصداء المصطنعة والمشاكل الفكرية الهامشية ، رفض الضحالة والرداءة ، رفض الاستلاب المجنون ، رفض التبعية ، رفض الدمغجة ، رفض الاصالة (الاستعمارية ثم الاستشراقية الجامدة) ، رفض التفتح (التعامل مع الثقافة الامبريالية) ، رفض القوالب ، والكليشيات ، والافكار الجاهزة ، والمعتقدات المتعفنة .

وذلك في سبيل بناء ادب جديد ، كأن تقول بالمثل : في سبيل بناء انسان جديد .

وفي انتظار الحضارة العالمية الطوباوية ، لا بد للادب ـ لاي ادب كان ـ من حد ادنى من الوطنية ليصهره في القضايا الشعبية ، وكذلك من القومية ليقيه جنون الاستلاب .

ولقد تصدى فريق من كتاب جيل الاستقلال ـ ومن بينهم سمير العيادي ـ لمعارك فكرية متعددة ، من اهمها قضية الشكل الفني في الرواية والمسرحية والشعر والقصة بالخصوص . فلذلك نحن نلاحظ اهتمام الكاتب في هذه المجموعة القصصية بهذه القضية .

فعلا ، لقد طرحت هذه القضية بكثير من الحماس في اواخر الستينات نظريا ، وتطبيقا فنيا ، ونقدا ، حتى حسب بعض من الدارسين ان افراد هذه الجماعة من الكتاب انما هم من « الشكليين » ، وبتعبير آخر يزعمون ان هؤلاء الكتاب الشبان اوقفوا اهتمامهم بالشكل دون غيره من القضايا ، فصاروا يكيفون الشكل في سبيل الشكل ، كأن تقول ايضا يخدمون الفن من اجل الفن ، وتبعا لذلك ـ حسب زعمهم ـ فاعمالهم مجردة او هي خاوية من كل مضمون ! وهذا ابشع نعت الصق بافراد هذه الجماعة ، لانه نعت يرمز الى البرعجة ، والى الانواق المترفة اللامنتمية ، والى الاستلاب ! وسمير العيادي ورفاقه لا يوافقون على هذا النعت ، بل ينكرونه ، ويتبرأون منه .

رغم كل ما جرى وما سيجري ، كان لا مناص من طرح قضية الشكل الفني ، لا سيما بعد دراسة الادب التونسي وواقعه ، وكذلك الادب العربي ووضعه خلال القرن العشرين . وقد لاحظت هذه

الجماعة ـ بكل اسف ـ ان كتاب القصة والرواية والمسرحية العرب في معظمهم يقلدون الى حد الهوس اعمال الكتاب الغربيين ، لا يقلدونهم في المواضيع ، وانما ـ وهو الاشد والانكى ـ في التركيب القصصي والمسرحي والروائي ، وفي طريقة رسم الشخصيات ، وتصوير الاجواء ، وفي صفة النظرة الى الدنيا والناس والواقع .

كان طرح هذه القضية بمثابة دعوة ملحة الى الاختراع ، والى الخلق ، والى كسر التبعية التي كانت تربطنا بالكتاب الغربيين وتهيمن علينا باعجابنا بهم !

كان طرح هذه القضية عبارة عن نداء موجه الى الكتاب والفنانين في سبيل ابتكار اشكال فنية تكون مستخرجة من واقعنا ، وعصارة لتجارب شعبنا وامتنا ، واشعاعا مقتبسا من مطامحنا .

ومجال الابتكار واسع عريض عميق ، اذ يمكن الاعتماد على اشكال العلوم ، ومختلف الفنون ، وشتى المعارف الاخرى .

لا حاجة بنا الى تجارب الكتاب الغربيين ، اللهم الا الاطلاع عليها . فلتكن القطيعة بيننا وبينهم . لنفتح امام ابصارنا ، وصدورنا ، وادمغتنا ، وذكرياتنا ، واحلامنا ، وواقعنا ، وآمالنا ابواب الخيال الكبرى .

ولنخترع ، ولنخلق ، ولنبتكر !

فكيف لا نكون قادرين ، بينما نحن بصدد خلق انسان جديد ؟

وعلينا ان نخرج من هذه المأساة : فالبدوي الذي يقود السيارة يجهلها لانه لم يخلقها . ونحن نريد ان يخلق الانسان التونسي العربي سيارته ليقودها .

وحين نريد ان نترجم هذه الصورة الصناعية نقول ويقول معنا سمير العيادي من وراء نصوص قصص هذه المجموعة الثانية وتلك المجموعة الاولى :

نحن نريد ان نخلق الشكل الفني لا ان نقتصر على استعماله من عند الغير ، ان يصدر عن تجاربنا الحياتية ، لا ان نجعله قالبا لمواضيعنا ، ان نستقل بخيالنا حتى تكون احلامنا حبلى بالابداع !

واخيرا ، لئن كان طرح قضية الشكل الفني دعوة الى القطيعة فانه نداء ملح الى الخلق القوي الجبار !

« زمن الزخارف » ، و « صخب الصمت » و « عطشان يا صبايا » هذه النصوص القصصية والمسرحية تطرح بصورة حادة وجادة قضية المضمون لا في النطاق الخاص بسمير العيادي فحسب ، بل ايضا في اطار كافة الاعمال التي انتجها افراد تلك الجماعة من الكتاب الشبان الذين اثاروا قضية الشكل بحماس .

واول ما الاحظه لارفع به كل التباس ، ان في اي عمل من الاعمال الفنية القديمة والحديثة ، الكلاسيكية والتجريبية ، لا يمكن عزل المضمون عن الشكل ولا الشكل عن المضمون . والا كان العمل مبتورا . اذ هما متطابقان تطابقا كليا . وانما الذي يفصم بينهما ويفرق هو التنظير ، وهو النقد ايضا لتيسير التحليل والتقييم .

ومن الطبيعي ان هؤلاء الكتاب حين اختاروا الكتابة بوصفها حرفة يومية لم يكن في استطاعتهم ان يقولوا للناس على اعمدة الجرائد والمجلات : ها هي المواضيع التي سنطرقها في قصصنا ومسرحياتنا واشعارنا . فيكون هذا ، بمثابة التوصيات والقرارات ... وما ابعدهم عن ذلك الغرور .

ومقابل ذلك ، فمن الطبيعي ايضا ان هؤلاء الكتاب الذين ولدوا ، ونشأوا ، وتثقفوا في احضان الاصناف الاجتماعية الضعيفة والمحرومة (من عمال وصغار الحرفيين والفلاحين) قبيل الاستقلال وبعده ، والاكثر طموحا ، وآمالا من الاصناف الاجتماعية الاخرى ، هؤلاء الكتاب سوف يحسون في اعمالهم المنتظرة بآلام الانسان التونسي الكادح ـ فكرا وعملا ـ الذي ولد ـ هو نفسه ايضا ـ جسما ووعيا من سنة 1956 الى اليوم ... والى الغد : وهو الزمن الحاضر . زمن حضائر بناء البلاد ، واعادة تصنيف المجتمع ، وتحقيق المطامح العظمى ، واغتصاب التاريخ واكراهه على السير نحو المصير العادل الحر .

وزمننا هذا لا يشبه اي زمن مضى : فهو عصارة الماضي ، وتوتر الحاضر ، واشعاع المستقبل . وهو متراكب الاطراف ، متداخل الاوصال ، مشوش العلامات ، والوضوح قليل ، لان الشجرة تخفي الغابة كما يقول المثل الفرنسي . لكن في نظر من ؟ في نظر اصحاب الزخارف طبعا !

وهذا الانسان الذي نعايشه قديم وجديد ، قديم الحضارة ، جديد المجتمع ، عتيق وحديث ، عتيق الفكر ، حديث النزوع ، ذو قرار وتحول ، قرار التقاليد ، تحول الحياة اليومية ، في منزعه حرية ، وفي توقه عدالة ، وفي سيره اضطراب وقلق ، وفي نفسه كثير من التمتع .

وهذه الساحة الكبرى التي يتجول فيها لا تقف عند حدود الوطن ، ولا تنحصر في رقعة الحضارة العربية الاسلامية ، بل تتجاوز كل ذلك الى دنيا « المتخلفين » اذا احببت او الى عالم السائرين في طريق النمو اذا شئت . هذه الساحة التي تهيج فيها رياح العجاج والفوضى ، قد تكدست في وسطها المشكلات المصيرية ، والمعضلات الاجتماعية ، والقضايا الاقتصادية ، وقد شهدت فتح الثوريين المؤمنين بالنصر .

وهذه الامكنة التي جعلها هؤلاء الكتاب (ومنهم سمير العيادي في هذه المجموعة) اركاحا لقصصهم ومسرحياتهم هي القرية الفقيرة الصابرة تحت شواظ الشمس وسخط السماء ، وهي الطامعة في المياه الصافية ، هي البلدة المكتظة بمشاكل السوق والسلطة والجنس والطعام ، هي الاحياء الشعبية (الخلفية في العاصمة والمدن الكبرى) التي يختبىء فيها بقايا البشر كالنمل ، هي الشوارع والحدائق العمومية والمقاهي والبارات المزدحمة بالعلاقات الانسانية الملتبسة والمغرضة والبريئة ، موطن الاوهام ، والسخرية ، والزخارف ، والخرافات ، والصخب ، والعدوان ، وعنابر السفن والبواخر ملجأ الهاملين المعذبين المدمرين الذين ارقهم الامل في سبيل نيل حياة عادلة حرة .

في هذه الساحة الكبرى وامام هذا الديكور ، يبحث الانسان عن وجهه ، ويحلل علاقته بالآخرين ، ويمسح عينه ليبصر الساحة كما هي ، لا كما ان تكون ، وهو فوق ذلك مريض الجسم ، معتل النفس ، ووجهه قبيح او مفقود ، وعلاقته مبتورة يكهر بها الصراع ، والآخرون خائفون ، وخائنون ، ومتكبرون ، وعدوانيون .

ورغم ذلك كلــــه فلنبن الانسان الجديد !

لا تفتقر المضامين الى اصدار بيانات وتوضيحات . كما كان الشان بالنسبة لقضية الاشكال . فلذلك اعيد القول بان وصف هؤلاء الكتاب ومن بينهم سمير العيادي بالشكليين انما هو من المهازل المحسوبة على الـدارسين غير الجديين .

ولعل في امثال « **زمن الزخارف** » من المجموعات القصصية والمسرحيات والاشعار والنصوص ـ بصورة عامة ـ غزارة في المضمون لم تشهدها قصص الاجيال الادبية السابقة الا قليلا . وحين اقول غزارة انما اريد ان اقول ايضا ثراء . وتنوعا . وخيالا قويا ينبىء عن مقدرة خلاقة لا شك في ابتكـارها . واستنباطها . وبحثها ... وان النقد الخاص Critique بالمضامين thématique (ولم يعرف الى حد الان في تونس الا قليلا وضعيفا مع الاسف) يثبت ما ذهبنا اليه من راي .

الكاتب (سمير العيادي) من بين هؤلاء الكتاب اخذ امر الكتابة والادب والفكر والفن ماخذ الجد . لكن بعض الناس قد توارثوا فكرة المهازل لتحديد موقفهم من الادب . لذلك هم لم يعترفوا بفعالية دور الكـاتب . لذلك هو ياخذ الادب ماخذ الجد لتنتفي المهازل ...

الكاتب (سمير العيادي) هو طرف في النزاع . وبتعريف آخر اقول انه غير متقلب المواقف (مثل بعض البسطاء) انه غير مهادن للقضايا المحرقة (كالكتاب الغربيين اللامعين الـذين ساخوا في اليسارية المشطة) انه غير الادباء المتحذلقين البهلوانيين التجار (كبعض كتاب الشرق) ، بل هو كاتب مناضل .

○ المجلـة الطبيـة التونسية

صدرت اخيرا « المجلة الطبية التونسية » في عدد ممتاز خاص بالطب النفسي في المغرب العربي ، ويحتوي على حوالي 142 صفحة من الورق الكبير الجيد .

والمجلة الطبية التونسية التي تصدر منذ ستين سنة تقريبا . فاجاتنا في عددها الاخير . باللغة العربية التي تغزو صفحاتها . الى جانب اللغتين الفرنسية والانقليزية « **وهو ما يؤكـد حرص اصحاب المقالات واسرة المجلة على اعطاء اللغة العربية المكانة اللائقة بها في تونس العربية المسلمة** » على حد تعبير السيد محمد مزالي الوزير السابق للصحة العمومية ورئيس اتحاد الكتاب التونسيين . في افتتاحية العدد نفسه . فلاول مرة في تاريخ هذه المجلة يكتب للغة العربية ان تقتحم الفضاء الطبي لتستوعب مصطلحاته العلمية بيسر وسهولة فتوضع بها الى جانب الانقليزية ، تلاخيص البحوث المكتوبة بالفرنسية . ولا شك ان ذلك اليسر كلف الاستاذ سليم عمار الذي اشرف على اعداد هذا العدد ووضع التلاخيص العربية وقتا ومشقة في التنقيب والبحث ، لان مثل هذا العمل وخاصة في بداياته ، هو من قبيل العمل الجماعي لا الفردي ، وذلك ما ينبغي التفكير فيه عند الترحيب بما أقدم عليه بكل شجاعة الاستاذ سليم عمار منذ ان القى محاضرته الطليعية « الهذيانات المزمنة » باللغة العربية في 21 فيفري الفارط (ونشرت بالعدد السادس من هذه المجلة) .

ولا يمكن لهذا العمل الجماعي ان يستوي الا اذا تهيأت له الاسس الصحيحة وهي لن تتهيأ ما لم تطرح المسألة في مستوى قومي يوفر لها ما يمكن توفيره من الاجهزة التي ستسهر على الانجاز .

ونعود لنتصفح هذا العدد الذي اشتمل على مجموعة كبيرة من الدراسات العلمية الهامة تناولت بالبحث جوانب متعددة من قضايا الطب النفسي ومشاكله بالمغرب العربي . ومن هذه الدراسات نص المحاضرة ـ الهذيانات المـزمنة ـ التي ألقاها الاستاذ سليم عمار يوم 21 فيفري 1976 بكلية الطب باللغة العربية ونظرا لقيمتها العلمية . كان بودنا لو ان الاستاذ الباحث وضع لها تلاخيص بالفرنسية والعربية والانقليزية على غرار ما تم بالنسبة للبحوث المكتوبة باللغة الفرنسية .

وللاستاذ سليم عمار بحث آخر باللغة الفرنسية يتعلق **بالطب العفسي العرقي والطب النفسي عبر الثقافات** ، وهو مدخل الى المشاكل التي يحدثها الصدام الناتج عن المثاقفة

في الصحة النفسية بالمغرب العربي . والطب النفسي عبر الاوساط الثقافية يتعرض الى مشاهدة حقل ثقافي معين بالنسبة للحقول الاخرى ولا بد حينئذ من معرفة الاضطرابات النفسية التي تبرز من خلال التغييرات السريعة التي تتصف بها اليوم البلاد السائرة في طريق النمو وذلك في مستويات ثلاثة :

ـ مستوى اهتماماتنا اليومية ذات الفوائد الخاصة كضرورة معرفة نسبة حالات العصاب من حالات النفاس ومعرفة نمط تطورها وقابليتها للطرق العلاجية ...

ـ مستوى مظاهر الصحة النفسية العامة وذلك بالنسبة لبعض المجموعات الآخذة في التثاقف والتي قد تتجسم اعراضها ، من جراء قبولها او رفضها للاوضاع الجديدة ، في السلوك المنحرف والادمان على الكحول والمخدرات وفي حالات الخمود والاكتئاب والمـــظاهر النفسجسدية المختلفة ...

ـ مستوى الطب النفسي للاطفال

ـ مستوى الانماط الخاصة لسلوك الاطفال والمـراهقين الذين هم بصدد التثاقف .

ويأتي المـــوضوع الثاني « **حول تنظيم مصالح الصحة النفسية بالبلاد السائرة في طريق النمو** » ، يتقدم فيه صاحب البحث الدكتور باكيري (من الجزائر) باقتراحات لتفادي الاوضاع التنظيمية المتدهورة وذلك بأن يرتكز العمل على :

ـ تكـوين شامل سريع للاطارات المختصة في الطب النفسي

ـ الكفالة بالمـريض خارج المستشفيات

ـ تحقيق قاعدة تنظيم محكمة لجهاز الطب النفسي مرنة ومتعددة المناهج وذلك :

أ ـ في ميادين المعالجة خارج المستشفى كالمستوصفات والعيادات

ب ـ وفي نطاق الاقامة بالمستشفى وقتا محدودا وخاصة بالنسبة للاطفال

ج ـ في نطاق الاقامة بالمستشفى كامل الوقت

وحول هذه المحاور الثلاثة ينبغي ان

تعمل ثلاثة نماذج من مصحات الطب النفسي :

اولا : اقسام استعجالية للطب النفسي تحدث وتدمج داخل جميع المستشفيات العامة ودور هذه المصحات النفسية ووضعها يفرضان تناسق العمل بينها وبين مصحات الطب النفسي الخارجية .

ثانيا : الطرق العلاجية الشاملة التي ينبغي ان تعيد النظر في مفهوم البيمرستان التقليدي لترتكز في المستقبل على مؤسسات لا تستوعب اكثر من 300 سرير .

ثالثا : مساعدة الحالات العقلية المزمنة باحداث مراكز جماعية مكتفية بذاتها اقتصاديا ، على ان تكون قريبة من مسقط راس المريض وألا تحتوي على اكثر من 200 شخص .

بحث اخر ذو اهمية خاصة ، اعده الاستاذان البحري والعنابي (من تونس) ويتعلق « **باضطرابات المهاجرين التونسيين النفسية اثر العودة الى تونس** » ويتناول خاصة الاوصاف السريرية والامراضية النفسية . وقد رسم الباحثان في البداية الخطوط العريضة للموضوع ثم نظروا في مجموعة من المهاجرين تتألف من 54 شخصا دخلوا مستشفى الامراض النفسية خلال سنوات 73/74/1975 ومن بينهم 42 شخصا غادروا ارض الوطن دون ان يتلقوا اعدادا يؤهلهم للمهاجرة . وتعلق تحليل الباحثين بالسن والمستوى الثقافي والاسباب المحركة ومظاهر الامراض الحادة وكذلك التحول المباشر الذي يصبح عليه المهاجر بعد عودته .

واهمية هذا البحث تتمثل في عدم العثور على سوابق مرضية نفسية عند هؤلاء المرضى وخاصة عدم وجود علامات خاصة تشير الى الاشكال الفصامية والزورية ثم ان اخطر المظاهر النفسية المرضية تحدث بعد مرور حوالي سنة من اقامة المريض بالخارج وهي تتأثر بخصوصية الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة انذاك في بلاد المهجر ، اه الانتكاس فقد لوحظ انه نادر بالاضافة الى كونه لا يحدث الا بعد مرور سنوات ثلاث من عودة المريض الى الوطن .

وفي المجلة عدة بحوث اخرى لا تقل اهمية عن التي لمحنا اليها ، ونذكر من تلك البحوث :

ـ الهستيريا عند الرجال بتونس للاستاذ الوصيف (تونس)

ـ الكشف الجانحي عن الحاجيات التي تقتضيها حالات اللاتكيف الذهني بالمغرب العربي الكبير للاساتذة بوسبسي واوار وياكر (الجزائر)

ـ نظام الاسعاف بالنسبة للامراض النفسية بالمغرب الاقصى ـ مشاكل الساعة وافاق المستقبل ـ للاستاذ الطيب الشكيلي (الرباط)

ـ المظاهر العامة للامراض النفسية بالجزائر للاستاذين بوسبسي وياكر (الجزائر)

ـ حالات الهواس النفاسي ـ على ضوء مائة مشاهدة مرضية ـ بالمغرب الاقصى . للاستاذين الشكيلي والخمليشي (الرباط)

ـ حول جهاز الاسعاف والنسبة المرضية في ميدان الطب النفسي بشرق الجزائر للاساتذة : بن اسماعيل وبن شريف وبن تركي (قسنطينة) .

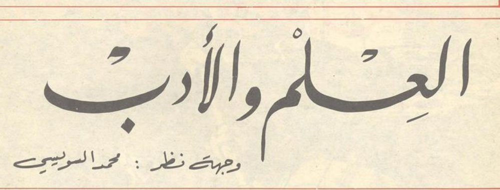
ـ الحالات الزورية الحساسية والمنهاج التربوي التقليدي بالمغرب الاقصى للاستاذين الشكيلي والسبيهي (الرباط)

ـ الاتحاد التونسي لمساعدة المتخلفين ذهنيا للاستاذ الشاذلي بن جعفر (تونس)

وقد اشرنا في البداية الى وجود محاضرة الاستاذ سليم عمار ـ الهذيانات المزمنة ـ وهي باللغة العربية ، وفي هذا الجانب العربي المحض وردت ايضا توصيات المؤتمر العربي الثاني للصحة النفسية الذي انعقد بالقاهرة في ديسمبر 1975 .

نور الدين عزيزة

ما انفكت الاسئلة حول علاقة الادب بالعلم او بالتكنولوجيا تطرح في مناسبات عديدة ، فهل هناك فروق جوهرية بين العلم والادب ؟ وهل ينبغي على الادب ان يخدم التكنولـوجيا ام العكس ؟ ذلك ما تحاول المقالتان التاليتان الاجابة عنه .



هل العلـم والادب ميدانان متنافران ،وهل هما يشكلان على حد تعبير الرياضيات العصرية مجموعتين مغلقتين منفصلتين الواحدة عن الاخرى ؟ وهل قسمت البشرية قسمين منعزلين الواحد عن الآخر ، لا يقاس أحدهما بما يقاس به الآخر ، فكان قسم الادباء وكان قسم العلماء ؟

كثيرا ما يتردد على أسماعنا ما يعتقده عدد عديد من الناس من ان الرياضيات مثلا علم جاف أجدب قاس لا يفقهه الا من كان يحمل منذ خلقه « حدبة الرياضيات » ، وان التفكير فيها لا يكون الا عن طريق سلسلة من القياسات الحتمية والعمليات المنطقية فلا مجال فيها للحدس وللخيال وبذا يعلل بعضهم خيبته في هذا الميدان مدعيا انه من البشر فله عواطفه وشعوره ، وخياله وذوقه الفني ولم يتحجر تحجرا آليا يجعله معلوم المنزع معين الاتجاه كالتابع الذي يتعين تماما اذا ما علم المتغير الاصلي الذي هو يتبعه والعلاقة التي تربطه به .

ويزعم الشق الثاني ان الشعراء ليسوا من البشر ، بل إن لهم جنا يفصلهم عن الناس اشد الفصل « الا تراهم في كل واد يهيمون » ؟ فهم ينعزلون عن بيئتهم ويخلـون الى « قمتهم التي يستحبونها ولا يستطيعون ان يسوغوا انفسهم الا فيها » (1)

على ان بعض الناس قد يسمي أهل العلم بهذا الوصف ، فقلب العالم مشغول وهو في غفلة تامة عما سوى بحثه ومطلبه ؟ وهم يصورون لنا منهم صورة كاريكاتورية مشوهة ، فهذا راصد للكواكب ناظر في النجوم لا يلتفت الى ما حوله على الارض ويعرض عن النظر فيما بين رجليه فيهوى ساقطا في أعماق جب ويلقى حتفه .

وهذا عالم رياضي شغل باله مشكل هندسي وجبري وكان بطريق من الطرقات حيث كانت عربة واقفة فاستعمل قفا العربة لوحة عالج عليها مشكلة فأقلعت العربة وصار الرياضي يجري خلفها متابعا عملياته الحسابية .

وفي ذلك أيضا ما روي عن هيئة الفلكي الفذ أبي الحسن علي بن يونس وعن زيه الاخرق وحركاته الشاذة عند تعاطيه الرصد على جبل المقطم قرب القاهرة ، فيذكر ذلك ابن خلكان في وفيات الاعيان (2) قائلا :

« قال الامير المختار المعروف بالمسبحي أخبرني ابو الحسن المنجم الطبراني انه طلع معه الى جبل المقطم وقد وقف للزهرة ، فنزع ثوبه وعمامته ولبس ثوبا نساويا احمر ومقنعة حمراء تقنع بها ، واخرج عودا فضرب به ، والبخور بين يديه ، فكـان عجبا من العجب ... »

ومما زادنا توغلا في هذا الرأي الفاشي القاضي بتقسيم البشر الى جنسين متناقضين متضاربين ما نذكر دائما من قولة قالها بسكال عندما تحدث عن عقلية الهندسة وعقلية الظرف « ولم يكتب لحكم من الاحكام أن يساء فهمه مثلما أسيء فهم هذه المقالة . فلا ينبغي أن يراد بالتعبير الاول مدلوله اللفظي الضيق بل يجب ان يكون مفهومه أفسح وأعم ، أي أن يقصد به معنى التدقيق والضبط والحتمية مهما كانت الظروف التي يوجد فيها وفي الآن نفسه ان انتاج بسكال ذاته في الرياضيات وفي علوم الطبيعة قد اتسم بالظرف بقدر ما كان يتصف بالدقة والضبط . والعديد من مصنفات العلماء ينطبع بطابع لا مثيل له من أشد أشكال الخيال تثنيا وميسا وتيها ومن أرق آيات الظرف وأجملها وألـطفها لونا وأعذبها رونقا ويقول برتراند رسل

« B. Russel » ان الرياضيات – إذا فهمت حق فهمها – ليكون فيها لا الحقيقة فحسب بل كذلك المثل الاسمى من الجمال » ثم إن الخلق والابداع ليكونان في العلوم بقدر ما يكونان في الشعر والادب .

والطرافة والظرف يصحبان الفكر البشري ساعة الخلق ، ولعمرك على حد تعبير بول فاليري P. Valery

« إن البشر جميعهم يخلقون ، دون أن يشعروا ، كما هم يتنفسون والفنان وحده يشعر في أعماقه بعملية الخلق (3) والعلم كالادب متعة للروح وغذاء للقلب والعقل ، وفيهما كليهما جمال قد يحل في اللفظ والعبارة والصورة او في المعنى او في الاسلوب والتسلسل والنظم .

واننا يهمنا اولا وبالذات ان نلحظ العقل البشري اثناء عملية الابداع والانشاء وعند قيامه بمهمة الخلق ... إنها حمى تسود الجسم وتسري مع الدم ، إنه تقطع في التنفس ، إنه جريض واختناق ... ثم يلوح بصيص من نور الادراك ، ثم يتم الاشراق وتكون النار بردا وسلاما ... وهذا هو ما يسمى بالانتاج الفكري فلا وجود له إلا زمن العمل أي عندما يأخذ العقل المخاض .

فالعلاقة الرياضية اذا ما تم الوقوف عليها ووقع تسجيلها ، والقانون الطبيعي اذا ما ضبط وحرر وحددت عباراته ، والقصيد الشعري اذا ما قيل أو كتب ، ما كل ذلك إلا رسم من الرسوم وكتابة من الكتابات يجري عليها ما يجري على غيرها من الاحكام ويمكن تقييمها بعين المقياس المستعمل مع سائر الكتابات فينظر اليها من ناحية جمال حروفها وتناسبها وتناسقها وتقطعها أو ارتباطها وعدد الحروف التي تشتمل عليها الخ .. أو هو قول يصح في شأنه ما يصح أن يوصف به القول ومجموعة الالفاظ من ناحية ارتفاع الصوت وجهوريته ونبراته وذبذباته وعيوب اللسان أو سلامته وانسجام الالفاظ أو تنافرها الخ .

إذن عمل القصيد هو القصيد وعمل البحث العلمي واستنباط الحقائق هو الخلق والانشاء.

نعم ان العالم او الفنان او الاديب عندما يستغرق كل منهم في بحوثه وينزوي أتم الانزواء داخل دائرته الخاصة ويخلو بنفسه ، او عندما يأوي الى ما وصف شططا بالبرج العاجي ، معتكفا ، مختليا بأخص ما تتميز به ذاته وشخصيته ، قد يكون في قرارة نفسه وفي صميم فكره انشغال بردود الفعل الخارجية التي قد يثيرها عمله ، منذ حال المخاض والجمع والتأليف ...

ومن العسير أن يكون الانسان وحيدا لا علاقة له بالغير ... بل هناك دوما تفاعل بين الانا والغير ، بين الخالق والكون ، بين المنشيء المبدع والمحيط الذي ينشيء فيه .

واذا ما اختار الفنان الخلاق اختيارا من الاختيارات او بذل جهدا من الجهود فينبغي البحث عن هذا الاختيار أو هذا الجهد لا في اطار الخلق نفسه ، بل خارجه ، في الاثر الذي قد يكون للانتاج الفكري او الفني وللمنتج به شعور ووعي قوي او ضعيف كما ينبغي البحث عنه ايضا في التأثر الذي قد يتأثر به المنتج نفسه ...

فهل بقي بعد هذا تنافر بين العمل العلمي وبين ما اتصفت به روائع الادب والفن من صفات الشمول والعموم والخلود وهل هناك ما يحول بين آيات العلم الحان اللانهاية التي تتردد في رناتها شوارد اعمال بني الانسان ؟

فهكذا يكون الفكر في حالة العمل متحولا بلا انقطاع من الانا الى الغير ، منقحا ما تجود به قريحته وما تنتجه ذاته الباطنية ، في صميمها ، حسبما يوحي له به هذا الاحساس الخاص براي الغير ...

كما أنه ، بلا شك ، قد يلوح من الاختلاف والتفاوت والتضارب ما يلوح عند نقد القصيد والحكم على اسلوبه ومعانيه ووسائل التعبير عنها ووقعها في النفوس ..

وقد يلوح مثل هذا الاختلاف عند التعرض الى الاسلوب العلمي ووضوحه وجلاء برهانه وصحة علله ووجاهتها ورونق عرضه ...

واذا أمعنا النظر ، قد تكون هذه الملاحظة ذاتها من الاهمية بمكان ، فالفروق التي قد تظهر بين ما يكون للانتاج الفكري من آثار وتعدد مظاهر هذه الآثار هي في الواقع من علامات العقل نفسه وهي عنوانه ، وهي قد تعبر بوضوح عما تراءى للمؤلف من عديد الوجهات عند قياسه بعملية الانتاج . وذلك أنه يحيط بالعمل الفكري ، مهما كان ، جو من عدم التعيين قل أو جل ، والفكر يحوم في مجال ، ينفسح او يضيق ، من الفوضى وحرية الاختيار يسوده الاتفاق والصدفة .

ومهما يكن ما نتوقعه أو نرجوه للحدث الفكري من الجلاء والوضوح ومن الجلال والجمال ، ومهما تنته اليه فيه فكرتنا او ينكشف به عنا ما كان يخامرنا من الريب والشك ، فما هذا الحدث بالامر البات القطعي الذي لا رجوع فيه ولا ثنيا وما زالت كل جزئية من جزئياته قابلة للتحول والانقلاب ...

وعمليات الفكر كلها اشرافات غير متوقعة ، ودياجير حالكة وارتجالات وتجارب وانطلاقات وتراجعات ، وترددات واعادات متكررة ..

وانه لمن القليل النادر ان يسلك المرء مسلكا واحدا لا يميل عنه ذات اليمين ولا يزيغ ذات الشمال، وقلما ينهج الفكر منهاجا منطقيا متجانسا من جنس واحد ومهما يكن للانسان من رجحان وقوة فالتضارب هو الوصف الاصلي لسلوكه والتردد هو الاساس في سيرته ...

وفي كل مواقد الفكرة نشاهد النار والرماد ، والحذر والتهور وتوخي الاسلوب القويم والاعراض عنه ،

وهناك الغرر والصدفة على آلاف انواعها .

والفنان والعالم يتكافأ عملاهما في هذه الحياة الغريبة ، بل انه يمكننا ان نقرر ان العقول وقت عملها هي هي، وانه يستحيل ان يلاحظ بينها اي فرق عضوي .

وفي الختام اذا ما جعل الادب ضربا من الموسيقى يأتلف من الالفاظ والمعاني والاساليب ومما يعرض من صور ما ينير عن عواطف وما يبعث في من شعور أفلا نجد هذه الخصال في الثقافة الرياضية وفي الانتاج العلمي ؟ واذا ما عرف ليبنيتز liebniz الفن « كأسمى عبارة لأرثما طبقية باطنة لا شعورية ؟ فيصرح رسل B. Russel أن في الرياضيات « المثل الاسمى من الجمال » ؟ أولسنا نجد في لغة العلم سحر البيان واعجاز الايجاز ونور الدقة ؟ أوليس في أسلوبه من المتانة والكثافة ما قد يعز في غيره ؟

وبجواز ذلك ، ألسنا نلمس في العلوم جانبا وافرا من الخيال . بل ألم يكن العلم بنفسه باعثا على تنمية الخيال ؟ فلولا الحدس ولولا الخيال أكان للفكر البشري أن يحلق في الفضاء الفسيح وأن يقلب البصر في العالم العلوي يهدي سبيله العقل مانعا اياه من التعثر والزيغ والتيه اذا كان ناسيا نفسه بين ازهار النجوم الزاهية ؟ أوكان له ايضا أن ينزل الى أعماق الذرة وأن يغوص في صميم صميمها في لب نواتها متلاعبا بالـطاقات الهائلة ؟ بل أكان في امكانه أن يحل حتى أبسط المشاكل الهندسية ؟

د . محمد السويسي

1) طه حسين : خصام ونقد بيروت 1955 ص 28

2) ج 3 ص 429



التكنولوجيا والأدب

وجهة نظر : الدوس هكسلي

الدوس هوكسيلاي Aldous Huxley من الادباء الامريكيين عرف في حياته وبعد مماته ككاتب قصة وشاعر مبدع خلق تراثا قيما ، متنوعا ، وحصل على شهرة عالمية بفضل قصته « عالم جديد شجاع » التي عالج فيها نظام ومستقبل التكنولوجيا وارتباطها بالثقوفة .

وخصص هذا الاديب الامريكي جانبا وافرا في قصته للحديث عن التأثيرات التكنولوجية على البشر والمجتمعات وخاصة تأثير تطور الوسائل التكنولوجية الحديثة في الفنون والحرف التقليدية وقارن بين الكأس من الخزف والكأس من البلاستيك التي لا يمكن انتاجها الا بفضل اكثر أساليب التكنولوجيا تعقدا وإتقانا .

والسؤال المطروح في هذا المجال يحوم حول ما تم كسبه وما فمن زاوية الكسب تجدر الاشارة الى تكاليف انتاج الادوات بمختلف انواعها من البلاستيك التي تعد أقل من تكاليف الادوات من الخزف أو البلور أو الفخار وهناك كذلك الفرق من حيث الوزن والمظهر غير أن هناك فرقا شاسعا بين تكنولوجيا الانتاج بالجملة والانتاج التقليدي الخزفي فالصناع ينتجون منتوجات معقدة بأدوات بسيطة للغاية مستعملين مهارتهم اليدوية والعقلية التي تلفت النظر في كثير من الاحيان بينما تستخدم التكنولوجيا الحديثة أجهزة معقدة جدا ولكنها لا تتطلب الا قدرا قليلا من المهارة اليدوية أو العقلية ورغم أن النظم التكنولوجية للانتاج بسيطة للغاية من الناحية الواقعية فان هدفها يعد حاجزا ضد عنصر التلقائية والابداع والالهام والايحاء وحتى للمهارة .

وفي مقابل مزايا الكأس من البلاستيك مثلا ، ينبغي توضيح المساوي المحزنة التي واجهت الاشخاص الذين حرموا من فرص ممارسة حرفهم والتعبير عن مهارتهم وفنونهم وأن الامر يتعلق في المقام الاول بتوفير أكثر قدرا من السعادة لاكبر عدد ممكن من البشر خاصة وأن عدد صناع الادوات بالطرق التقليدية يفوق بكثير عدد العاملين في القطاع المتطور للانتاج حسب الطرق الحديثة وفنيات التكنولوجيا ومهما يكن من أمر ، فان المستهلك يدفع بطريقة أو بأخرى ثمن الانتاج والادوات والتجهيزات الحديثة والمتطورة لذلك فانه يتعين معرفة ما اذا كان الثمن يظاهي المكاسب التي تم تحقيقها وبلوغها في مجال التكنولوجيا .



المحطة المركزية تنسق المعلومات التي تتلقاها من الاجهزة العلمية وتحولها الى الأرض .

جهاز [illegible] وجمع معلومات عن الزلازل القصيرة ليعيد ارسالها الى الأرض .

ومن المؤكد ان العلاقة بين التكنولوجيا والطبيعة تثير الاهتمام الى حد بعيد وانها تعد في الواقع امرا على درجة كبيرة من الاهمية بالنسبة لكل فرد ، خاصة وأن العالم الطبيعي والمحيط الذي يعيش فيه يشبه كائنا حيا ضخما ، وحيا فعليا مما يفرض على البشر التحلي بأخلاق ملائمة لحياة الانسان والبئة بوجه خاص ونبذ التصرفات المفرطة في الزهو والمتعة والتعجرف ضد الطبيعة .

وقد كان الانسان دائما يرمي بكل ثقله في عدة ميادين ويدخل الارتباك على النظام الطبيعي ويفسده واصبح الآن في إمكانه . نظرا لتوفر المصادر الكبرى للتكنولوجيا الحديثة . قلب الاوضاع على نحو مفجع مثلما حدث على سبيل المثال في لبنان حيث كانت جل الاراضي مغروسة بشجر الارز من أقصاها الى أدناها ولم يبق بها الآن سوى 1200 شجرة فقط من هذا النوع في كامل التراب اللبناني فتآكلت الارض حتى أصبحت كالحجر العاري في عديد المناطق ولم يعد في الامكان تشجيرها . كما حدثت تغيرات عميقة في القارة الافريقية حيث تنتشر الصحاري والمناطق الجافة بعد القضاء على الادغال واستغلال منتوجاتها بصورة مفرطة وغير متوازية بوسائل تكنولوجية متشعبة .

وتدعو هذه الامثلة الحية الى الحذر قبل الاستقرار على الخطط التكنولوجية الضخمة ذلك أنه من السهل قلب الوضع والتوازن الطبيعي وسرعان ما يتم حصد ردود فعل غير متوقعة .

وقد نشأت هذه المشاكل لان التكنولوجيا حققت انقلابا في حياة البشر بصورة سريعة . سيما وان الانسان لا يزال يتمسك بالمبدأ الذي يقول ان الغايات النبيلة لا تبرر الوسائل السيئة وقد تنشأت المأساة دوما عندما تؤدي الوسائل النبيلة الى غايات مفجعة .

ونظرا لهذه العوامل فان هذه المعضلة تحتاج الى نوع جديد من التفكير الاخلاقي وخاصة بالنسبة للبلدان السائرة نحو النمو الراغبة في حياة أفضل . كالتي يتعين أن لا يكون اعتمادها على التكنولوجيا مخيبا لآمالها رغم انه اصبح بالنسبة للجميع من العسير غض النظر عن التكنولوجيا . ويجر هذا الحديث الى التساؤل عما يجب للانسان المعاصر أن يطلبه من الثقافة والآداب وما هو الموقف الذي ينبغي على رجل الثقافة والادب اتخاذه من مشاكل العلوم والتكنولوجيا وما الذي يجب عليه القيام به :

وبعد التفكير العميق والتحليل الواقعي للاوضاع اتضح انه يتعين على رجل الثقافة والادب أن يكون على دراية تامة بالمشاكل التي تحيط به ومن أهمها المتعلقة بالتكنولوجيا والعلوم الحديثة خاصة وأن الادب والثقافة بوجه عام ينيران بصيرة الانسان حتى يتوصل الى فهم أفضل لنفسه ولعالمه .

غير أن هذا الامر يتسبب في مواجهة تناقض مثير للفضول ، سيما وأن هناك أمر على درجة كبرى من الاهمية بالنسبة للجميع ولا يوجد له تعبير في الفنون الادبية .

فالجانب العقلاني والمنطقي في الانسان بتعبيراته العلمية والتكنولوجية لا يشغل الا حيزا أدبيا ضئيلا ومن الغريب أن العلم والتكنولوجيا لا يشغلان دائما الا حيزا ضئيلا جدا من الادب . والمتوقع من الادب ان يضيء الحياة ويكون مرآة لها .

وفي خضم الحياة العصرية يبذل الناس جانبا كبيرا من اوقاتهم مهتمين بتكنولوجيا العصر الذي يعيشون فيه . انهم يعملون باتصال مع التكنولوجيا مما يولد تكنولوجيا التنظيمات .

وثبت في هذا العصر أن العلم ة ا يعدان التجسيد الفيزياوي للمنطق والعقل ولا يرد العقل في الادب الا بصفته مولدا للصراع وتقوم المعركة بين العاطفة وما يمليه العقل والادراك .

ومن الصعب ايجاد كيفية لادخال الاهتمام بالنواحي العلمية والتكنولوجية للحياة في الادب .

ويلاحظ دوما أن الناس مازالوا يهتمون بالحب والعواطف والكراهية والآثام المهلكة وبالصراعات وما من شك ان القدر الكبير من التكنولوجيا يعتبر أمرا مضجرا ومملا للشخص العادي .

وان هذه المسائل الهامة المرتبطة بالتقدم التكنولوجي من العسير اقحامها في اسلوب يتميز بالادب الجيد . وبناء على هذه الاعتبارات فان المثقف والاديب يجب عليهما ـ حقيقة ـ البحث عن وسائل قوية للتعبير عن طبيعة التكنولوجيا والازم .

وان هذه المسائل الهامة المرتبطة بالتقدم التكنولوجي من العسير اقحامها في اسلوب يتميز بالادب الجيد . وبناء على هذه الاعتبارات فان المثقف والاديب يجب عليهما ـ حقيقة ـ البحث عن وسائل قوية للتعبير عن طبيعة التكنولوجيا والازمات التي تنشأ عنها خاصة وان هناك العدد الكبير من رجال الفكر والادب والفن مازالوا منشغلين بالجوانب العاطفية والحساسية والحساسية للحياة .

استكشاف الفضاء وتأثيره في الخلق الأدبي

عرض : رضا الشاهري

أتاحت المغامرة الكبرى لغزو الفضاء ، ولنزول الانسان على سطح القمر ، وبرامج استكشافه حصيلة ادبية لا تقل وفرة في هذا الظرف . وقد تمثلت الحصيلة الادبية في العديد من المقالات والنشريات والكتيبات الواصفة لبرنامج « ابولو » وانجازاته .

وتوجت هذه الحصيلة بأول تأليف ادبي من نوعه في شكل كتاب قيم في طور الانجاز يروي القصة الكاملة لبرنامج « ابولو » ، وما انطوت عليه من معان انسانية كما تراها بكل أبعادها وجوانبها « عين » مراقب خبير في الولايات المتحدة الامريكية أتيحت له جميع سبل الاتصال بالعلماء والفنيين المشرفين على البرنامج ، وهيئت له جميع سبل الرجوع الى ملفات الوكالة الامريكية للملاحة الجوية وشؤون الفضاء المشهورة باسم (نازا)

ومؤلف هذا الكتاب هو ـ **روبار شيرود** ـ الذي يحتل مكانة بارزة في الصحافة الامريكية . واطلق على كتابه الذي يواصل تأليفه بكل حزم ـ اسما مؤقتا هو « **غزو القمر** » . ومن خصائص هذا التأليف انه لا يعد خاصا بالعلماء او المهندسين ذلك انه لن يضم سوى الشيء القليل من المعلومات الفنية او العلمية . كما ان المؤلف لن يقدح من المعلومات الفنية الا ما تقتضيه الضرورة القصوى توخيا للدقة التامة في سرد وقائع عمليات النزول على سطح القمر .

ويقول روبار شيرود : انه أعد كتابه لجميع القراء على اختلاف مشاربهم في مختلف انحاء العالم . وهو يأمل في ان يجتذب تأليفه قراء من خارج الولايات المتحدة الامريكية خاصة . وقد لاقت المؤلفات التي أعدها في السابق رواجا في مختلف انحاء العالم ، وترجمت الى عدة لغات .

ويعتقد المؤلف انه سوف تكون لهذا الكتاب جاذبية خاصة على الصعيد العالمي لانه يروي قصة اكبر منجزات هذا العصر على الاطلاق . وافاد بانه يعتزم ان يروي كيف تمت كل الوقائع ، وما هي نتائجها العاجلة والآجلة .

ويذكر المؤلف انه رغم ان اثني عشر رجلا فقط وطئوا سطح القمر ، الا انهم كما قال رائد الفضاء نايل أرمسترونغ عند اول هبوط للانسان على سطح القمر ، قد جاؤوا في مهمة سلام نيابة عن البشر اجمعين فقد رفعت مغامرتهم العظمى معنويات البشرية لدرجة لا يمكن تقديرها .

وهذا جانب من جوانب قصة «أبولو» الذي يسهر المؤلف شيرود على تسليط الاضواء عليها في كتابه ويقول المؤلف في هذا الصدد :

« **عندما حلقت مركبة أبولو الثامنة حول القمر في شهر ديسمبر 1968 اهتزت المشاعر ذلك ان البرنامج كان بمثابة رفعة قوية للمعنويات في ذلك الحين ، الامر الذي عجل برحلة أبولو التاسعة التي تم فيها تجربة مركبة النزول على القمر بقيادة احد رواد الفضاء وتلت ذلك رحلة أبولو العاشرة التي دارت حول القمر عدة دورات لجمع المزيد من المعلومات عن موقع هبوط مركبة أبولو الحادية عشرة هذا النزول الذي تم في شهر جويلية سنة 1969 وكان انجازا رائعا** » .

ولقد كان ما انهال من مختلف أنحاء العالم على مركز رواد الفضاء في مدينة هوستن بولاية تكساس الامريكية من الرسائل والبرقيات المهنئة والهدايا والدعوات دليلا على الهزة القوية التي احدثها هذا الانجاز الكبير في مشاعر الناس وخيالهم في كل مكان .

ثم جاءت بعد ذلك الجولة التي قام بها رواد أبولو الحادية عشرة حول العالم ، والتي أتاحت لملايين عديدة من البشر تجربة لا تنسى حين شاهدوا اول النازلين على سطح القمر .

وقرر شيرود كتابة قصة أبولو عام 1968 ، وهو العام الذي حلقت فيه المركبة الفضائية المصممة لرحلات استكشاف القمر — لاول مرة وهي تقل رواد فضاء .

وكان برنامج « **ماركوري** » الذي حلق فيه رائد واحد في الفضاء ، وبرنامج « **جيميني** » الذي حلق فيه رائدان أظهرا منذ فترة من الزمن أن في وسع الانسان العيش في الفضاء ، وان في مقدرته العمل في تلك البيئة الغريبة عنه . وبينما كانت الاستعدادات تمضي قدما لاطلاق أول مركبة فضائية من طراز « **أبولو** » وهي تقل ثلاثة من رواد الفضاء قام روبار شيرود بزيارة مدير وكالة الفضاء انذاك للحصول على المعلومات الضرورية بخصوص المشروع والــرواد . وبهذه المناسبة توطدت صلات المؤلف بكثير من رواد الفضاء ، الامر الذي ساعده كثيرا على اعداد كتابه القيم وسجل اهم الانطباعات عن الذين سنحت لهم فرصة الغمر الفريدة بالنزول على سطح القمر او عن الذين كانت لهم صلة مباشرة بالبرنامج .

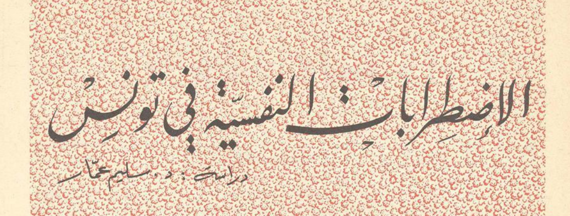
وجمع المؤلف معلومات هامة عن الرحلات الفضائية وكل تفاصيلها وخاصة فيما يتعلق بالتأثيرات الصحية والمعنوية التي تحصل للقائمين بالرحلات الفضائية .

واستخلص روبار شيرود النتائج والعبر المفيدة من الرحلات الفضائية . واكد اعتقاده ان ما حدث لبعض رواد الفضاء بسبب رحلاتهم القمرية كان من الحتمي ان يحدث لهم سواء قاموا برحلاتهم الفضائية او لم يقوموا بها .

ويبرز ذلك من خلال ارتفاع حواس رائد الفضاء **ميشال** ، وانصراف اهتمام رائد الفضاء **شيكارت** الى اطفال الاحياء الفقيرة وكذلك اضطرار رائد الفضاء الآخر **آلدرين** الى الالتجاء الى طبيب نفسانـــي لفحصه .

ويرى مؤلف كتاب **غزو القمر** في النهاية ان الآثار التي تركها برنامج **أبولو** كانت أقوى على البشرية في مجموعها منها على الافراد القلائل الذين اضطلعوا بهذا البرنامج الذي كان له الاثر الملحوظ على تنشيط الحركة الادبية المهتمة بشؤون الفضاء .

رضا الشاهرلي



لقد ساعدنا الحظ على ان مرت مباشرتنا للطب النفسي منذ 1952 لما يزيد عن 24 سنة بمرحلتين اساسيتين ، الاولى — سابقة لاستقلال البلاد واستغرقت 5 سنوات — من 1952 الى 1956 ، وتلتها المرحلة الثانية منذ الاستقلال الى اليوم ، تواصلت ما يقرب من 20 سنة . فبامكاننا اذن ان ندرس دراسة وافية ، على ضوء تحليل الفترات التاريخية المختلفة الحاسمة التي عاشتها البلاد وبصفة موضوعية ، التطورات التي دخلت في الحقل النفساني والثقافي والاجتماعي ثم على هذا الاساس ، الاضطرابات النفسية ومشاكل الانسجام في الاوضاع الجديدة المنجرة عن تلك التطورات .

خلال العشرين سنة الاخيرة مثلا ، يصبح من المفيد ان تحلل التطورات العامة السريعة العميقة التي عاشتها البلاد بالمقارنة مع تحليل العوامل النفسية والاجتماعية التي اصبحت تتسبب احيانا في اضطرابات السلوك وعدم اتزان شخصية الافراد ، وحتى بعض الجماعات ، وكذلك تحليل العراقيل والصعوبات التي يجابهها الفرد في معركة النمو ، والانسجام مع الاوضاع الحديثة المتحتمة تركيزها كي تخرج البلاد من التخلف وتلتحق عاجلا بالركب الحضاري المتقدم .

فالمشكل الذي نعالجه هو مشكل من مشاكل النمو الرئيسية . وان العوامل الناجمة عنه اصبحت اليوم ذات بال لا من حيث ضرورة معرفة اسبابها واصولها فحسب بل من حيث مفعولها وتاثيرها في الحقل الاجتماعي في بلد انموذجي مثل تونس ، احرز منذ عهد قريب الاستقلال التام ، ودخل بخطوات شاسعة ثابتة في طور التقدم التقني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي المثمر السريع .

الطب النفسي حسب خصوصية الشعوب وعبر البيئات الثقافية

ان جميع الارتكاسات النفسية الناجمة عن ذلك التطور من جهة اخرى ، لا يمكن ضبطها ولا تحقيق اوصافها وتحديد خطورتها الا بالرجوع الى دراسة خصوصية البيئة المجاورة لها من خلال تطورها الديناميكي المستمر . وفي حقيقة الامر ، فان كشف الامراض النفسية على ضوء خصوصية الشعوب ومختلف البيئات الثقافية يرجع الى ابقراط وفي عهد كرابلين وفرويد كانت مدارس عديدة وما زالت تنتمي الى هذه النظرية ، مثل مدارس المذاهب التركيبية والثقافية والتحليل النفسي الثقافي الخ . وهكذا لا يمكن اليوم تفسير ولا فهم مريض نفسي ما خارج محيطه وبيئته الثقافية التي يتجاوب معها وينتمي اليها ويتمثل فيها .

وعلى هذا الاساس فان الطب النفسي الراكز على خصوصية الشعوب يساعد على فهم اسباب الامراض النفسة ،وتغيراتها السريرية وتصنيف اشكالها — وبالتالي — طرق علاجها والكفالة الشاملة بها .

ويدرس الطب النفسي الثقافي الذي هو احد فروع الطب النفسي الاجتماعي المريض من خلال علاقاته بمحيطه في حين ان الطب النفسي عبر البيئات الثقافية يتعرض الى مشاهدة حقل ثقافي معين بالنسبة للحقول الأخرى .

فتبرز اذن من ذلك اهمية ادراك الاضطرابات النفسية من خلال التغيرات السريعة التي تتصف بها اليوم البلاد السائرة في طريق النمو ومن هذه البلاد بالخصوص المغرب العربي ، وعلى الاخص تونس .

اتساع حقل الاضطرابات النفسية بالنسبة للتغيرات الحضارية

يمكن لنا في هذا النطاق وعلى هذه الاسس ان نتعرض اذن الى عدة عوامل تختلف وطأتها شدة وخطورة بالنسبة للاوضاع السائدة بالبلاد التونسية منذ عهد الاستقلال . فالمعروف مثلا ان استقلال البلاد – وان فتح المجال الى بذل جهود جسيمة في تطوير المصالح الصحية العمومية – فقد تسبب ايضا في تحولات سريعة احيانا ومعقدة احيانا اخرى تمت في ظرف قصير جدا في الحقل الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، واصبحت بدورها تتسبب في صعوبات جمة نجم عنها عبء على أكتاف الافراد ، واحيانا توتر محسوس في اتزان الشخصية وفاعليتها . ولقد كنا منذ زمن بعيد توقعنا مثل هذا التطور ، وأشرنا اليه في مقالات سابقة . وعلى كل ، فالمعروف اليوم انه كلما تعقدت اجهزة مجتمع ما الا وتعددت دواليبه وتنوعت ، فيكثر تعرض الفرد لمشاكل الانسجام الاجتماعي على اختلاف المستويات التى يعاد فيها تنظيم دواليب هذا المجتمع في نطاق تطوير الاوضاع الجديدة وحلها محل القيم والسبل القديمة بما كان فيها من مقدرة تلاؤم وانسجام مرضيين في نطاق البيئة التقليدية السابقة . وبالعكس ، فالمعروف اليوم ان الاضطرابات النفسية تزداد انتشارا في المجتمعات المتقدمة ، فيزداد انتشارها بدرجة تشعب هذه المجتمعات وتطورها كما اصبح الأمر واضحا جليا باوروبا ، وعلى الاخص في الولايات المتحدة حيث يشغل المصابون بالاضطرابات العصبية والنفسية اكثر من 45 بالمائة من أسرة المستشفيات . وقد بينت ابحاث حديثة انه يوجد في الولايات المتحدة ما يزيد عن 54.000 صيدلية تبيع ما يزيد عن 500 طن من المسكنات لما يفوق 90 مليونا من المواطنين الامريكيين . وفي فرنسا يستعمل المسكنات واحد من كل 15 فردا . وهي نسبة تزداد يوما بعد يوم . واصبح الآن عدد المستعملين للمسكنات في العالم يفوق 300 مليون نسمة على اقل تقدير . ويتفق الراي اليوم على ان الاصابات النفسية العصبية تستوجب اكثر من ثلث مظاهر النشاط الطبي الاجتماعي العام في مجموعة ما . وقد دلت الابحاث الجارية في الامم المتقدمة على وجود نسبة مهولة من الافراد المحرومين من العناية النفسانية والاجتماعية الناجعة بصفة عامة والتي اصبحت شخصيتهم تخضع نهائيا لانحرافات مختلفة تعرقلهم عن أداء وضيفتهم الاجتماعية على احسن وجه . ولقد بين بحث اجري في مجموعة راقية المستوى الحضاري – وذلك في حالة سلم – ان 32 في ألف من الافراد يتطلبون سنويا اسعافا طبيا نفسانيا سواء لاضطرابات نفسية خطيرة او لاصطدامات مع السلط .

وكان من بينهم 21 في الالف مصاب بأمراض نفسية خطيرة او بتأخر عقلي فادح .

اما نسبة الاضطرابات النفسية فهي اكثر بمراحل . وهي تتسبب اما في خلل واضح في حياة 10 في المائة من الافراد او في اضطراب يضايق حياة ما يقرب من 30 بالمائة اخرى . ثم ان العوامل العصبية النفسية كثيرا ما تتسبب في الاعراض المرضية الوظيفية التي تمس بالوظائف الحيوية الاساسية مثل التنفس والهضم والنوم وشاهية الاكل الخ . وهي تتمثل عادة في الحالات العصبية الكثيرة المشاهدة ، بالاضافة الى الاصابات العضوية الاخرى التي تمس بالاعضاء مثل حالات التسمم والتعفن والقروح والاورام المختلفة واضطراب افراز الغدد الصماء الى غير ذلك من العوامل التي تركز اطار الطب النفسجسدي العصري الذي يمثل احسن تمثيل التعامل والتكامل المستمر الذي يستقر دائما بين النفس والجسد وبين الدماغ والاعضاء وبين الفكر والحركة والاحساس . ومن المعلوم ان الاضطرابات الوظيفية من جهة اخرى تمثل ما يقرب من 50 بالمائة من الحالات التي يعانيها الطبيب سواء في نطاق الطب العام او في نطاق الاختصاصات الاخرى فهي تستهلك غالبا اكثر اوقات الاطباء في عياداتهم اليومية وتطلب الحين بعد الآخر وبدون جدوى اكثر التحاليل والاكتشافات المعقدة الى غير ذلك من الابحاث المفتشة عن اصابات عضوية محسوسة وجثمانية وفيزيائية ملموسة لا يمكن في النهاية الوصول الى تجسيمها بصفة جلية واضحة .

وفيما يخصنا ، لا شك ان التحول السريع الذي دخل اليوم البيئة الثقافية والاجتماعية التونسية اصبح يتصف بأنظمة كانت تارة مقترحة وتارة مفروضة فرضا حسبما تقتضيه حتمية انقلاب الاوضاع وتحويلها السريع في نطاق خوض معركة المصير والرقي والخروج بالبلاد من رواسب الركود والتخلف .

معنى ادوار الشخصية في نطاق الطب النفسي الاجتماعي

ولقد برهنت الدراسات العديدة سواء كانت في مستوى علم النفس الاجتماعي او علم النفس التربوي والاخلاقي ، بان المرض النفسي كثيرا ما يصبح نتيجة لصراع عنيف بين مستويات ثقافية مختلفة متضاربة او متعاكسة في مجتمع ما . فالمفهوم الحديث لكلمة « الادوار » في علم النفس الاجتماعي ممثل عندنا احسن تمثيل ، وربما صح بالنسبة للمغرب العربي كله او حتى القطر الافريقي قاطبة وذلك لتعدد حالات الرفض التي تتسبب عند الفرد بالتمسك بقوالب وقيم ثقافية تقليدية تنافي القوالب المتطورة التي تقترحها او تفرضها الاوضاع المتقدمة والتي تصبح عادة مبتعدة

عن معدل الطرق التفكيرية العامة .

ويرى هؤلاء الاخصائيون ان « **الادوار** » هي ما تفرضه الجماعة من المواقف القادرة على احداث تغيرات هامة في مواقف الفرد . فالأدوار تدل على ما يقوم به الفرد من محاولة الالتئام او الرفض بالنسبة للقيم الثقافية المقترحة او المفروضة فرضا على المجموعة من طرف النخبة المتقدمة والفرد يباشر هذا الدور بكل ما له من خصائص تكوينية ووراثية وبما تمتاز به شخصيته من صفات تكميلية اكتسبها فيما بعد من تاثيرات المحيط . فالشخص المتمثل في كل منا او الذي نريد ان نكونه يلعب حينذاك دورا معينا مستعارا من البيئة الاجتماعية الشاملة .

لذلك يجوز لنا ان نقول ان مقياس الصحة النفسية يكاد يتمثل في مدى البعد الذي يستطيع الفرد ان يحافظ عليه فيما بين ادواره المختلفة ان وجدت وشخصيته الفردية الذاتية بعينها . والذين يلتصقون بالدور التصاقا كليا ويعجزون عن الانفصال منه بتاتا ، كثيرا ما نجدهم مضطربي الشخصية مثل المصابين بالعصاب الهستيري او ذوي الطبع الزوري مثلا او غيرها من الامزجة المتميزة التي تبتعد شيئا ما عن المعدل العادي . ويتمثل مقياس الصحة النفسية بصفة أدق في قدرة الفرد على الاندماج في قاعدة المجموعة مع المحافظة على حرية التقدير والرأي ازاء مختلف الاوضاع التي يتعرض لها ادراكه وضميره . ومن هنا فان الاصطدامات لا تنشأ عن كثرة الادوار الناجمة عن تغيرات المجتمع المتشعب فحسب بل انها ناشئة ايضا عن طاقة الفرد في تمييز التناقضات الصادرة عن بعض الادوار فيما بينها او ما بين تلك الادوار وشخصية الفرد ذاته .

ومن الثابت اليوم ان تعقد المجتمع الذي أخذ في التحول والنمو السريع ، من شانه ان يعدد الادوار وينوعها وذلك مع تفكك الاوضاع القديمة وتشتتها وبروز طرق تفكيرية جديدة في مختلف مستويات القيم الثقافية والاجتماعية والوجدانية بصفة أعم .

خصوصية الاضطرابات النفسية من حيث انتشارها وأوصافها على ضوء التطورات التي حدثت بتونس منذ الاستقلال

هنا تتجلى اهمية العوامل المتسببة في الازمات النفسية المختلفة التي اصبحت تعتري عديدا من الافراد والجماعات فتصطبغ هذه الحالات بخطورة وبخصوصية معينة تتغير باختلاف شدة تعامل الاسباب التكوينية المؤهلة للاصابات من جهة ، مع ارتكاسات المحيط من جهة اخرى فتنجم عادة هذه الحلات :

1) عن تناطح الاجيال والتناقضات العنيفة الناتجة عن ذلك فنشاهد اولا وبالذات تفكك وتشتت العائلة التقليدية وتطورها نحو الشكل الغربي المرتكز على المحور الذي يدور بين الزوجين والاطفال فحسب ونلاحظ ثانيا التطورات السريعة بما فيها المكاسب الايجابية المنجرة عنها والتي تشوهها من سوء الحظ ارتكاسات عديدة كثيرا ما تكون قاسية مؤلمة تدور رحاها تارة بين المرأة والرجل وتارة بين الاب والبنت وتارة بين الام والطفل وتارة اخرى فيما بين الفتيات او بينهن وبين المربين بالمدرسة او خارجها ويضاف الى هذا التناطح التاثيرات المتعددة الاوجه الناجمة عن المحيط الثالث ، يعني عن الشارع وما يحتويه من تجارب ومناهج متبعثرة متناقضة ، فضلا عن وسائل الاعلام العصرية المهولة المنبثقة ليلا نهارا من الصحافة والاذاعة والتلفزيون والتي اصبحت تفصل وتشيد كما تشاء شخصية الافراد وخاصة منهم الشباب والنساء من حيث لا يشعرون وتقود سلوكهم في الحياة .

2) ونشاهد أيضا المشاكل العديدة الناجمة عن تصنيع البلاد وبصفة عامة عن التغيرات الحضارية السريعة التي تتسبب تارة في النزوح من البادية الى المدن وتارة في المهاجرة الى الخارج وخاصة الى اوروبا ، وهو ما لا تزال تنجم عنه اضطرابات متنوعة الخطورة كثيرا ما ترمي الافراد الضعفاء الشخصية في حالات عصاب حاد او اكتئاب شديد او نوبات هذيانية حادة وحتى في بروز وتطور سريع لحالات هذيانية او فصامية طويلة المدى .

3) كما ان تفكك القيم التقليدية بما فيها المبادىء الدينية الاصيلة ، اصبحت تفتح المجال الى تعاطي الكحول والادمان عليها وكذلك الى تناول المخدرات بمساعدة الارتكاسات الناتجة عن تطوير السياحة بالبلاد واختلاط الشعوب وامتزاجها الذي يحصل بمقتضاها .

4) كما ان مشاكل التصنيع والعمل الليلي ببعض الادارات او المؤسسات الصناعية وكذلك بشتى انواع الشغل في الشركات القومية او الشركات الخاصة على صعيد التجارة او الصناعة التقليدية او الصناعة الثقيلة بما فيها المناجم ومعامل الفولاذ او تكرير النفط الخ ، كل هذه العوامل تتسبب اليوم في اضطرابات نفسية مختلفة في مستوى امكانيات الشغالين الحيوية وطاقتهم العصبية على تحمل ظروف العمل الجديدة التي كثيرا ما تصبح في غاية من الشدة والقساوة .

5) ثم ان حملات التنظيم العائلي لا تزال تخطو خطوات شاسعة لفض الحمل غير المرغوب فيه والاتقاء من الولادات المتكررة بشتى الوسائل التقنية العصرية ولقد ادخلت هذه الحملات وعيا جديدا في نفوس النساء والفتيات وشعورا حادا بحرية مطلقة تكاد تصبح لا

حدود لها في كل الميادين والمستويات باعتبار ان ميدان الاتصالات الجنسية والولادات الناتجة عنها تعتبر المقياس الاول والاخير لتحديد هذه الحرية على اختلاف عناصرها الجنسية والاقتصادية والاجتماعية والوجدانية ، فينجر عن ذلك تناطح واضح يكاد يكون عنيفا في بعض الاحيان بين سلوك المرأة الجديد والقيم التي لا تزال سائدة في اذهان الرجال تارة او عند الوالدين تارة اخرى ، وكثيرا ما تصبح الفتاة التونسية غير محمية بدرع نفساني منيع يحفظها من الاخطار التي تجابهها في هذا النطاق من حيث لا تشعر ، كما ان المرأة التي تقاد احيانا بدون دراية كافية الى استعمال وسائل الوقاية من الحمل ، تصبح تشعر وكأنها فقدت انوثتها غصبا ، فينجم عن ذلك شعور حاد بالاعتداء وارتكاس نفساني عنيف .

6) ونلاحظ ايضا تضاعفا محسوسا في درجة الوعي الصحي وفي شدة المطالبة بالحق في الصحة والعلاج على مستوى الجماهير الشعبية ينتج عنه تردد المرضى على المستوصفات والعيادات بالمستشفيات على اساس الشعور بألم عام او باوجاع متشعبة مختلفة الانواع ترتكز على الحصر وتتمثل في أعراض وظيفية عديدة تتجسم احيانا في اشكال جسدية عن طريق المعارضة والتحويل الباطني وان قلة عدد الاطباء وتكاثر المرضى يجعل اجراء الكشف الطبي على هؤلاء في غاية من الصعوبة والغموض بالاضافة الى عدم تنسيق اعمال الاطباء فيما بينهم والنقص الفادح الذي لا نزال نقاسيه احيانا في مستوى الجهاز التقني بالنسبة لغالب المصالح الصحية ، وعلى هذا الاساس لقد اصبحنا نشاهد تكاثر حالات العصاب القلقي واستقرار حالات الهستيريا وتطور خطورتها واشكالها والانذار الناجم عنها .

وتكاد الحالات النفسجسدية كذلك تصبح عادية خاصة بالنسبة لاصابات الجهاز الهضمي فينجم عنها قروح المعدة والتهابات وتشنج الامعاء كما ان اصابات القلب والشرايين تنجم عنها حالات خناق الصدر والخفقان المتعدد الاوجه وهكذا الامر بالنسبة لاصابات الداء السكري وضغط الدم والربو Asthme وضيق التنفس واعراض الرثية وداء المفاصل Rhumatismes الخ ، كما نشاهد بالخصوص تكاثر حالات الاكتئاب والخمود والسوداء الارتكاسية :

Dépression réactionnelle الناجمة عن تعامل الاسباب التكوينية مع صدمات وعراقيل المحيط واحيانا اخرى نعثر على حالات توتر وتهيج وهوس حاد كثيرا ما يكون عابرا من حسن الحظ ويكون في نطاق حالات النفاس او الذهان Psychose التي تضاعفت مرتين بالنسبة للعشرة سنوات الاخيرة ، وقد تنوعت اوصافها واصطبغت الوانها بالمظاهر السياسية والدينية والثقافية السائدة في البيئة التونسية الحالية كما ان النفاسات الهذيانية لا تزال قائمة الذات وهي منبثقة من الشعور بالقهر والاضطهاد او من ادوار الانس والجن واساطير الكون والفلك والعقائد الدينية والسماوية والسياسية المهولة وهي ناجمة عادة عن نوبات هذيانية حادة اصبحت كثيرة المشاهدة في المراحل الانتقالية التي تجتازها الافراد في بحر التغيرات الحضارية الراهنة فتنبثق هذه النوبات من اعمق اعماق شخصية الافراد على سبيل التحويل والمعاوضة Déplacement والتصعيد Sublimation لوضعهم المنحط وكثيرا ما تتردد هذه النوبات بصفة دورية او تفتح الباب الى تطور فصامي مزمن ، كما اننا نشاهد بصفة عامة تكاثر حالات الارهاق والانهيار العصبي الناجم عن الجهاد المرير الذي تخوضه الافراد لتحقيق رغباتهم الحياتية في نطاق صراع الحياة العصرية التي اصبحت تزداد كل يوم سرعة وتعقدا ، وفي مستوى المشاكل العامة للصحة النفسية تتمثل عدة ارتكاسات عند المجموعات المتطورة في قدرتها على ادماج او رفض الاوضاع الحديثة فتتجسم أعراضها حينذاك في الجنوح المتزايد والسلوك المنحرف والادمان على الكحول والمخدرات وفي محاولات الانتحار والانتحار نفسه الذي اصبح معدله يشابه معدل البلدان المسيحية الاوروبية كايرلندا واسبانيا مثلا ، الامر الذي ينبغي ان يزيدنا فطنة وانتباها .

ونظرا لكوننا لا نزال نتخبط في بحر **العوامل الجسدية للاضطرابات النفسية** مثل التسمم والتعفن والرض واختلال افراز الهرمونات والالتهابات المختلفة الى غير ذلك ، من الاسباب العضوية الباطنية المتنوعة ، فان الامر اصبح خطيرا في العديد من جوانبه .

نحن اذن وبلا شك في مرحلة انتقالية سريعة شاملة في كل المستويات مع تغيرات جزئية بالنسبة للمغرب العربي كله ، ومن هنا يتحتم اتخاذ الاجراءات الكفيلة من طرف كل المسؤولين المعنيين بالأمر في نطاق مخطط شامل مضبوط محكم فلا فائدة هنا ان نحلل هذه الاجراءات التي تعرضنا لها عديدا من المرات في مقالات ومناسبات سابقة بل نكتفي بالحث على انجاز اكثر ما يمكن منها في اقرب الآجال كي نرفع تحدي العصر ونقرأ في الابان حساب التطور الحتمي الذي تفرضه علينا لا محالة معركتنا المصيرية الكبرى التي لا بد ان نخوضها للخروج من التخلف والالتحاق بالركب الحضاري مهما كانت الصعوبات والتكاليف ■

الدكتور سليم عمار
استاذ الطب النفسي
وعلم النفس الطبي بكلية الطب بتونس




مسرحية لم تنشر من قبل

بَدْرُ الدُّجى

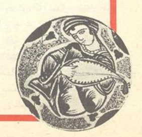


أو

إلى مصر....!

تأليف : أحمد خير الدين

اعداد : محمد السقانجي



من هو أحمد خير الدين؟

ولد أحمد بن سليمان خير الدين بنهج الحفير الكائن بحي باب السويقة الحلفاوين (بتونس العاصمة) سنة 1906 .

وقد سماه والده أحمد على اسم جده الذي قدم صغيرا الى تونس مع الوزير يوسف صاحب الطابع حين رجع هذا الأخير من سفارته لدى الدولة العثمانية ، فأهداه سيده الى الأمير حمودة باشا فنشأ في خدمته وشب على محبته ، وطاعته ، وعندما تولى عثمان باي العرش أعتقه كما قربه فيما بعد محمود باي . وتدرج في الرتب الادارية الى أن عين كاهية دار الباشا (1)

وهكذا تبين أن الأديب أحمد خير الدين يرجع الى أصل تركي (من القرج) .

لقد اعتني به والده عناية خاصة وسهر على تعليمه الى أن تخرج من الزيتونة محصلا على شهادة التطويع سنة 1926 .

ولقد شعر أحمد خير الدين بأن التعليم الذي تلقاه في الزيتونة كان منقوصا . فعكف على المطالعة وبالاخص مطالعة عيون الأدب الغربي المترجم الى العربية . كما شغف كثيرا بانتاج أدباء المهجر .

ولم يقف انخراطه في سلك معلمي المدرسة العرفانية (بحي باب سويقة) حاجزا بينه وبين متابعة دروس علم العروض على الشاعر محمد الشاذلي خزندار بل تجاوز ذلك الى تعلم مبادىء الموسيقى في العطارين على الاستاذ علي الدرويش سنة 1933 .

وأخذ أحمد خير الدين يتردد على النوادي الأدبية التي كان سوقها رائجا في أوائل هذا القرن الى الخمسينات .

كل هذه النوافذ الثقافية ساهمت في تكوين شخصية أحمد خير الدين الأدبية والاجتماعية الى جانب المناخ الشعبي الذي ترعرع فيه وتأثر به وأثر فيه ، وقد ظهر هذا التأثر في انتاجه سواء في الشعر العربي أو الع مي أو كتابة المسرحية .

طرق أحمد خير الدين التأليف المسرحي في الثلاثينيات عندما كان يتردد على النوادي المسرحية ويختلط بالممثلين والممثلات ويعمل مع بعض مسيري الفرق لنسخ المسرحيات ، وتنقيحها ، وتحفيظ الأدوار للمثلاث وأسندت له بعض الفرق خطة كاتب عام لها .

وزاد في تمتين علاقته بالمسرح بعد أن شارك في المباراة التي أعلنت عنها جمعية الاتحاد المسرحي في موسم سنة 1937 . وقد اختارت لجنة التحكيم المتركبة من الشاعر مصطفى آغا ، ومحمود بورقيبة المحامي ، والأديب محمد الحبيب ، مسرحية الكاهنة على غيرها من المسرحيات والتي قدمتها الى الجمهور جمعية الاتحاد المسرحي في 11 ديسمبر 1937 .

ولقد شجعه هذا النجاح على المشاركة في المباراة نظمها الاتحاد المسرحي سنة 1939 . وفازت مسرحية (ثمن العفاف) التي اقتبسها عن مسرحية « واحدة بواحدة » لشكسبير .

وعندما أعلنت بلدية تونس العاصمة سنة 1948 عن مسابقة في التاليف المسرحي بادر بالمشاركة فيها بالمسرحية التي ننشرها اليوم . وقررت لجنة التحكيم المتركبة من الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ، وعثمان الكعاك وعبد الوهاب باكير ، ومحمد سعيد الخلصي باسناد الجائزة ـ « الى مصر أو بدر الدجى » ؟ وقدمت هذه المسرحية الى الجمهور لاول مرة في 24 و 25 مارس 1949 على ركح مسرح بلدية تونس من طرف جمعية الاتحاد المسرحي . كما قدمها بعد ذلك قسم التمثيل للبعثة الجزائرية العلمية في خمسة عروض بعدة مقاطعات بالقطر الجزائري الشقيق وذلك ما بين 21 ديسمبر 1949 و 15 جانفي 1950 .

شعر أحمد خير الدين من خلال تجربته للكتابة المسرحية بأن للمسرح دورا كبيرا في التوعية والتثقيف . فاراد أن يخاطب أبناء بلاده ـ في عهد الاستعمار ـ باللغة التي يفهمونها فكتب مسرحيات باللغة العامية ذات طابع اجتماعي ونقدي نالت نجاحا جماهيريا كبيرا وشهرة في الأوساط الشعبية لم تحققها له المسرحيات المجازة في المباراة فعندما عرف هذه الحقيقة سخر قلمه لكتابة المسرحيات بالعامية نذكر منها : شد مشكومك ـ كسرت الكاس ـ رجعتلو عقلو ـ عفيفة ـ عفتها اسبب اسعادتها ـ تايب لله ـ لعزوز هزرها الواد ـ أه من بابا واحماتي ـ الحاج كلوف في الخلاعة ـ الحاج كلوف في الحمام » وقدمت المسرحية الأخيرة ما يزيد عن 186 عرضا في موسمين كما اقتبس مسرحية « سيدي حاضر يا شكايا » بالاشتراك مع البشير المتهني .

نقل أيضا فصلا واحدا من مسرحية « السيد » لكرناي مستعينا ببعض المترجمات العربية وقد صاغه شعرا .

كما كتب مسرحية عن أحد أبطال الجنوب التونسي في عهد الاستعمار يدعى (الدغباجي) وقدمتها التلفزة التونسية في السنوات القليلة الماضية . وكان أحمد خير الدين من أبرع ناظمي الأغاني بالدارجة التونسية كما كان من الذين أرسوا صرح الأغنية التونسية الى جانب محمود بورقيبة وعبدالرزاق كرباكة وعلي الدوعاجي اذ نظم ما يزيد عن 240 أغنية طيلة ربع قرن . وقد غنى له في هذه الفترة جل المطربين والمطربات .

فارق أحمد خير الدين الحياة فجأة يوم الثلاثاء 18 ربيع الثاني 1387 هـ الموافق لـ 25 جويلية 1962 م تاركا تراثا أدبيا متنوعا جديرا بالعناية والدرس

---

(1) ابن ابي الضياف : اتحاف ج [illegible] ـ ص [illegible] ترجمة رقم ([illegible])

المسرح التونسي والأحداث الاسلامية

يسر مجلة « الحياة الثقافية » ان تنشر في هذا العدد مسرحية « الى مصر او بدر الدجى » وهي من تاليف احمد خير الدين .

ويدخل عمل المجلة في نطاق التعريف بأهم التراث المسرحي التونسي الذي أوشك على الاهمال والتلاشي . كما يرمي هذا العمل التعريفي الى اطلاع القراء عامة والمهتمين بتاريخ المسرح التونسي خاصة والعاملين المسرحيين بصفة أخص حتى يتم الربط بين الاجيال المسرحية في هذه البلاد .

لقد اعتمد مسرحنا في اول حياته على المسرحيات المترجمة والمقتبسة عن اللغات الاجنبية ، التي وردت على تونس من المشرق العربي خلال السنوات العشرين .

ثم شعر المهتمون بالمسرح في بلادنا بضرورة خلق مسرح وطني يتناول أهم الاحداث التاريخية الاسلامية التي جرت في تونس . هذا التاريخ الذي صنعه اجدادنا حتى يكون المسرح أشد التصاقا بالجماهير المشاهدة التي ترى فوق الركح شخصيات تربطها بها العقيدة الدينية والنطاق الجغرافي .

لذا كتب زين العابدين السنوسي مسرحية « فتح افريقية » التي تطرق غزوة العبادلة السبعة كما الف محمد الحبيب المحامي مسرحية « طارق بن زياد » وقد أظهر فيها اعتناق برابرة افريقية للدين الاسلامي ، والعمل على نشره ، فجل المسرحيات التي كتبت عن حقيقة الفتح الاسلامي هي سجل تاريخي فني من حيث ضبط الاحداث والوقائع مع استعمال الخيال الفني للاطار المسرحي .

ولم يتوقف نشاط المثقفين المهتمين بالمسرح على الاغتراف من تاريخ الفتح الاسلامي فحسب ، بل تواصل الاقتباس من التاريخ والاعتناء بالشخصيات الاسلامية التي تركت بصمات لها أو عليها .

وفي هذا المجال كتب محمد الحبيب المحامي « الواثق بالله الحفصي » كما الف خليفة السطنبولي « زيادة الله الاغلبي » و « المعز لدين الله الصنهاجي » وكتب عبد الرزاق كرباكة « أميرة المهدية » وكتب الهادي العبيدي « عبد المؤمن بن علي » .

وما مسرحية « الى مصر أو بدر الدجى » الا صفحة من صفحات التاريخ الاسلامي الذي عرفته تونس .

وللمزيد من التحقيق نقدم الى القراء معلومات عن الظروف التي حفت بظهور هذه المسرحية كما جاء ذلك في الصحافة :

كتبت جريدة (الصريح) بتاريخ يوم السبت 26 مارس 1949 بالعدد العاشر منها ما يلي :

الى مصر ...

عرضت جمعية الاتحاد المسرحي في هذا الاسبوع المسرحية العربية التي وضعها صديقنا الاستاذ احمد خير الدين عن الحملة التونسية الى مصر وأسماها « بدر الدجى » او « الى مصر » وهي المسرحية التي رأت اللجنة البلدية ان تمنحها الجائزة الثانية في مباراتها . او ان تمنحها ربع المبلغ المالي المقرر للمسرحيتين الفائزتين في التأليف وتحدثنا عن ذلك في حينه ...

اما هذه المسرحية من حيث التاليف فنترك الحديث عنها لفرصة اخرى نتمكن فيها من تحليلها بأسلوب واف . واما من ناحية التمثيل فقد لاحظنا ان الشبان الذين عهد اليهم بالقيام بادوارها قد بذلوا مجهودا ملموسا ليحققوا النجاح فقاربوا ادراك الغاية وهم معذورون ان لم يحفظوا النجاح الكامل اذا علمنا ان التمارين على الراوية لم تأخذ الامد المادي اللازم . وسياتيك سر ذلك فيما بعد ...

والذي نقوله اجمالا ان المسرحية قد نجحت نجاحا منقطع النظير في مباراة الجمهور التونسي واننا نعدها ثالثة المسرحيات التي تستحق المشاهدة في هذا الموسم بالاضافة الى (قيس ولبنة) و (عطيل) واذ نهني حضرة مؤلفها الفاضل بهذا النجاح الشعبي الذي يعوض عليه حكم لجنة المباراة البلدية ومنهاجها الاعرج الذي سارت عليه ونجاحه الشعبي خير الف مرة من نجاحه في اللجان وقد تنبانا به سلفا عند تعليقنا على نتيجة المباراة

وكتبت جريدة (الاسبوع) بعددها الصادر يوم الاثنين في 27 مارس 1949 تحت عنوان :

صفحة خالدة من التاريخ التونسي
تنشر على المسرح البلدي

اتحفتنا جمعية الاتحاد المسرحي في هذا

الاسبوع بدرة ثمينة من درر الادب المسرحي من صميم تاريخنا الماجد الحافل بآيات الخلود . ألا وهي رواية « بدر الدجى او الى مصر » من آثار براعة الكاتب الذائع الصيت نابغة التأليف الروائي الاستاذ احمد خير الدين وهي احدى الروايتين الفائزتين بجائزة البلدية في هذا الموسم وقد عالج المؤلف في هذه القطعة الفريدة تاريخ الحملة التي جهزها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله على البلاد المصرية بقيادة البطل التاريخي (جوهر الصقلي) ثم انتقال هذا الخليفة من افريقية وتشييده القاهرة المعزية وما تخلل ذلك من مواقف البطولة النادرة والمجد الناصع التي اعرب عنها هذا الخليفة وقائده سواء في طريقة الفتح او في السبيل الذي انتهجه لرفع لواء العدل واقامة معالم الحضارة الاسلامية وبسط رواق الامن بارض الكنانة وقد توفق حضرة المؤلف الى درجة بعيدة في تصوير هذه الحقبة المشرقة وتسجيل ما انطوت عليه من عظات وعبر . وابدع ما شاء له الخيال في تناول النقط الحساسة البارزة التي تحرك المشاعر وتوقظ العزائم واذا عرفنا انه الشاعر الفحل والكاتب البديع الاسلوب والروائي المنتج الذي زود المسرح في بحر عشرين عاما بآيات بينات هي أجمل ما عرف تاريخ المسرح التونسي في قوة الموضوع . ومتانة الخيال ، وجمال الاسلوب ، وبراعة التصوير الفني . وبلاغة التحرير الادبي . وسلاسة الشعر الراقي البديع ... اذا عرفنا كل ذلك ادركنا قيمة هذه القطعة الفنية الادبية الخالدة التي أبدع خيال أديبنا النابغة وكنا جازمين بأن الدر من معدنه لا يستغرب ... وبعد أن تحدث الكاتب عن التمثيل والاخراج ختم مقاله بقوله : وحبذا لو قامت الجمعية باعادة تمثيل الرواية ليتمكن من لم يسعفه الحظ بمشاهدتها من الاستفادة بما انطوت عليها من آيات الفن البارع الماجد الحي ، والادب البليغ السامي .

وكتبت جريدة (تونس) بعددها 40 بتاريخ الثلاثين من مارس 1949 :

« اما رواية (بدر الدجى) فبقطع النظر عن انسباكها التمثيلي ودرجتها في ذلك فانها من أمتن الروايات لغة كما هو المنتظر من صديقنا الشاعر الاستاذ احمد خير الدين وقد اختار لها حلقة من حلقات مجد التاريخ من عظمة ووحدة الشمال الافريقي والتي شملت جميع افريقية العربية حتى الشام في ملك واحد أولا شك انه مراجع روايته تلك ليقدمها لنا مرة أخرى في روح تمثيلية أكمل تهز من النفوس وتلهبها حتى تكون حرية بجائزة الامم العربية قاطبة كما كانت حرية بجائزة هاته البلدية ...

وكتبت جريدة (الزهو) في عددها 1051 المؤرخ باليوم الثاني من افريل 1949 ما يلي :

بدر الدجى ... أو الى مصر ..

لقد أتيح للمثقفين وانصار الفصحى ان ينعموا هذا الاسبوع بمشاهدة هذه الرواية الجديدة التي هي احدى مدبجات الاديب الضليع الاستاذ احمد خير الدين . واحدى الروايتين الفائزتين في مباراة البلدية لهذا الموسم . وفي الحقيقة انها لجوهرة ادبية ثمينة يحلي بها الاستاذ خير الدين جيد المسرح التونسي . وصفحة لامعة من التاريخ الافريقي المجيد ينشرها يراعه المبدع بين الجمهور . ولا غرو في ذلك فقد عرفنا هذا الاديب من خبرة من زودوا المسرح والتخت بآثارهم القيمة منذ سنين .

وفي رأينا ان روايته هذه « بدر الدجى » لا يفتقر عرضها الا الى عقدة مسرحية متينة يرتكز عليها هيكلها الضخم . وان كانت مسألة (اسماعيل المصور) وظهور مسرحه الحقيقي في اواخر الرواية تعتبر كعقدة لا بأس بها لكننا نلاحظ انها ثانوية بالنسبة لاصل موضوع الرواية . اما لغة الرواية نثرا وشعرا فلقد كانت آية ابداع وكانت بحق الادب الراقي الممتع والسحر الحلال فمرحى .

محمد السقانجي

أشخاص الرواية

المعز لدين الله الفاطمي : آخر خلفاء الفاطميين بتونس وأولهم بمصر
جوهر الصقلي : القائد العام لجيوش المعز وفاتح مصر
اسماعيل بوارو : مصور كان نصرانيا وأسلم
يعقوب ابن كلس : وزير المعز كان يهوديا وأسلم
وفد من قبائل كتامة البربرية
ابن هاني المهدوي : شاعر المعز
أبو الفضل جعفر بن الفرات : وزير مصري
أبو جعفر مسلم : من أكابر العلويين بمصر
ابو اسماعيل الرسي : قاضي
ذكاء الرومي : والي مصر في الدولة الأخشيدية
تحرير : زعيم فريق المقاومين بمصر
فاروز : غلام تحرير
سعيد المهدي أو بدر الدجى : فتاة مصرية متنكرة
جعفر بن الفلاح : قائد كبير من قواد المعز
جندي فاطمي
رجل مجهول : بدر الدجى
جاسوس اول : فاطمي
جاسوس ثاني : فاطمي
جندي قرمطي : (1)
جندي قرمطي : (2)
جندي قرمطي : (3)
عامر : من أتباع جوهر
العباس : من أتباع جوهر
قائد علوي (1)
قائد علوي (2)

الفصل الأول
المشهد الأول

(يرفع الستار عن بيت متوسط التاثيث يسكن به يعقوب بن كلس طبيب المعز الخاص . ويرى وهو في حوار مع الرسام اسماعيل بوارو ــ الوقت ليل)

اسماعيل : أيها السيد الكريم . اني قصدتك الليلة لنتحدث في أمر عظيم ، ونتعاون على تنفيذ خطة لم أر معينا ولا أقدر على تنفيذها سواك .

يعقوب : انا عند حسن ظنك بي ان كانت لي قدرة على اعانتك في مهمتك .

اسماعيل : أريد ان اقول هل في امكانك ان تشرح لي سبب خروجك من مصر بعدما كنت فيها رأس الدولة المفكر وعضدها الاقوى لعلي أرى في قضيتنا تشابها يدعونا الى التعاون في العمل للنيل ممن أفقدنا السعادة وجرعنا كأس الذل المرير والاغتراب .

يعقوب : انت تعلم أيها الاخ ما أنفقته من شبابي وما قمت به من أعمال جبارة لشد أزر الدولة الأخشيدية واحلالها في ماء المنعة والشدة حتى باتت ذات الشوكة المهابة والسلطان المؤيد . ولكن الوزير جعفر بن الفرات قد أكل الحسد قلبه وخشي على مركزه من ان يحطمه دهاء منافسيه ممن تدعمت بهم أركان الدولة الأخشيدية حتى امتد سلطان نفوذها الى بلاد مصر والشام وتجاوزه الى العراق وما يليها . فحمى ذلك الوزير الماكر هامته بمغفر الغدر . وجرد سيف العدوان في وجه كل مخلص للدولة . وقد كنت انا احد اولئك الضحايا . فحبست . وصـودرت اموالي . واضطهدت وساءت حالي . وامتدت يداه للفتك بعشيرتي وآلي . كل ذلك من غير ما جريرة اقترفتها ، او خيانة ارتكبتها . ولما فزت بنعمة الخلاص من قيود السجن خرجت من مصر خاوي الوفيضة . لا هم لي غير النجاة بنفسي وعيالي وذلك بأكناف مولانا المعز الذي اولاني كل تكريم وعز . فاخلصت الى جانبه ، وتعلقت بأذيال ركابه . وها انا والحمد لله من اعز الناس لديه ، وأخلصهم اليه ، وأشدهم ذودا عنه .

اسماعيل : وهل خنعت للأذى ، وأغضيت عن القذى ، فخمدت جذوة الحقد في فؤادك‚عن الفتك بمن غير حالك‚و أبدل عزك باذلالك ؟

يعقوب : انني لم ادخر جهدا في حث مولانا على اعادة الهجوم على مصر . ولم اترك فرصة تمر بدون استغلالهـا ــ للتنويه بشان بلاد الكنانة والاستيلاء على خيراتها واستثمار كنوزها ــ حتى زينت له نقل مقر الخلافة الفاطمية الى الديار المصرية . ومن ثم الى بغداد بعد ان يطرد العباسيين منها . لأني على يقين من ان الخليفة العباسي المطيع لله ابن المقتدر اضعف من أن يتصدى لجيوش المغاربة الأشاوس ويصدهم عن الديار الاسلامية الخاضعة لحكمه .

اسماعيل : وهل تظن يا صديقي ان مولانا المعز سيجهز حملة اخرى بعدما خابت حملات جده عبيد الله المهدي الثلاث كما خابت حملته الأخيرة التي بلغت فيها جنوده الى الواحات ؟

يعقوب : ان مصر يا حبيبي كانت في ذلك العهد ذات منعة وسلطان ، ولئن استطاعت وقتئذ رد غارات الأعداء والصمود في وجه الهاجمين لكنها الآن قد باتت في خضم من الفوضى وفي حالة من اليأس تؤذن بزوال ملك الأخشيديين منها فالبؤس والفاقة والغلاء وانتشار القحط وتفشي الوباء واستمرار انخفاض النيل ، كل هذه عوامل فتك تريع بالأرواح . وقد جر ذلك عجز كافور عن صد غارات القرامطة على بلاد الشام ، والوقوف في وجه النوبيين الذين بلغوا بالنفوذ في الحكم الى اخميم . وتبع ذلك عجز الحكومة عن دفع رواتب الجند والغلمان فتنكروا لكافور وثاروا عليه . وها قد مات كافور وبقيت مناطق نفوذه في هيجان واضطراب . أضف الى ذلك نجاح الدعاية لبث المذهب الفاطمي في تلك الربوع . فهذه العوامل كلها قد اعانتني على حمل مولانا المعز على اعادة الكرة ومحاولة الاستيلاء على مصر .

اسماعيل : اني ارغب منك يا سيدي ان تقدمني الى مولانا الخليفة لكي اعينك في سب-تك والرجاء ان لا ترفض اعانة ولو كانت ضئيلة .

يعقوب : وباي طريق يكون ذلك ؟

اسماعيل : الأمر بسيط . انت تعلم براعتي في فن التصوير وقد زرت اغلب الممالك بين عربية وافرنجية . ورسمت صور الكثير من ملوكها . فكانت تلك الصور سببا في احلالي عندهم واكباري في اعينهم . فنلت بذلك حظوة لم ينلها غريب قبلي في قصور الخلفاء والقياصرة . قدمني اليه بعلة اني اريد رسم صورته .

وسأقدم اليه كأنموذج لفني اطارا به صورة الفتاة التي احتلت من قلبي اشرف مكان واعز منزلة لا تتسع لغير المحبوب .

يعقوب : ومن هي صاحبة هذا الرسم ؟

اسماعيل : هي يا صديقي فتاة قاسمت البـدر نوره وجماله . تحلت بالعفة وتزينت بالوقار . رايتها في قصر كافور فاضرمت في قلبي نار الحب واوحت الى ريشتي بدائع ايات الفن الخالدة . تعارفنا فتآلفنا . وتعاهدنا على الحب الطاهر والوفاء المكين . ولكن عند صفو الليالي يحدث الكدر .

يعقوب : من هي فاتنتك ايها الحبيب ؟

اسماعيل : هي بدر الدجى ابنة عراف أعور كان يقيم بمصر . وهو الذي تنبأ للأسود كافور باتصاله برجل عظيم وبلوغه مبلغا ساميا . ثم اعتلائه على عرش مصر ، وانه سيعظم شانه بين العباد . وينبه قدره في البلاد .

يعقوب : عجيب والله .

اسماعيل : اي نعم ... والعجيب ان كافور لم يزل اذ ذاك عبدا رقيقا في ملك ابن عباس الكاتب . فلما سمع كافور من العراف نبوءته تلمس جيبه فلم يجد به سوى درهمين فاعطاهما اياه ثم نسيه من ذلك اليوم . ومرت الأيام سراعا . وشاء القدر ان يتحقق تكهن ذلك العراف . فاذا بالايام تخدم كافور ، والسعد يأخذ بيده من وهدة العبودية الى قمة عرش الفراعنة وتتم للاسود المعجزة بين عشية وضحاها . وفي ذات ليلة رأى كافور ذلك العراف في منامه فتذكر اقواله ، وما تنبأ له به فأرسل في الغد رسولا للبحث عنه ليجازيه بما يستحقه من جزيل العطاء . ولكن الرسول بعد البحث الطويل رجع واخبر سيده كافور بان العراف قد مات ، وترك بنتين ، واحدة تزوجت والثانية في انتظـار

الزواج . فأرسل كافور في طلبهما واشترى لكل واحدة منهما قصرا فخما وأغدق عليهما الهدايا والأموال وأدخل زوج الكبرى في حاشيته وأناله اعلى الرتب والمناصب .

يعقوب : والثانية ؟

اسماعيل : الثانية – يا حبيبي – هي بدر الدجى أسرة قلبي . فقد اختار لها كافور زوجا من رجال بلاطه ورام تزويجها منه . ولكنها أبت ذلك . وفاتحت اختها في امر الزواج بي فاستنكروا منها ذلك وقالوا لا نرضى بمصاهرة هذا المصور الغريب . وما كان منها الا ان امتنعت عن الاقتران بمن ارادوه لها بعلا بالرغم عنها فتوعدوها وحبسوها في بيت اختها ، وانقطعت عني من ذلك الحين انباؤها . فسئمت الاقامة هنالك ، وهمت على وجهي بعدما صنعت لها رسما بديعا افرغت فيه ما أوتيت من مهارة وفن ومزجت أدهانه بمدامعي ونجيع قلبي .

يعقوب : لا شك في ان هذا الرسم قد جاء اية من آيات الجمال الصامت .

اسماعيل : نعم كما كانت صاحبته آية من آيات الجمال الناطق .

يعقوب : ان قصتك يا صاحبي تثير الاشجان ، وتذكي لهيب حقدك على من كان سببا في شقائك ، وعلة في بلائك . والآن طب نفسا فاني مخاطب مولانا الخليفة في شأنك . فاحضر بالقصر قبل انعقاد مجلس الحكم لاقدمك اليه في جلسة خاصة . ولتكن معك الصورة وعليك ان تختار الطريقة التي تكون اقرب الى اثارة نفس مولانا المعز .

اسماعيل : حسنا ايها الصديق المخلص . ستراني بحول الله اهلا لما طلبته مني . والآن استودعك الله .

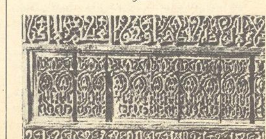
يعقوب : على أمل اللقاء ان شاء الله .

(يخرج اسماعيل ويبقى يعقوب منفردا وهو يتميز غيظا على الوزير جعفر الذي كان السبب في تشريده – ثم يخاطب نفسه)

يعقوب : لقد ظفرت الآن بالعضد الاقوى والساعد الأسد . اننا سنزيد اليوم في ايغار صدر الخليفة . ونحثه على غزو مصر والاستيلاء عليها . حتى اذا ما تم ذلك انتعشت في نفسي روح الأمل . وابتسم لي حظي من جديد ...

يا ليت شعري هل ارى بعد المهانة سيدا
ان السعادة والمنى في الانتقام من العدى

ستار



الفصل الأول
المشهد الثاني

يرفع الستار عن المعز وهو في غرفته الخاصة في قصره بالمنصورية في يوم مطير بارد وقد جلس في مخدع مربع مفروش باللبود والزرابي وعليه جبة وبين يديه كثير من الرسائل ودواة . ويرى وهو يطالع كتابا ثم يخط في ورقة امامه ، ثم يحضر غلامه ليستاذنه في دخول يعقوب ابن كلس ...)

الغلام : مولاي لقد حضر طبيبك يعقوب بن كلس .

المعز : ادخله .

(يخرج الغلام وبعد برهة يدخل مصحوبا بيعقوب)

يعقوب : السلام على مولانا الخليفة الأعظم .

المعز : وعليك السلام .. لقد تأخرت عنا وما تعودنا منك ذلك ؟

يعقوب : لقد شغلت عن سيدنا بما يهمه .

المعز : حدثني مليا يا يعقوب . فاني احب فيك رجاحة الفكر واتعشم في ملامح الاخلاص للقضية العلوية .

يعقوب : حقق الله آمالكم في عبدكم . لقد ساقت الي يد الاقدار غريبا عن هذه الديار ، من الله عليه مثلي بالدخول في دين الاسلام . وتفتحت مغاليق قلبه لنور الايمان حادثته طويلا فرأيت فيه المخلص الوفي لذاتكم واللسان الناطق بمحامدكم ومآثر دولتكم . وعلاوة على ذلك . فالرجل قد أوتي من بدائع فن الرسم والمهارة في التصوير ما جعله نادرة عصره ومفرد عصره . وقد اطلعني على نتائج ما رسمته ريشته فرأيت ما ابهرني وملك علي شوارد اعجابي . وقد نال هذا الرجل بفضل مواهبه الفنية اعجاب ملوك العالم واعتبارهم .

المعز : وعلام لم تحضره معك حتى نشاهد نتائج مواهبه ؟

يعقوب : انه فاتحني في امر مثوله لديكم والسماح له برسم صورتكم الكريمة كما فعل لكثير من ملوك العرب وقياصرة الافرنج . فوعدته باستشارتكم في ذلك وهو في رحاب القصر ينتظر أمركم المطاع .

المعز : اننا نكبر اهل المواهب . ونحنو على ذوي النبوغ والعبقرية . ادخله يا غلام .

الغلام : أمر مولانا (يخرج)

المعز : وما اسم هذا المصور يا يعقوب ؟

يعقوب : كان يسمى جول بوارو قبل ان يمن الله عليه بالدخول في دين الاسلام . وبعد ان أسلم صار يدعى اسماعيل .

(يدخل الغلام ومعه الرسام اسماعيل بوارو وهو يحمل معه اطارا مستورا ...)

اسماعيل : السلام على مولانا الخليفة المعظم .

المعز : وعليك السلام : تفضل ايها الضيف المبجل .

اسماعيل : ايدكم الله بروح منه . وزادكم عزا وتمكينا .

(يجلس)

المعز : لقد اخبرنا طبيبنا يعقوب ببراعتكم في فن الرسم وما لكم من المواهب النادرة في التصوير . اطلعنا على شيء من نتاج ريشتكم لنشارك يعقوب في اعجابه بكم ...

اسماعيل : (يطأطيء راسه علامة الايجاب ، ثم يقف ويزيل الغطاء الذي يستر الاطار بتؤدة فيبدو منظر صورة بدر الدجى فاتنا أخاذا . فيعجب المعز بجمال الصورة وبراعة المصور ، فيخاطب اسماعيل بقوله)

المعز : هذه الصورة من صنع ريشتك ؟

اسماعيل : نعم يا مولانا .

المعز : انك اتقنت الرسم وابدعت في التصوير حتى جعلت الملامح تكاد تنطق بحسن صاحبة هذه الصورة . فهل هذه صورة اوحى بها الخيال فاثبتها بريشتك هنا ام فتاة لها في الوجود حقيقة ؟

اسماعيل : (يضطرب قليلا ويكاد يفضي له بالحقيقة . ثم يملك قواه ويقول :) هى صورة احدى غواني كافور الأخشيدي يا مولانا كان مفتونا بجمالها رغم سواد جسمه ، وقبيح رسمه . وقد ذهب به الافتتان بحبها الى استدعائي لقصره لأصورها ويجعل الصورة قائمة مقام ذاتها اذا ما فارقته ولو قليلا .

المعز : وهل كانت راضية بهذا المحب البغيض ؟

اسماعيل : لقد اغتنمت فرصة انفرادي بها عندما كنت اصورها في قصر كافور . واستدرجتها حتى أفضت الي بدخيلة امرها ، وظلت تبكي حظها الذي ألقى بها بين براثن ذلك العبد الأسود والوحش المفترس ، خصوصا وهي شريفة النسب تمت بصلة القرابة الى عائلة علوية طاهرة . ورغم ذلك فهي مفتونة بكم وفي كل يوم تمني نفسها باستيلائكم على مصر لتفكوا أغلال الأسر عنها وعن مثيلاتها الكثيرات .

المعز : (تظهر عليه علائم الاهتمام بالحديث) وهل لنا في مصر اعوان وانصار كثيرون يمكن لنا الاعتماد على اخلاصهم لنا في الابان ؟

اسماعيل : ان اغلب سكان مصر يا مولانا يسبحون بحمدكم ويذيعون مزاياكم في الآفاق ويعملون جهد المستطاع على نشر المذهب الفاطمي والتبشير به . ولا تنس يا مولانا اخذ البيعة لجلالتكم من معظم رجال الدولة الأخشيدية وسائر الكتاب والولاة وذلك عند حملتكم على مصر في عهد كافور بالرغم عن كونها لم تتم اذ ذاك . ولما علمت بدر الدجى بعزمي على المجيء الى هنا طلبت مني ان أحمل اليكم تمنياتها مع صورتها هذه مستنجدة بكم على تحرير مصر عامة والعلويين خاصة من جور بني الأخشيد . ويكفي استفزازا لهمتكم يا مولانا ما يقوم به والي مصر المسمى (نكاء الرومي) من اضطهاد القائمين بالدعوة الفاطمية وغيره من الولاة .

المعز : وهل في مصر نساء يبلغن هذا المبلغ من الجمال ؟

اسماعيل : جميع نساء مصر يماثلن بدر الدجى جمالا وسحرا .

المعز : (بعد سكوت قصير) سننظر في الأمر ، وسوف نحرر مصر ، ونشاهد بدر الدجى في قصرها ، ونرفع المظالم عن أهلها بعون الله وقوته .

يعقوب : أرأيت يا مولانا كيف كانت جميع أقوالي لا تعدو الحقيقة فمصر بلاد الفخار ، كنز الخيرات ، منبع الجمال الساحر ، مهبط الفنون ومنبت العرفان . لقد سنح الزمان يا مولانا بان تكون هذه الجنة مقر ملك الفاطميين العظام فنيلها المبارك يغدق عليها خيراته وارزاقه . وتربتها الثرية بكنوزها الأثرية تجود على الدولة بمعين لا ينضب من المال وبحرها يأتي لها بمختلف الحاجيات من كل صقع قصي . وما خبر الكنوز العظيمة يا مولانا المخبأة ببطن الأرض وتحت جدران المساجد ، والتي عثر على بعضها أيام ملك الطولونيين وفي عهد الاخشيديين بالخبر المجهول . أضف الى كل ذلك ما شاهدته بنفسي هنالك . وما يصل الينا كل يوم من الأنباء عن امتعاض جميع الطبقات من جراء الحكم الأخشيدي الجائر ، حتى اصبح الناس جميعا يتمنون اليوم الذي تعلو فيه راية سلالة بنت الرسول على بلادهم . فحتام التواني يا مولاي ، وقد خدمك السعد ، ووافاك الحظ ، وهو لا يأتي في الحياة مرتين ؟

اذا هبت رياحك فاغتنمها ... فان الخافقات لها سكون
وان ولدت عشارك فاحتلبها ... فما تدري الفصيل لمن يكون

المعز : (بعد تفكير قليل) لقد تهيأت الأسباب ، وانقطع من المغرب حبل الاضطراب . وحصل لي التصديق ، بزوال « الحجر الأسود » من الطريق . لذا سافر ، الأمر في نصابه اليوم قبل الغد . والله ولي الاعانة .

كاتب السر : (يدخل) مولانا قائدكم جوهر بالباب .

المعز : ليدخل .

كاتب السر : أمر جلالتكم (يخرج)

المعز : (يخاطب يعقوب) مر باحلال هذا الضيف محل التبجيل والاكرام فهو اهل للعناية ، وحقيق بالرعاية . وابق انت هنا .

اسماعيل : (خارجا) ابقى الله مولانا الخليفة واعز به الدين والدولة .

ستار

الفصل الأول
المشهد الثالث

(المعز – يعقوب – ثم القائد جوهر – ووفد من شيوخ كتامة – والشاعر ابن هاني)

جوهر : السلام على مولانا الخليفة الأعظم .

المعز : وعليك السلام ، خذ مجلسك (يجلس جوهر)

يا جوهر اني مطلعك على ما اتصلت به من اخواننا في مصر . فقد كتب الي من اعتمده من شيعتنا هنالك يقول : « اذا زال الحجر الأسود – يعني كافور – ملك مولانا المعز الدنيا كلها » . وها هو قد زال الحجر الأسود ، وفرغنا – والحمد لله – من شواغل المغرب ، وباتت افريقية كلها في حوزة خلافتنا كما اصبحت جزائر البحر المتوسط كصقلية ، ومالطة ، وجنوة وغيرها خاضعة لسلطاننا . فلم يبق حينئذ الا ان تتوجه الى المغرب لحشد الجنود وجباية ما على البربر من الأموال . واستصحب في قفولك قبائل كتامة والزويليين . اما انا ، فاني سأذهب الى المهدية لاعداد المال والعدد والذخائر والاقوات . وقد أمرت بتعبيد السبل وحفر الآبار وبناء القصور في مختلف المراكز على طول الطريق المؤدية الى مصر . وبعدئذ ستسير بالجيوش على

بركة الله لفتحها تكلؤكم عناية الله ويحرسكم توفيقه حتى نضم الى ملك افريقية ملك مصر والشام والعراق . وبذلك نجمع كلمة المسلمين في الشرق والغرب . ونوحد صفوفهم تحت لوائنا المنصور بقوة الله وعزته .

جوهر : ارادتكم من ارادة الله يا مولانا . توج المولى اعمالكم بالنجاح .

كاتب السر : (يدخل) مولانا ، لقد حضر وفد من شيوخ كتامة حسب اذنكم المطاع .

المعز : ادخلهم .

كاتب السر : (يسلم ويخرج)

المعز : (لجوهر) اني ساشرح ما عزمت عليه لشيوخ كتامة الذين كانوا لنا العضد الأقوى في استتباب الأمن بربوع المغرب الأقصى . اما انت فثقتي بك يا جوهر لم يصبها وهن ولم يتطرق اليها ارتياب فكن عند حسن ظننا بك اعانك الله على ما اولاك .

شيوخ كتامة : السلام على مولانا الأعظم أمير المؤمنين .

المعز : وعليكم السلام يا صفوة المخلصين . خذوا مجالسكم يا اخوان الوفاء (يجلسون وبعد ان يستقر بهم المقام يخاطبهم المعز بقوله :)

أيها الاخوان ، اصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأم الأمراء : أترى اخواننا يظنون انا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب في المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك ونتنعم بالخمر والغناء كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم رأيت ان أنفذ اليكم فأحضركم لتشاهدوا حالي اذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم . واني لا افضلكم في احوالكم الا فيما لا بد لي من دنياكم وبما خصني الله به من امامتكم . واني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب اجيب عنها بخطي . واني لا اشتغل بشيء من ملاذ الدنيا الا بما صان ويصون ارواحكم وعمر ويعمر بلادكم ، واذل وسيذل اعداءكم ويقمع أضدادكم . فافعلوا يا شيوخ في خلوتكم مثل ما افعله . ولا تظهروا التكبر والتجبر ، فينزع الله النعمة عنكم ، وينقلها الى غيركم ، وتحننوا على من ورائكم ممن يصل الي كتحنني عليكم ليتصل في الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل . واقبلوا بعدها على نسائكم والزموا الواحدة التي تكون لكم . ولا تشرهوا الى التكثير منهن والرغبة فيهن . فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا ابدانكم وتذهب قوتكم . ويضعف تمايزكم . فحسب الرجل الواحد الواحدة . ونحن محتاجون الى نصرتكم بابدانكم وعقولكم . واعلموا انكم اذا لزمتم ما أمركم به رجوت ان يقرب الله علينا امر المشرق كما قرب المغرب بكم انهضوا رحمكم الله ونصركم .

احد رجال الوفد : (قائما) سمعنا قولكم وأطعنا نصحكم . وسترانا بقوة الله سواعدكم القوية وسيوفكم البواتر ما دمتم لخيرنا تسعون ولاسعادنا تجدون .

المعز : انظروا من هذه النافذة الى سهول القيروان الشاسعة فسترون بحرا خضما من الجنود البواسل يربو عددهم عن المائة الف مقاتل يصحبهم مثل ذلك العدد او يزيد من الخيول المسومة العتاق . كما اعددت لكم ألفا ومائتي صندوق من الأموال تحملها الجمال . لتفعل ما تعجز عن فعله النصال .

(يسمع عن بعد اصوات الجنود الكثيرة فيتطلع الحاضرون الى رؤيتها من النافذة وكلهم معجب بما رأى ...

الجميع : (يرجعون الى اماكنهم مكبرين معجبين) الله اكبر ! .. الله اكبر ! ..

المعز : (مخاطبا شاعره محمد بن هانئ) هل استفز شعورك ما شاهدته يا شاعر الدولة ؟

الشاعر ابن هانيء : (يقف متطلعا ثانية الى الجيوش وبعد صمت قليل ينشد) (1)

رايت بعيني بوق ما كنت أسمع
وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الافق سد بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر اذ سلمت كيف أشيع
ولم أدر اذ شيعت كيف أودع
ألا ان هذا حشد من لم يذق له
غرار الكرى جبن ولا بات يهجع
نصيحته للملك سدت مذاهبي
فما بين قيد الرمح والرمح اصبع
فلا عسكر من قبل عسكر جوهر
تخب المطايا فيه عشرا وتوضع
تسير الجمال الجامدات ليسره
وتسجد من أدنى الحفيف وتركع
اذا حل في أرض بناها مدائنا
وان سار عن ارض ثوت وهي بلقع
لقد جل من يقتاد ذا الخلق كله
وكل له من قائم السيف أطوع
تحف به القواد والامر أمره
ويقدمه رأي الخلافة أجمع
ويحسب أذيال الخلافة رادعا
به المسك من نشر الهدى يتضوع
مليك ترى الاملاك دون بساطه
وأعناقهم ميل الى الارض خضع
وسل سيوف الهند حول سريره
ثمانون ألفا دارع ومقنع
فتعنوا له السادات من كل معشر
ولا سيد منه أعز وأمنع
ونودي بالترحال في فحمة الدجى
فجاءته خيل النصر تترى وتمزع
فلاح لها من وجهه البدر طالعا
وفي يده الشعرى العبور تطلع
فدَرت الفرسان لله اذ بدا
وظل السلاح المنتقى يتقعقع
وحف به أهل الجلاد فمقدم
وماض واصليت وطلق وأروع
وقد رتبت فيه الملوك مراتبا
فمن بين متبوع وآخر يتبع
فسر أيها المولى المطاع مؤيدا
فللدين والدنيا اليك تطلع

وقد أشعرت أرض العراقيل خيفة
تكـــاد لها دار السلام تضعضع
وأعطت فلسطين القياد وأهلها
فلم يبق منها جانب يتمنع
وما جهلت مصر وقد قيل من لها
بأنك ذاك العبر زي السميدع
وانك دون الناس فاتح قفلها
فانت لها المـــرجو والمتوقع

(عندئذ يبدو التأثر على المعز ويشير بيده الى ابن هانيء قائلا :)

المعز : كفى منك ما سمعنا . حقق المولى فالك . وثبت اقوالك يا سيد الشعراء . اليوم تودع الجيش وقريبا تتقبل انباء الانتصار ان شاء الله .

(يقف المعز فيقف الحاضرون ثم يخاطب رؤساء قبائل البربر بقوله :)

اني عهدت بامر الحملة على مصر الى اخيكم قائدنا جوهر . وليس هو بافضلكم ولكن اعتمادا على ما عهدناه فيه من تفان في حب الدولة وتضحية في سبيل نجاح القضية العلوية .

(ينظر في وجوه رؤساء القبائل في صمت رهيب . ثم يقول في شيء من الشدة :)

المعز : والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر وليدخلن اليها بلا حرب ولينزلن في خرابات ابن طولون ويبني مدينة تقهر الدنيا .. !

(تسمع عن بعد جلبة الجند ودق الطبـول ايذانـا بالاستعداد الى الرحيل . ثم ينشد المعز بحماس الأبيات الآتية :)

هيوا الى الشرق يا جنودي
ما الشرق يا قوم بالبعيد
في مصر رام العبيد ملكا
ولم يتح ذاك للعبيد
فهل سمعتم بسيد القوم
طاطا الرأس للمسود ؟
لمصر سيروا وفوق هام
الاهرام فلترفعوا بنودي

الجميـع : (منادين بحماس) الى مصر .... الى مصر .... الى مصر ... (الستار ينزل على هتاف الجماهير وصوت الطبول وضوضاء الجيش ...)

ستار

1) انشد الشاعر الجاهاني هذه القصيدة الغراء عند تشنييع جيش الفتح الفاطمي يوم خروجه لغزو مصر بقيادة جوهر وذلك يوم السبت رابع عشر ربيع الاول عام 358 هـ وهي طويلة انتقيت عيونها .. (المؤلف)

الفصـل الثاني
المشهد الأول

(يرفع الستار عن قاعة في قصر الوزير المصري أبي الفضل جعفر بن الفرات في مصر – الوقت ليل – ويرى الوزير جالسا ومعه أبو جعفر مسلم الشريف العلوي وأبو اسماعيل الرسي وأبو الطيب الهاشمي وأبو جعفر أحمد بن نصر – الجميع في حوار ...)

أبو الفضل جعفر : (بحزن وكآبة) ايها السـادة الأكارم . لقد دعوتكم في مثل هذه الساعة التي لا يجتمع فيها لغير سمر ، او سماع وتر ، او رد خطر . دعوتكم وانا محطم الفؤاد ، فاقد الرشاد . نلكم من شدة وقع النبأ العظيم والخبر الأليم . حيث بلغني الساعة خبر استيلاء جنود الفاطميين الزاحفين من مدينة القيروان على مدينة الاسكندرية ثغر البلاد المصرية وبابها الحصين . فعظم علي الأمر واعتصمت بالصبر . وقلت ذلك ما شاء الله ، ولا راد لما قضاه .

أبو جعفر مسلم : لا حول ولا قوة الا بالله . هل لديكم تفاصيل عن الحالة وكيف استسلم رجال حاميتها . وماذا فعل الزاحفون بسكانها ؟

أبو الفضل جعفر : لم يبلغني تفصيل يشفي الغليل الا ما ذكره عاملنا هناك في رسالته هذه (يخرج رسالة من جيبه ويقرأ :)

« وان الجيش الزاحف علينا بقيادة جوهر عدده لا يحصى ومراميه لا تستقصى ، موفور العدة ظاهر العزم والشدة . داهمنا كسيل عرم . لا تقف امامه الحواجز ولو كانت جبالا من فولاذ . فاستسلمت له الحامية بدون مقاومة . ونزل الجند بالبلاد . كوابل من جراد . لكنهم لم يعيثوا فسادا ولم يهتكوا حرمات . او يرتكبوا موبقات ... » الخ هذا ما بلغني سمعتوه فماذا انتم فاعلون ؟

أبو جعفر مسلم : ان حالة الدولة أيها الوزير ، قد بلغت من الضعف والانحلال الى حد ينذر انذارابهذا المآل . فممن نطلب المقاومة ؟ أمن الشبان الألى أخلدوا للسكون وتخلقوا باخلاق ذوي المجون ، وانهمكوا في الملذات المستنكرة حتى تقوض بنيانهم ، وضعف ايمانهم ؛ واصبحوا لا يجلبون خيرا ، ولا يدفعون ضيرا ؟ أم نطلب النضال من الكهول الذين أثخنت اجسامهم الجراح وملوا حياة الكفاح ، وباتوا يؤثرون الحتوف على امتشاق السيوف ، وزاد في سوء حالهم ما اثقل كواهلهم من مغارم وجبايا أبترت الجيوب وأدمت القلوب ؟ أم تؤملون الدفاع عن البلاد من ربات الحجال بدل الرجال ؟ لقد انذرناكم مرارا بحلول مثل هذا اليوم العصيب فلم يجد الناصحون آذانا سامعة ، ولا قلوبا واعية ولا عيونا دامعة ..! فأبطرت النعمة الأغنياء ، وتمرد عليكم الفقراء . وسادت الفوضى ، وعمت البلوى . وهذا ما جلب الينا مرض النفوس ، واتساع شقة الخلاف بين الرئيس والمرؤوس . وبذلك تقاصرت الهمم ، وبلغت الدولة الى طور الهرم . بل تخطته الى العدم ونذير موت الامم ضعف الامارة ، وفساد الوزارة،وسوء الادارة ، فاستسلموا

تسلموا ، واحقنوا دماء الأبرياء ، ولا تؤججوها فتنة عمياء تأتي على الأخضر والهشيم ، والرضيع والفطيم ، فما القادمون علينا الا اخواننا وموالينا ، يجمعنا بهم دين الملة المحمدية وتربطنا واياهم القرابة النسبية . فان كانت غايتهم لم الشمل ، ورتق الفتق ، ورد كيد العدو المشترك في نحره ، وحاولنا نحن الوقوف في وجوههم رجعنا بالخيبة وانتصروا علينا ولو كان الجن ظهيرا لنا ومعينا ، وان كانت غايتهم حب الاستيلاء ، وارهاق الضعفاء ، فدولتهم دائلة ، ونعمهم زائلة . وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ...

الوزير جعفر : هذا ما عن لشيخنا الشريف . فبماذا يشير باقي الجماعة ؟

أبو اسماعيل الرسي : (بعد مفاهمة وجيزة سريعة مع باقي الحاضرين) الرأي ما أبداه الشريف ابو جعفر . فان مكانته في قلوب أهل مصر عظيمة ورأيه سديد . وعلاوة على ذلك فان شرف نسبه مع مكانته كفيلان برجحان رأيه وقبول مقترحه فلنعرض بنود الصلح على قائدهم . وليكن ذلك في دائرة حماية الكرامة وانتفاء الملامة . وان أبوا الا اذلالنا فلتكن دماؤنا فداءنا لشرفنا . وليشهد التاريخ بان هذه الأرواح باتت للوطن ثمنا يشترى بها أي ثمن ، وليكن مولانا الوزير جعفر سفيرنا والمتكلم بلساننا .

الوزير جعفر : الآن وقد أجمعتم الرأي على المذاكرة في شأن الصلح ، فاني اقيم مقامي ابا جعفر مسلم الشريف فهو الكفيل بهذه المهمة فله رئاسة الوفد . واني متفائل به خيرا . وليكن ذهابكم غداة الاثنين (1) فاستعدوا لذلك نجح الله مسعاكم وسدد لخير الجميع خطاكم .

أبو جعفر : قبلت المهمة . وسنرجع ان شاء الله بما يرضي الأمة .

الوزير جعفر : (يقف فيقف الجميع . ثم يخرج رجال الوفد فيبقى الوزير منفردا ثم يصفق ــ فيدخل عليه حاجبه .)

حاجب الوزير : مولاي .

الوزير جعفر : هل حضر ذكاء الرومي ؟

الحاجب : هو في انتظار انكم بالدخول يا مولاي .

الوزير : ادخله عاجلا .

الحاجب : (يسلم ويخرج ــ ثم يدخل ذكاء الرومي وهو والي مصر)

ستار

الفصل الثاني

المشهد الثاني

(الوزير جعفر مع ذكاء الرومي والي مصر وهو اشد اعداء القائمين بالدعوة الفاطمية في مصر وزعيم شق المعارضة فيها ...)

ذكاء الرومي : السلام على مولانا أبي الفضل جعفر .

الوزير : وعليك السلام . اجلس يا ذكاء (يجلس) اني دعوتك الآن لاعلمك بخبر الفاجعة الجلى . وهي سقوط مدينة الاسكندرية في يد جيوش الدولة الفاطمية . وان اليوم الذي سيصبح فيه الفسطاط مرتعا لخيولهم ومناخا لجيوشهم ليس باليوم البعيد ..

لقد سمعت كل شيء ، فهالني استسلامك السريع ، وانت من عهدت فيك الاستماتة والثبات على المبدإ . فهل ضعفت ارادتك امام شيبة ابي جعفر العلوي ، بعدما زين لكم الاسراع بطلب الهدنة ؟ أرأيتم عاقبة ترككم لذلك الداعية العلوي وأمثاله يمرحون أحرارا في طول البلاد وعرضها ، ينفثون سموم الدعاية ويبشرون بالمذهب الشيعي أينما حلوا وحيثما ارتحلوا حتى نمت انصارهم وازدادت بين عامة المصريين عظمة مكانتهم . فهم اليوم يجنون ثمار كدهم وانتصارهم ، ونحن نجني أشواك الخيبة والندامة ..

الوزير جعفر : ان سوس الدعاية الفاطمية ما فتىء ينخر هيكل الدولة منذ أمد بعيد . فان للمعز أنصارا كثيرين امتزجوا بالأمة المصرية منذ غزانا اجداده المرات الثلاث . ومن ذلك الحين والرسائل السرية متبادلة بانتظام بين المعز وشيعته هنا . فيحيطونه علما بخفايا اسرارنا ، ومكنون امورنا ، ويدلونه على مواطن ضعفنا . ويزينون له اعادة الكرة لغزونا . وهكذا سعينا الى حتفنا بظلفنا . ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . صدق الله العظيم .

ذكاء : ذلك ما دعاني يا مولاي الى تشديد الخناق على كل من آنست منه أقل ميل للعلويين حتى لا أترك مجالا لأعمالهم وتربة صالحة لبذر دسائسهم ..

الوزير جعفر : ورغم كل ذلك فان الدعوة للبيت العلوي قد صادفت نجاحا عظيما في جميع انحاء البلاد المصرية . واصبح فيها عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعي ويتغالى في نشره ... وانا أرجع باللوم على الاخشيد الذي أمر بالدعوة فوق المنابر للقائم الفاطمي بعدما قطعها عن الخليفة العباسي وذلك عندما سمع ان هذا الأخير يروم اقصاء الاخشيد عن عرش مصر واقامة ابن رائق مكانه

ذكاء : ذلك ما قدر فكان . واني اعلمك من الآن بعزمي على اطلاق سبيل جميع العلويين الذين سجنتهم بتهمة مناوأة الدولة حتى لا يكون ذلك حجة علينا تزيد في احراجنا والتنكيل بنا .

الوزير جعفر : لك التفويض في ذلك فافعل ما تراه صالحا واسع ما استطعت في اخفاء حالنا حتى لا تثار نحونا الشكوك ونصبح طعمة لنار انتقام المهاجمين .

ذكاء : ان الأخشيديين وجماعة كافور قد قرروا ان لا استسلام للفاطميين ما دامت فيهم عين تطرف وقلب ينبض . وقد أوكلوا امرهم الى زعيمهم في المقاومة القائد تحرير الذي سيتولى قيادة جيش التحرير ..

الوزير : ذلك ما كنت أخشاه ولا حول ولا قوة الا بالله ...

(يسمع عن بعد صوت المؤذن يدعو النائمين الى اداء فريضة الصبح فيتاهبان للصلاة بينما الستار ينزل رويدا رويدا)

ستـــــار

الفصل الثاني
المشهد الثالث

(يرفع الستار عن قاعة في منزل القائد تحرير ومعه جماعة من زعماء حركة المقاومة ضد الفاطميين وهم من الأخشيديين ـ ثم ياتي ذكاء الرومي والي مصر وهو في حالة تنكر ...)

الحاضرون : (رافعين كؤوس الخمر قائلين :) لنشرب على نخب المقاومة ، ورجالها . (يشربون) .

تحرير : لقد أبطأ علينا ذكاء ونخشى ان تخور ارادته ، ويستسلم لآراء الوزير وبطانته فان المناصب العالية تفسد الطباع وتقلم اظفار السباع . وذلك ما يجعلني لا اعتمد الا على اللفيف والرعاع .

(يسمعون طرقا خفيفا على الباب . فيقول تحرير بعد سكوت قليل :)

تحرير : ها هو قد اقبل (يفتح الباب فيدخل ذكاء متنكرا)

ذكاء : عمتم مساء ايها الاخوان .

الحاضرون : سلمت من الأذى وشرور الاعداء .

ذكاء : ايها الاخوان . لقد قضي الأمر وامضى الوفد على وثيقة الصلح وبتنا من الليلة عبيدا خاضعين لأولئك الافاقين .

تحرير : وانت .. ؟ ألم تشر على الوزير بالعدول عن فكرة الرضوخ ؟

وهل أعلمته بعزمنا على المقاومة حتى النهاية ؟

ذكاء : وماذا يفيد كلامي بعدما اجمع الحاضرون على طلب الصلح والرضا بالعهد الذي التزم به القائد جوهر ؟

تحرير : ان توقيع اولئك المستضعفين على عهد الصلح معناه الحكم على الأمة بالاعدام وعلى صرح الدولة بالانهيار . فيالهم من جبناء اغمار . (ثم يتكلم بلهجة تهكمية) يقولون ان قائد الاعداء جوهر أكرم وفادتهم ورحب بمقدمهم وأعد لهم مأدبة فاخرة فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين . فأكلوا هنيئا ، وشربوا مريئا . وقد قيل في المثل السائر : البطنة تذهب الفطنة .. فليمت الشعب جوعا تحت أقدام الغاصبين . وليحيى ساداتنا النبلاء ولو من فتات موائد الاعداء .

ذكاء : يقال : ان عهد الصلح الذي قطعه جوهر على نفسه وكتبه بيده . وأشهد الوفد عليه اهم ما جاء فيه نقط ثلاث :

الاولى : تعهد جوهر بنشر العدل وبث الطمانينة في النفوس وحماية مصر من كل مغير اجنبي .

والثانية : ترك الحرية للمصريين في اقامة شعائرهم الدينية واصلاح المساجد والمعاهد .

والثالثة : قيامه بما تفرضه حالة البلاد من وجوه الاصلاح في كثير من النواحي الصناعية والفلاحية والتجارية وغيرها من وسائل النهوض بالبلاد من الوجهة العمرانية .

تحرير : هل تعلم ان ما ذكرته يسمى في عرف الأمم حقوقا ؟

ذكاء : نعم . هو كما قلت .

تحرير : والحقوق يا صديقي تؤخذ عنوة ولا تعطى جزافا ، قال قائدهم : « سيمنحنا تلك الحقوق . هذا حسن وجميل . »

ولكن لماذا يسلبوننا حقوقنا وحريتنا كاملة لا عيب فيها ثم يزعمون انهم سيردونها الينا ؟ ولكنها منقوصة مبتورة متبوعة بالمن والاذى ؟

ذكاء : لقد قطعوا العهد بذلك .

تحرير : وما قيمة العهود المكتوبة بمداد العسف على صحف الارهاق الصادرة من غاصب افاق ؟ ان هي لعمري الا حبر على قرطاس ، وبناء بغير اساس . نرهم يمضوا العهود،ويحرروا البنود . اما نحن فقد آلينا بالمحرجات على ان لا يعبر جوهر النيل الا على جثثنا . اما ونحن احياء فلا .

احد الحاضرين : ذلك ما تم عليه العزم من جميع الجند . لذا فكل محاولة ترمي الى ارجاعنا عما عزمنا عليه نعدها من القائمين بها خيانة نجازي عليها مقترفوها بعقاب لا رحمة فيه ولا هوادة .

تحرير : ايها الرفاق . كونوا على استعداد . واسروا الى باقي القواد بالكلمة السرية التي وقع عليها الاختيار لتكون رمز تمييز وتعارف بين جنودنا ألا وهي لفظة « نضال » وليرابط فريق من رجالنا بمركز (منية الصيادين) ومعظم الجيش يقوم بحراسة (النفاضة) فهي الثغر الخطير الذي نخشى ان تسرب الاعداء منه . اما انا فسأكون حيث يلزم ان اكون وليقصد كل واحد منكم وجهته من الآن . والنصر مكتوب للصابرين .

الجميع : (وهم وقوف) الى النضال ... الى النضال ...

تحرير : مع الثبات يا ابطال .

(يخرج الجميع ويبقى تحرير منفردا فياخذ قرطاسا وبعد ان يكتب فيه بعض الكلمات يخاطب نفسه)

تحرير : لقد تم الآن كل شيء ويجب اخفاء هذه الورقة عن كل عين والا تحبط جميع اعمالنا . وتفشل مساعينا وتخيب آمالنا . (بعد تفكير قليل) آه ما أشد عقوقنا لك يا ابن مهران . فكم سخرنا منك وانت تقول لنا في شعرك ناصحا ومحذرا :

وقد حشدوا لمصر ودون مصر ... له خرط القتاد وأي خرط
واقبل جاهلا حتى تخطى ... وجاز بجهله حد التخطي
بكتب جماعة قد كاتبوه ... من اقباط بمصر وغير قبط
وكل كاتبوه ونافقونا ... وكل في البلاد له موطي

تبا لكم ايها الخونة ، يا من تعيشون في اكنافنا . وتاكلون خيرات بلادنا ثم تتآمرون على خرابها ، والفتك بشيبها وشبابها . سحقا لتلك الوجوه البغيضة ، والقلوب المريضة . ما افظع خيانتها ، واعظم جناياتها . ان السنديانة العظيمة الضاربة عروقها في قرار الأرض لا تقدر الزعازع النكداء ولا العواصف الهوجاء على تحريكها . ولكن غصنا رفيقا منها يحرقها ويتركها اثرا بعد عين (ينظر الى الكأس المملوءة خمرا ثم يرفعها ويقول) وهذه الكأس على نخب من أشربها ؟ أعلى صحة الوطن المداس بسنابك خيل الاعداء ؟ أم على نخب أرواح اخواننا الشهداء ؟ (ثم يضع الكاس) لا .... لا على هذا ولا ذاك بل سأشربها على نخب مالكة الحجر . غزالي النافر بدر الدجى .

آه ـ لقد عز صبري ووهى درع جلدي . وهي لم تسلمي القياد . ولم أر منها بارقة حب ووداد .

(يصفق فيدخل غلامه فاروز)

فاروز : سيدي ؟

تحرير : ادع لي بدر الدجى

فاروز : انها يا مولاي لم تزل تئن هكذا .. (آه ... آه ...) وتقول : انها مريضة ... مسكينة والله يا سيدي .

تحرير : أبلغها أمري . وان أبت وتمادت في نفورها فاشبع سياطي من لحمها كي تشفى من مرض التجني .

فاروز : امر مولاي (يخرج) .

تحرير : (منفردا) اسفاه ... كل شيء في هذه الحياة تنكر لي وقلاني ، حتى الموالي والغواني . ايه ايتها الحسناء القاسية ، كوني كما تودين فلا مناص لك مني ، ان اولئك الفاطميين الألى تعبدينهم حبا ليسوا بقادرين على تخليصك من بين براثني الا اذا امسيت جثة هامدة .

(يسمع وقع اقدام متثاقلة)

انها هي القادمة ولا ريب . ويحي .. مالي اضطرب ؟ علام أفقد شجاعتي عندما اراها ، واشعر بشهامتي تتكسر على صخر جفاها ؟

بدر الدجى : (تظهر مقبلة على مهل . ثم ترتمي على احد المقاعد خائرة القوى ـ فيخاطبها تحرير :)

تحرير : (بلهجة المداعب) يظهر ان آلامك نفسية لا جسدية ، لان محياك ما زال فاتنا نضيرا ...

بدر الدجى : ان آلام الجسد لا شيء يذكر بازاء ألم الروح ! ان سقم الجسم يشفى بالعلاج والجمام . ومرض الروح لا يداويه شيء غير اكسير الغرام ..

تحرير : ان مرضك الذي تزعمينه قد جلبه اليك نفورك مني وهو لا يثمر لك غير الشقاء . كوني امراة كما خلقت . واطرحي تعصبك لاولئك الغاصبين السفاكين الذين انتسبوا افكا وزورا الى البتول فاطمة الزهراء ، وهي منهم براء .

بدر الدجى : (في رقة مصطنعة) ان ما حسبته مني غنجا ونفورا ما هو في الحقيقة الا من تاثير الخجل . ونتيجة لما ألقاه منك من قسوة في المعاملة مالي بها عهد من قبل .

تحرير : (يتراجع) صحيح ... ولكن .. لكل امرىء من دهره ما تعود .

بدر الدجى : ولكن لا يخفى عليك اننا معاشر النساء تسبينا البشاشة ، وتأسرنا الكلمة الطيبة ، ويطربنا الثناء . ولو كان زورا وهراء . اما انا .. فماذا رايت منك من اليوم الذي ارغموني فيه على معاشرتك وباعوني اليك بيع العروض الكاسدة ؟

تحرير : لعن الله اصحاب السوء الهمازين الأفاكين .

بدر الدجى : انك لا ترى نهارا الا وانت شارد اللب فاقد الرشد . اما ليلك فتقطعه بحديث الثورات واعداد برامج المؤامرات ، واحتساء المدام مع اولئك الطغام اللئام . والليل انما خلق ليكون ندوة الأحباء وجنة لهم من عيون الرقباء . يتناجون في سكونه بلذيذ السمر وينعمون بأنغام الوتر ويتساقون راح الغرام في كؤوس الصفو وعلى بساط الوئام .

(عندئذ يضعف تحرير امام بدر الدجى فتزيد في اغرائه بقولها :)

تعالى معي الى الشرفة ومتع العين بجمال الكون ونور الحياة واستنشق عبير الحب في رياض الاحلام .

(تحرير يخاصر بدر الدجى ويذهبان معا الى الشرفة المطلة على الحديقة يظهر للرائي كان نور القمر يشع من الشرفة ويسمع على بعد صوت ناي يحمله النسيم بينما بدر الدجى مسترسلة في حديثها ...)

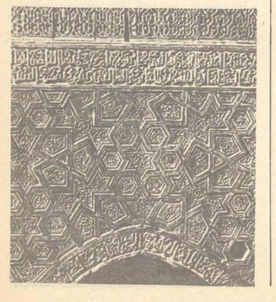
انظر ... ها هو ذا عالم الشعر . وهذه دنيا الحب والحياة ، ما أبدع الليل وما اروعه ، سماء صقلية ، والبدر يتجلى فيها كعروس جميلة والدراري تحف به كالجواري هو ذا القمر أنيس العاشقين في خلوتهم . والامين على سرهم ، وها هو النيل ، كصب عليل . تحنو عليه الغصون . في وداعة وسكون فتستقي من دموعه . ويصطبغ وردها بنجيعه ، (سكوت قليل ـ ثم تقول :) استمع الى هذا العاشق المسكين . ها هي انفاسه الملتهبة تنبعث انغاما حائرة من نايه الحزين (يستمعان لصوت الناي) انها تمتزج بانات امواج النيل الوديع . فيتألف من مجموعها انشودة الحب ولحن الخلود لهذا يا حبيبي خلق الليل . وهكذا تكون الحياة

تحرير : (يخاصرها في شوق وقد استسلم لها ثم يجلسان على المقعد منصتين الى انغام الناي ثم يقول :)

آه ... ما ألذ الحياة .. وما اجمل العيش في ظلال الحب اذا اخلص المحبوب لمن أحب ... الآن طاب لي الشراب فعلى نخبك يا فاتنة .. ! (يشرب)

(تحرير يستسلم لعاملي الحب والخمر فتعانقه بدر الدجى ثم تستل من جيبه الوثيقة وتخفيها في صدرها وتجذب نفسها من بين ذراعيه في حذر وتلقي بنفسها من النافذة وتفر بينما الستار ينزل شيئا فشيئا وصوت الناي يبتعد كذلك ...)

ستار



الفصل الثالث
المشهد الأول

(يرفع الستار على منظر يمثل ساحة حرب وجيوش جوهر الصقلي مرابطة على ضفة وادي النيل وعلى الضفة الاخرى يرابط جيش المقاومة المصري وهو متالف من الاخشيديين وانصار كافوروغيرهم بقيادة الزعيم نحرير ـ القائد جوهر ـ جعفر بن الفلاح ـ جندي فاطمي ـ ثم رجل مصري مجهول)

جوهر : (يحادث في خيمته زميله جعفر بن الفلاح احد كبار قواد المعزلدين الله ...) ألم يأت احد من الجنود الذين ذهبوا يرتادون اخبار جنود المقاومة ؟

جعفر بن الفلاح : لا يا سيدي ، واخشى ان اصابهم مكروه .

جوهر : ما هو رايك يا جعفر في قوة المقاومين ؟

جعفر بن الفلاح : انا لا ارهب ممن يعلن لنا العداء ويتصدى لكفاحنا وجها لوجه . بل لا اخشى الا من يتدرع بالمراوغة والخداع .

جوهر : لا يلتجىء الى هذه الطريقة الا فاقد الذمة مسلوب الارادة عديم الشهامة .

جعفر : لذاك اخذت عقارب الريبة تلسع يقيني . وارى ان رجال الوفد الذين اوليتهم الامان هم احد نوعين : فاما انهم لا يمثلون الا انفسهم ولذلك لم يخضع الشعب لاشارتهم واستخف بسفارتهم وعد تفاوضهم معنا تحكما في مصيرهم وتعديا على سيادتهم . واما انهم حقيقة "كانوا لسان الشعب الناطق ، ورسوله الصادق ولكنهم ارادوا اخذالنابمهادنتهم حتى يجمعوا فلولهم،ويسرجوا خيولهم،ثم يحاربوننا حرب يأس واستماتة لا رحمة فيها ولا هوادة .

جوهر : لقد نظرت يا ابن الفلاح الى الحالة بعين من يقول : من الحزم سوء الظن . وهذا رأي الحازمين وشان المخلصين . اما انا فعلى خلاف رأيك لأني على يقين من ان القائمين بالكفاح لا يحاربون دفاعا عن عقيدة ولا ذودا عن مبدا ، وانما يسوقهم الى الميدان حب تنازع البقاء واختلاف الاهواء ، وايثار الذات،والميل مع الشهوات ، ومن كانت تلك غاياته من الكفاح،لا يرجى له نجاح . فاهدأ يا جعفر بالا . ولا تكن من القانطين ...

(يدخل جندي من جنود الفاطميين)

الجندي : مولاي .

جوهر : ماذا حدث ؟

الجندي : كنت يا مولاي احرس المكان الذي عينت فيه . واذا بي اشاهد على نور القمر شبحا يسبح في النيل قادما من الضفة الشرقية فخلته اولا جنديا من جنود الاعداء فامهلته حتى صار مني على قيد رمح وعندئذ انذرته وطلبت منه كلمة التعارف فاجابني بها فقلت هذا احد رجالنا . ولما خرج من الماء دنوت منه فاذا هو غريب عنا يرتدي لباس اهل مصر . فسالته عن بيان شخصيته فلم يزد عن قوله : اريد الآن مقابلة مولانا القائد جوهر لامر خطير جئت من اجله . ومما لاحظته يا مولاي انه اعزل لا يحمل شيئا من انواع السلاح .

جوهر : احضره عاجلا (يخرج الجندي)

جعفر : اجنبي عنا ويتلفظ بكلمة التعارف السرية ، ؟

جوهر : سينكشف السر متى حضر .

(يرجع الجندي ومعه شاب حسن الملامح ذو لحية سوداء كثة . لم تزل ثيابه مبللة)

الرجل المجهول : السلام عليكم .

جوهر : وعليكم السلام ما خطبك اليها الرجل ؟

الرجل : اتيت اليكم في مهمة يتوقف على اتمامها نجاحكم في كفاحكم .

جوهر : بين حقيقتك ، ثم اشرح مهمتك .

الرجل : اما شخصيتي فستعلمونها في الابان . واما مهمتي فلا ابوح بها الا في خلوة لان ذلك ادعى الى الارتياح واضمن للنجاح .

جوهر : (يشير الى ابن فلاح بالخروج فيتردد في الخروج خشية ان يكون في الأمر مؤامرة على حياة جوهر . فيدرك جوهر ما دار بخلد زميله ابن فلاح فيقول :) لا اخشى الاغتيال ما دام قاتلي مجهولا وسيف القدر مفلولا .

(يخرج ابن الفلاح ويبقى جوهر مع القادم الغريب منفردين وبعد ان ينظر اليه مليا يقول :)

ها نحن الآن في خلوة . فاشرح ما جئت من اجله .

الرجل : ان جيوش الاخشيديين مع من انضم اليهم من انصار فكرة المقاومة نزلوا الى الجيزة بقيادة زعيمهم نحرير . وهم معسكرون الآن بمنية الصيادين ومعظم قواتهم ارسلوها لحراسة ثغر المخاضة لانهم يتوقعون ان يكون هجومكم عليهم من تلك الجهة . وانا اشير عليكم بقطع السبيل بساحة في هذه الليلة . وليكن هجومكم عليهم من ناحية منية الصيادين ومن المنعرج الذي يبعد عن معسكركم هذا بنحو الميلين غربا .

جوهر : سانظر في الأمر .

الرجل : لا تترك الأمر الى الغد يا مولاي لأن المقاومين اتفقوا جميعا على الاستنجاد بجيوش الحسن بن عبيد الله بن طغج الاخشيدي والي الرملة ودمشق واذا نجح سعيهم اشتد ساعدهم وقوي فيهم الامل لا في المقاومة فحسب ، بل وحتى في التغلب عليكم وكسر شوكتكم .

جوهر : (بعد التأمل في وجه محدثه يقول :) أتود مني ايها الرجل ان اعمل بما اشرت به واجازف بارواح جنودي لمجرد اشارة أتلقاها من شخص مجهول الذات والهوية ؟

الرجل : حسبك الآن يا سيدي ان تعلم اني علوي صميم ، شيعي المذهب ، جندي في الجيش العلوي السري الذي يعمل كطليعة امام جيشكم المظفر المنصور ليمهد له السبيل ويذلل له العراقيل .

جوهر : والدليل على صدقك واخلاصك ؟

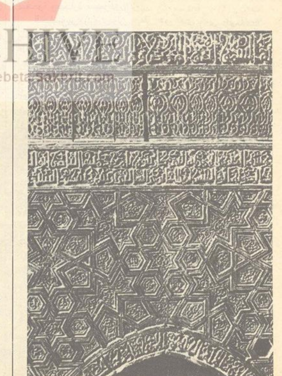
الرجل : أمران يا مولاي : الأول هذه الوثيقة السرية التي تحصلت عليها من يد من حررها وامضاها (يناوله اياها) . والامر الثاني ابقائي لديكم كرهينة فاذا ما ثبتت عندكم خيانتي فدمي مسفوح على راسي .

جوهر : (بعد قراءة الورقة ينادي) جعفر ... جعفر ...

جعفر : مولاي ؟

جوهر : لقد صح عزمي على عبور النيل الساعة فاصدر الأمر الى الجيش بذلك . اقتف اثري مع الجيش فلهذا اليوم ارادك المعز يا جعفر ... وانت ايها الرجل الغريب الزم جانبي ولا تفارقني من الآن (تمثيل صامت بين جوهر والرجل)

ستــــــار



الفصل الثالث
المشهد الثاني

(يرفع الستار عن ساحة كبرى بالجيزة من ارض مصر . ويرى جوهر القائد بعد انتصاره على جنود المقاومة محفوفا بقواده ورجال حاشيته تعلوه المهابة ويتوجه الوقار ...)

جوهر : (يخاطب جنده) ايها القواد الانجاب والجنود البواسل . يا اشبال ليوث جبال الاطلس . ويا احفاد الكاهنة . ايها الابطال المنحدرون من اصلاب حنبعل وهاملكار . يا رؤساء القبائل البربرية وزعماء العشائر المغربية . هذا يومكم الذي كنتم توعدون يوم اشرقت غرة صبحه بنصر مبين ، وفتح هز اطراف المغربين . وفرق قلوب المارقين المعتدين . ايها الاخوان والابناء اعلموا اننا لسنا اليوم في دار حرب تستباح فيها الذمم وتنهب الارزاق . ويتخطى سياج الاخلاق . فبالرغم عما لاقيناه من مقاومة كانت نتيجتها ما يلقاه جيشان يتقارعان . هذا يهاجم ، وذاك يقاوم . فاننا لم نعتبر انفسنا فتحنا مصر عنوة واقتدارا . بل ما اتينا الا لربط الصلة الودية،ولم شعث الامة الاسلامية . ولذا فاني جددت عهد الامان الذي طلبه مني الشريف الجليل ابو جعفر مسلم العلوي لاهل مصر . وهذا نصه فاقرأه يا ابن فلاح على الحاضرين حتى يقولوا بمقالي،وينسجوا على منوالي . وكل من وسوست له نفسه بنقض شيء مما قررت فسيكون جرمه عظيما،وعقابه اليما .

(يسلم نص العهد لابن الفلاح)

ابن فلاح : (يقرا النص بصوت جهوري) : « بسم الله الرحمان الرحيم . وصل كتاب الشريف الجليل أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وعلوه . وهو المهنأ بما هنأ به من الفتح الميمون فوقفت على ما سأل من اعادة الامان الأول وقد أعدته على حاله وجعلت الى الشريف أيده الله ان يؤمن كيف رأى وكيف احب ويزيد على ما كتبته كيف شاء فهو أماني وعن انني وانن مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه . وقد كتبت الى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الهاربين الى ان يرجعوا الى **الطاعة** ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ويعمل الشريف أيده الله **اللقائي** في يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان .

جوهر : وليلطف صاحب الشرطة في البلاد مع احد رجالنا حاملا علما يرسم عليه ام مولانا المعز مع هذه الكلمات : « أمنا الناس من جديد . وأعلنا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤونة »

ابن فلاح : امركم مطاع .

جوهر : واود الا تبزغ شمس الغد حتى يكون اساس قصر مولانا المعز محفورا هنا .. وليخطب الخطباء في جميع المساجد الجامعة باسم امير المؤمنين مولانا المعز صلوات الله عليه . وليعقد داعي الدعاة المجالس لتفقيه الناس وتعليمهم اصول المذهب الشيعي . وليشرع من الآن في بناء سور منيع يحيط بالمدينة من جميع الجهات .

الرجل المجهول : لقد اتصلت يا مولاي بكتاب سري من شمول الاخشيدي الذي استخلفه الحسن بن عبيد الله على دمشق وفيه يحثكم على القدوم الى تلك البلاد ويعدكم بتسليمها اليكم

واعانتكم على اتمام فتح ما يليها . ودونكم يا مولانا الرسالة (يعطيها له)

جوهر : (بعد ان يقرأ الرسالة) أيها القواد ، لئن من الله علينا بتثبيت أقدامنا بارض النيل . واطفاء لهيب الثورة فيها لكنني ما زلت مضطرب البال من خطر القرامطة المداهم . فهم قوم مناكيد لا يطيب لهم قرار . قبل الاخذ بالثار ولا بد ان يهاجمونا اليوم او غدا . ولذا فاني موكل اليك يا ابن فلاح مهمة قيادة الجيش الذي سيخرج الى فلسطين وبلاد الشام . وانك مصطدم ولا شك بجيوش المارق الحسن بن عبيد الله بالرملة . فاثبتوا امامهم ، وسيكون النصر حليفكم . اما انا فسأبقى هنا توطيدا لمركزنا ، وقطعا لاذناب الفتنة . حتى يمتد رواة السلام على جميع مناطق نفوذنا بحول الله .

جعفر بن فلاح : اني وان كنت ارى نفسي جديرا بالاقامة معكم هنا لكن اخلاصي للعهد الذي قطعته لامير المؤمنين مولانا المعز يفرض علي مواصلة الكفاح من اجل خدمة القضية الكبرى والتي من اجلها غادرت وطني وفارقت عشيرتي واولادي وقطعت مجاهل بين المشرق والمغرب . يهلك فيها العريف . فاعتمد علي وساكون بحول الله القائد الحكيم كما كنت الجندي المخلص .

جوهر : أيدك الله بروح منه وسدد خطاك الى سبيل الفلاح . فاعدد العدة من الآن . وليكن خروجكم صباح الغد الباكر .

حاجب جوهر : مولاي قد اقبل وفد الاشراف والقضاة والعلماء والتجار من اهل مصر لاداء فروض الهناء والطاعة يتقدمهم الشريف ابو جعفر مسلم العلوي والوزير ابو الفضل جعفر بن الفرات .

جوهر : (يقف لاستقبال الوفد — ثم يدخل الوفد فيتقدم ابو جعفر مسلم ويسلم عليه . فيوقفه جوهر على يمينه ويوقف الوزير ابن الفرات عن يساره وبعد ان ياخذ كل مكانه يتقدم الحاجب ويرفع صوته بكلمة :)

الحاجب : الأرض ...

(فيقبل جميع افراد الوفد الارض بين يدي جوهر ما عدا الشريف والوزير — ثم يتقدم للسلام عليه جميع افراد الوفد واحدا بعد واحد . وفي اثناء ذلك يسمع صوت قارىء يرتل سورة الانفال قوله تعالى :)

صوت القارىء : « ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين . ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون . واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون . وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم . وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين والف بين قلوبهم . لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم . »

ستار

الفصل الثالث
المشهد الثالث

(يرفع الستار عن سلة كبرى في ناحية عين شمس بالقرب من برزخ السويس وقد عسكر فيها جيش القرامطة بقيادة زعيمهم الحسن بن احمد استعدادا للهجوم على القاهرة . ويرى بعض جواسيس الفاطميين مختلطين بجيش القرامطة لالقاء بذور الفزع والفتنة بينهم)

جاسوس فاطمي : (يخاطب جاسوسا فاطميا آخر) هل أتممت ما قررناه ؟

جاسوس فاطمي (2) : كل شيء على احسن ما يرام . وقد بدأ سوس الاضطراب ينخر هيكل جيش القرامطة .

(يظهر جنديان قادمين فيحول الجاسوسان مجرى الحديث ويسمع بينهما الحوار الآتي)

الجاسوس (1) : ان موت جعفر بن فلاح والتمثيل به من طرف قائدنا الحسن بن احمد قد كان له الأثر المطلوب في صفوفنا . فلولا ذلك لما قدرنا ان نسترد بلاد دمشق ونطرد منها اولئك الوحوش الغلاظ الذين امطرتنا بهم سماء القيروان صواعق متفجرة وحجارة مسمومة .

الجاسوس (2) : ان جعفر هو الذي جنى على نفسه بنفسه . فلقد اغتر بانتصاراته في فلسطين والشام . وداخله العجب فترفع عن مكاتبة جوهر وصار يراسل مولاه المعز رأسا . وهذا رد عليه جميع رسائله بدون ان يفتح ولو واحدة منها . بل وكاتبه مؤنبا له على سوء سلوكه وتنطعه ، وامره ان يكتب بكل شيء الى جوهر بصفته رئيسه المباشر والقائد الاعلى لجيوش المعز في الشرق .

الجاسوس (1) : وهل عمل جعفر باشارة المعز ؟

الجاسوس (2) : كلا . بل ابى واستكبر وتمادى في عتوه وكبريائه .

(يتداخل جندي قرمطي في الحديث)

جندي قرمطي (1) : وبلغ من امره انه عندما طلب منه الامان جماعة من أفاضل دمشق رفض طلبهم حتى يخرجوا اليه ومعهم نساؤهم مكشوفات الشعور يتمرغن في التراب بين يديه ، فرضوا بذلك صاغرين . واطلق العنان لجنده فعاثوا في البلاد فسادا . واستمر هذا الطاغية على جبروته حتى حلت به ساعة الانتقام الرهيب . فتنمرنا عليه وفتكنا به وبجيشه شر فتكة . ولنطبق عليه قول الشاعر الحكيم :

ولا تحقرن كيد الضعيف فربما
تموت الافاعي من سموم العقارب

جندي قرمطي (2) : ان الافعى لم تمت ايها الابله بل قطع ذنبها لا غير . نعم لقد مات جعفر واسترجعنا دمشق ، ولكن جوهر الطاغية لم يمت ومصر ما زالت تحت نفوذه .

الجاسوس (1) : الم يبلغكم ان قائدنا الحسن قد ارصد جائزة قدرها خمسون الف دينار لمن ياتيه براس جوهر ؟

الجاسوس (2) : (بلهجة المستهزىء) خمسون الف

دينار جائزة ؟ يا له من رزق وفير ! ولكن الزعيم علق على هذه الجائزة بالثريا فلا تبلغ لها الا يد مارد من الجن .

جندي قرمطي (3) : طاب مساؤكم ايها الاخوان .

احدهم : حياك الله ايها الرفيق .

الجلسوس (1) : هل من نبأ جديد ؟

الجندي (3) : يقال ان حالة جند الفاطميين المعنوية سيئة الى درجة اليأس

الجلسوس (1) : وكيف ذلك ؟

الجندي (3) : لقد وصل اليوم الى معسكرنا كثير من اهل مصر وحتى من جنود جوهر فارين من كابوس هذا القائد وشيعته .

الجندي (1) : وكيف ذلك ؟ الم تقل جواسيسنا الذين دخلوا القاهرة واختلطوا باهلها : ان الاقوات لديهم موفورة . وحسن معاملة جوهر لهم صارت حديث النوادي ؟ والامن باسط جناحيه على مناطق نفوذه ؟

الجلسوس (2) : اذن فمن الجائز ان نمكث وراء هذا السور حتى ينفد زادنا ونهلك جوعا في هذه الجهة النائية ولا ننال منهم شيئا ؟

الجلسوس (1) : ولا ننس ايها الرفاق ان البحر من خلفهم واسطولهم يمدهم بما يحتاجون اليه من اقوات وعدد ومتاع . ولذا فلا عجب اذا ما عزموا على تركنا هنا حتى نيأس ونستسلم ونموت عطشا وجوعا .

جندي (2) : أونرجع من حيث اتينا ؟

الجلسوس (2) : ليت الامر يقف عند هذا الحد ..

الجلسوس (1) : وماذا هنالك ايضا ؟

الجلسوس (2) : الم يبلغكم خبر ارسال جيش جرار من القيروان الى مصر بقيادة ابي محمد الحسين بن عمار لتعزيز جنود جوهر هنا ؟

(يظهر الرعب على وجوه الباقين)

الجلسوس (1) : بخ بخ ... يا للخبر المشؤوم .

(يسمع الحديث اغلب جنود الحامية فيتأثرون من ذلك وتظهر منهم حركة تدل على دبيب روح التمرد فيهم ..)

الجندي (1) : كلكم الى مقر القائد الاعلى للتفاهم معه في أمرنا .

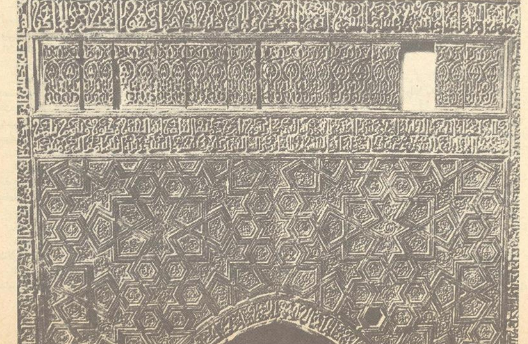
الجلسوس (2) : (صارخا) الى عين شمس .... الى المعسكر العام ....

(يخرج جميع الجنود قاصدين القائد العام الحسن بن احمد ويبقى المسرح خاليا وبعد لحظة يظهر جندي من جواسيس جوهر كان مختفيا وراء كمة ويتقدم بخطوات بطيئة مستترا بالظلام ثم يشعل عود ثقاب ويرفع يده به مرتين اشارة الى جيش الفاطميين المرابط وراء سور القاهرة ليفتحوا الباب ويبدأ بالهجوم على جيش القرامطة ثم يظهر جند الفاطميين كسيل متدفق مهاجما جيوش القرامطة على حين غفلة - تسمع على بعد ضوضاء الجيوش واصوات الخيول وقعقعة السيوف ثم يظهر جوهر وهو ينادي في جيشه ...)

جوهر : (شاهرا سيفه) الى المارقين الخائنين ... الى الفتك بالقرامطة الارجاس . دافعوا عن بلادكم يا اهل مصر . ذودوا عن اعراضكم واموالكم ... لا تاخذكم في حربهم رحمة ولا هوادة ...

(الجيوش تزحف والفوضى تعم وجنود القرامطة فارين منهزمين)

ستار



الفصل الرابع

المشهد الأول

(يرفع الستار عن بيت كبير في قصر المعز الذي انشأه له جوهر بالقاهرة وهو مؤثث تأثيثا فخما بديعا ـ ويرى اثنان من اتباع جوهر يهيآن القاعة لاقتبال الخليفة المعز . احدهم يدعى عامرا والثاني العباس وهما من المصريين الذين دخلوا في خدمة جوهر ..)

عامر : (يخاطب العباس) أبقي لك شك ايها الابله في قوة جيش جوهر وتفوق المغاربة في اساليب الحرب ؟ فالآن قد توطدت اركان دولتهم بارض مصر . وبعد قليل سيحل هنا ركب الخليفة الفاطمي . وتطوى تماما صفحة الدولة الاخشيدية وهذا ما تنبأت به منذ اليوم الاول لهجوم جيوشهم علينا . ولكنك عارضتني اذ ذاك . فما رأيك الآن ؟

العباس : (يلتفت في حذر) ماذا كان يفعل جوهر بجنوده لو لم نناصره نحن ؟ ألم يكن مدينا بالنصر لما قام به المتطوعون منا ؟

عامر : وهل كنا نقدم على مؤازرة الفاطميين لو لم نر بلادنا مهددة بغزو القرامطة الاشرار ؟ واموالنا وارواحنا معرضة للهلاك والبوار ؟ فاخترنا هؤلاء على اولئك . وحتى في المصائب يمكن الاختيار .

العباس : وعلاوة على ما قمنا به من جهود جبارة في كسر شوكة المقاومة فان جوهر قد احتاط للامر ودبر حيلة قبض بها على الف وثلاثمائة من اشجع رجال الاخشيدية .

عامر : وما هي تلك الحيلة ؟

العباس : لقد نادى جوهر في الأخشيديين فاجتمعوا وأعد لهم طعاما فاخرا واقسم لهم على المصافاة ثم قبض عليهم وقيدهم والقى بهم في أعماق السجون ، ولم ينج من هذه المكيدة الا القائد (تحرير) وبعض اتباعه

عامر : وماذا كان من امر تحرير ؟

العباس : (بصوت منخفض وفي احتراز) يقال انه اعتصم بمكان مهجور في الناحية القبلية وصار يأتي كل ليلة الى المدينة متنكرا ليتسقط اخبار العلويين ويرجع الى مكمنه ملتحفا بسدول الظلام . وقد بلغت به الجرأة ان فتح خيمة بمعسكر جوهر فوجد بها احد القواد نائما فاغتاله ظانا انه القائد جوهر .

عامر : وكيف نجا من سيوف الحراس ؟

العباس : نجا بحيلة شيطانية . حيث ارتدى ملابس القائد القتيل وخرج امام الحراس بدون وجل وهم يظنونه قائدهم ولم يتفطنوا للحادثة الا بعد نجاة تحرير .

عامر : وهل تقدر ان تفعل ما فعل تحرير ؟

العباس : (مضطربا) وما معنى سؤالك هذا ؟

عامر : (بدهاء) معناه لو كلفت بمهمة اغتيال القائد جوهر مثلا او الخليفة المعز اذا حضر هنا . فهل تقدر على ذلك ؟

العباس : (ينتفض رعبا ويسقط مغشيا عليه ـ فيغير عامر الحديث)

عامر : انهض يا اخي ... ما بك . ؟ انه ما زال المسكين تعتريه نوباته العصبية ... لا حول ولا قوة الا بالله ... هيا ... انهض ... لا باس عليك ...

(عباس ينهض متثاقلا ناظرا يمينا وشمالا ثم يأخذ في اصلاح الاثاث وهو كالمدخول في عقله)

(يدخل حاجب جوهر ومعه احد القواد)

الحاجب : (لعامر وعباس) هل اعددتما كل شيء ؟

عامر : نعم .

العباس : (مضطربا) لا ... نعم ...

الحاجب : (في شدة) يظهر انك لست اهلا لما كلفت به ؟

العباس : (في شبه غيبوبة) نعم ... والله لا اقدر على ذلك .

الحاجب : انك مجنون يا هذا ...

العباس : مجنون واكثر من المجنون ان فعلت ...

الحاجب : انني لم افهم ما تقول ؟

عامر : (يجذب العباس من يده ، ويدفعه الى الخارج ويقول :) انه يا مولاي مصاب بمرض يشبه الجنون يفقده الادراك ويصيره يهذي كالمجانين ولا يحس بنوباته الا عندما يشتد به الفرح ونحن ـ ولا شك في يوم فرح وسرور .

الحاجب : الجنون فنون .. حسن ... انن كل شيء جاهز . فاذهب الآن .

(يخرج عامر ويبقى الحاجب والقائد)

الحاجب : اليوم تصبح مصر دار خلافة بعد ان كانت دار إمارة .

وقد صارت والحمد لله مهد الخلافة العظمى بدل القيروان والمهدية ...

القائد العلوي : ولكن لا تنس ان المعز بنقلة مقر الخلافة من المهدية الى القاهرة سيفقد دولته بلاد افريقية الغناء الى الأبد .

الحاجب : وما ظنك بشيخ صنهاجة بلكين بن زيري الذي استخلفه المعز على بلاد افريقية كلها ، وفوض اليه امرها والزم أهلها بطاعته ، والائتمار بأوامره ، وزاد عن ذلك بان خلع عليه لقب (أبا الفتوح يوسف) ؟ (1)

القائد العلوي : ملك عظيم وهبه الله لرجل عظيم . وسوف لا يلبث ذلك الداهية الاشمط ان ينادى به خليفة على بلاد افريقية كلها . فقبائل البربر العاتية يجلون شيخ صنهاجة اجلالا يداني العبادة . وعشيرة بلكين معتزة بابطالها ، منيعة بجبالها ، ثرية باموالها . وقد اختار المعز زعيمها هذا لان اباه زيري بن مناد كان اول من تأمر في قومه وقاد الجيوش لنصرة العبيديين ووطد اقدام الفاطميين على هام جبال الاطلس المنيعة في ربوع المغرب الاقصى .

(يدخل قائد آخر من قبل جوهر)

القائد الثاني : السلام عليكم .

الحاجب : وعليك السلام . هل من جديد ؟

القائد (2) : لقد تسنى للذئب بدهائه ان ينفلت من براثن الاسد .

الحاجب : اي ذئب تعني ؟

القائد (2) : الوزير جعفر بن الفرات .

الحاجب : سمعت انه عازم على عدم الخروج للاسكندرية للقاء مولانا الخليفة هنالك ، فماذا كان من امره ؟

القائد (2) : لقد آذعن جعفر لاشارة بطانته من زعماء السنيين وخرج لاقتبال الخليفة .

الحاجب : ثم ماذا حدث ؟

القائد (2) : لما تقدم الوزير للسلام على مولانا المعز سأله هذا قائلا : هل حج الشيخ فقال الوزير نعم . فقال الخليفة . وهل وهل زرت قبر الشيخين ابي بكر وعمر ؟ ولما راى جعفر ان المعز قصد بهذا السؤال احراجه والايقاع به ، أجابه على البديهة قائلا : شغلني عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما شغلني امير المؤمنين عن السلام على ولي عهده . السلام عليك يا ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته .

الحاجب : وأي اثر تركه هذا الجواب في مولانا المعز ؟

القائد (2) : انه أعجب به غاية الاعجاب . وكانت نتيجة ذلك ان عرض عليه الاستمرار في منصب الوزارة ولكنه اعتذر عن ذلك وأبى .

الحاجب : صدقت والله في قولك : انفلت الذئب ...

القائد : اليك هاته الرسالة (يسلم للحاجب رسالة)

الحاجب : يفتح الرسالة ويقرؤها بصوت مرتفع « الحمد لله ، بعد إقامة ثلاثة أيام بالجيزة عبر في خلالها جنودنا الظافرة الى ساحل مصر . اجتاز اليوم (1) مولانا الامام وادي النيل ودخل القاهرة وهو الآن في طريقه الى قصره المأنوس فلستعدوا لاقتباله كما يجب والسلام . »

الامضاء

جوهر

القائد (1) : . كل شيء جاهز وعلى ما يرام .

الحاجب : (لمن حوله) افتحوا جميع ابـواب القصر وليصطف الجند حسب الاوامر صفين يمينا وشمالا ولا يباح لأحد اختراق الصفوف مهما كانت هيئته ومهمته ... وكل مسؤول عما عهد به اليه .

(يخرج الجميع الا الحاجب ـ تسمع اصوات كثيرة عن بعد تأخذ في الاقتراب شيئا فشيئا ...)

صوت : (يسمع من الخارج ولكن في وضوح وقوة :) حل المعز بمصر ـ فحل فيها الهناء

بـــدر تالـــق فينـا
فازداد منـــه السنـاء

يا باعث الامن فاسلم
لـــك النفـــوس فـداء

اصوات كثيرة : عاش مولانا المعز ... أيد الله مولانا المعز ... عاش أمير المؤمنين ... عاش امير المؤمنين ....

الفصل الرّابع
المشهد الثالث

(خلال تلكم الضوضاء يظهر المعز لدين الله تحف به حاشيته وهو في منتهى الابهة والعظمة وبعد أن يجلس على العرش الذي أعد له يبقى الجميع وقوفا ـ فينادي الحاجب)

الحاجب : (بصوت جهوري) شكرا لله ...

(فيخر المعز وكل من معه ساجدين شكرا لله تعالى ثم يقوم ويجلس على العرش المحلى بالذهب ...)

جوهر : الوفود بالباب يا مولانا .

المعز : ليدخلوا على الرحب والاكرام .

(تأخذ الوفود في الدخول لتقديم فروض الطاعة والهناء وجعفر يقوم بمهمة التقديم .)

جوهر : (مناديا) وفد الاشراف (وهم داخلون) وفد الاولياء (يدخلون) وفد وجوه المدينة والاعيان (يدخلون)

المعز : (عندما تدخل جميع الوفود يقف فيهم خطيبا :)

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله والصلاة والسلام على رسول الله المجتبى، وحبيبه المصطفى، محمد بن عبد الله وعلى خير الناس بعد الرسول امير المؤمنين علي بن ابي طالب صلوات الله وسلامه عليه . وبعد ، فيا اهل هذا البلد الطيب المبارك ، ها أني أنزل بواديكم وأحل بـين ظهرانيكم . وقد غادرت بلاد المغرب بعدما بلغنا في الفتـح اقاصيها . وأخضعنا متمرديها وعاصيها ، ومددنا رواق الامن في ربوعها ، ودانت لنا بالطاعة جموعها ، وتآلفت قلوب ساكنيها على البر والتقوى وبعد ما كانوا يتناهرون ظلما وعدوانا . قد أصبحوا بنعمة الله اخوانا ـ يا آل مصر إني ما أتيتكم هداما أفاكا ، ولا غاصبا سفاكا ، ولا متطلبا لمال ، أو راغبا في قتـل ، لازيد بذلك في سلطاني، ويعظم بين الناس شاني . كلا ورب البيت والحطيم . والنبيء الكريم ، بل ما قصدت إلا إقامة قسطاس الحق المبين . وتوحيد كلمة المسلمين ، ورد عدوان المعتدين . أولئك الذين نقضوا عهود الطاعة ، وفسقوا عن الجماعة ، فكانوا حربا على أنفسهم . وويالا على بني جنسهم ، فأباحوا بذلك دماءهم ، وأغروا على أنفسهم أعداءهم ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وما كانـوا مهتدين . يا آل مصر . يا من وقفتم في وجوه جنودنا وحاربتمونا ضنا بشرفكم من أن يداس ، وخوفا على أعراضكم أن تهان بين الناس . فقد قامت الحجة عليكم ، وبان لكم عياناً أن رجال المغرب أولو كرم وشهامة ، وعطف واستقامة . ليسوا كما يزعم الزاعمون بوحوش كاسرة ، ولا ذوي طباع نافرة . يخفرون الذمام . ويستحلون الآثام . هل من مبلغين عن رجالي انهم هتكوا ستورا ، واقترفوا فجورا . أو تعرضوا بسوء لذوات الخدور ؟ فان ثبت على واحد منهم شيء من ذلك . فاني ولي الانتقام منه في هذا الجمع الحفيل . ولو كان اقرب الناس الي وأعزهم على ...

(يسمع صوت شيخ هرم آتيا من أقصى القاعة)
(وهو يصيح ...)

صوت المتظلم تحرير : ظلامـــة فظيعـــة ... ظلامـــة مستنكرة ... اود رفعها الى مقام الخليفة .. طالبا انصافه ممن أهان لشيبتي وهتك عرض ابنتي ...

(تسمع همهمة بين الحاضرين)

المعز : (صائحا) أدن مني يا هذا ، واذكر اسم من ظلمك ليلاقي جزاءه الآن على مشهد من هذا الملأ ، خلوا سبيله افسحوا له الطريق ... تقدم يا رجل .

الشيخ : (يقترب بخطوات مرتعشة من سرير المعز وعندما يصل بالقرب منه ينحني مظهرا كأنه يريد تقبيل طرف ثوب المعز . واذا بصوت آخر يدوي في القاعة صارخا ....)

صوت آخر : الى الجاني الاثيم ... الى السفاك اللعين ...

(فيمسك جوهر ويعقوب بن كلس ذلك الشيخ واذا به يخفي تحت ردائه خنجرا أعده لاغتيال المعز ثم يتقدم صاحب الصوت الثاني من ذلك الشيخ ، وينزع عن وجهه ذقنه المستعار فاذا هو تحرير قائد عصابات المقاومة . تظهر على وجوه الحاضرين علائم الفزع والمباغتة)

جوهر : هو ذا انت يا خائن ؟ لقد وهبته روحه يا مولانا حينما تشتتت عصابته . وهلكت بطانته ، فجاءنـــا تائبـــا مستغفرا . وها هو ينكث العهد . ويكفر بالنعمة والآن قد وجب ان تحل به النقمة .

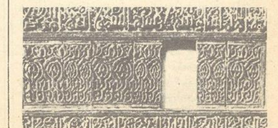
المعز : (مبتسما) اتركوه حرا طليقا ، وافعلوا كذلك مع جميع الاسرى . فلا تثريب عليهم اليوم ولا ملامة . يغفر الله لهم وهو راحم الراحمين .

تحرير : (يتأثر) ما أحلمك ؟ ما اكرمك ؟ إنني من الآن عبد ركابك ، وخادم جنابك . ولاثم ترابك .

المعز : وانتم ايها الاشراف والعلماء والوزراء والاعيان انطلقوا على وعد اللقاء معنا على مائدة طعامنا وأعينونا على استتباب الامن والسلام . فالملك بلا رعية كالراعي بلا اغنام . والرعية بلا ملك خراف شريدة . الذئاب تحرسها . والكواسر تؤنسها . وما ظنكم بشياه يرعاها سرحان ، ويحميها ليث فرثان ؟ فالله الله في بلادكم . فلا تجعلوها ميدانا لحرب شعواء ، وبركة للدماء . فان فعلتم فستجنون جنايتـــين . وتخسرون الصفقتين؟اما انا فحسبي قول ربي :

« وان يردوا ان يخدعوك فان حسبك الله . هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين .. »

(يقف المعز علامة عن انتهاء الاجتماع يخرج الحاضرون ما عدا المعز وخاصة أتباعه والرجل الذي كشف مؤامـــرة تحرير ....)



الفصل الرابع
المشهد الرابع

(المعز ـ جوهر ـ يعقوب بن كلس ـ بدر الدجى ثم يأتي اسماعيل بوارو ـ والحاجب ....)

المعز : (لجوهر) من هذا الرجل الذي كشف المؤامرة ؟

جوهر : عرفته يا مولانا باسم ابي سعيد المهدي . وهو من اهل هذا البلد المتفانين في حبكم ، الذائدين عن حياضكم . عرفته في احرج مواقف جهادنا فكان ساعدي الاقوى ، ودليلي المخلص . وفد علي في ليلة ليلاء وأمدني بوثيقة خطيرة الشأن كانت السبب الاكبر في نجاحنا . ولولاه ـ والحق يقال ـ لما اهتدينا الى مسالك النيل التي يسهل العبور منها الى الضفة الاخرى . ومن ذلك اليوم صار الزم الي من ظلي . واطوع من بناني .

المعز : سيكافأ بما يجازى به المخلصون امثاله . اكتب له يا يعقوب بولاية الاسكندرية . وسيكون زوجا لاحدى بنتي فهو جدير بمصاهرتي حقيق بالانتساب الي ...

ابو سعيد : ان كاهلي يا مولانا عاجز عن تحمل هذه المنة الكبرى . واني ـ والحق اقول ـ لا اصلح الا ان اكون ظلا لغيري وتابعا لسواي . وعلاوة على ذلك فاني ...

المعز : انك ماذا .. ؟

ابو سعيد : اني .... اني يا مولاي .. لي سر اود ان افضي به اليكم في خلوة ....

المعز : (متعجبا) سر ؟

ابو سعيد : نعم ....

المعز : لتكن خلوة .... (يخرج الجميع ولم يبق الا المعز وابن سعيد)

المعز : اذكر سرك يا ابا سعيد . فنحن الآن في نجوة عن كل عين ورقيب

ابو سعيد : انني أمتك (بدر الدجى) يا مولاي لا ابو سعيد كما عرفت بين بعض الناس .

المعز : (مندهشا متعجبا) ماذا تقول ؟ اذكر الحقيقة . يا هذا فلسنا الآن في موطن مزاح ومداعبة ؟

بدر الدجى : (تزيح عن وجهها الذقن المستعار وغطاء راسها فتظهر فتاة بادية الجمال . فاتنة المحيا)

المعز : (متعجبا) ماذا ارى .. ؟ فتاة في مثل هذه الجراة والاقدام ؟ اذكر قصتك . والتزمي الصدق فيما تقولين .

بدر الدجى : حنانيك يا مولاي ! اني فتاة من سلالة علوية نشأت بمدينة القيروان . وقد جاء ابي الى مصر مع جيش جدكم المقدس مولانا القائم بأمر الله . ولما فشلت الحملة وقتئذ . استوطن والدي البلاد المصرية وتزوج بوالدتي هنا . وقد رزق منها بنتين انا واختي . وأخفى حقيقته عن جميع الناس . وانتحل صناعة التنجيم والعرافة جاعلا منها وسيلة لبث الدعوة الفاطمية بطريقة غير مباشرة . وقد نجح في مهمته تلك . وكون جمعية سرية لنشر الدعوة الفاطمية بطرق متغايرة . وكانت هذه العصابة على اتصال دائم مع دولتكم يا مولاي فربيت انا واختي على مبدا التفاني والتضحية في سبيل نجاح القضية العلوية .

المعز : وما اسم ابيك ؟

بدر الدجى : عرف بين الناس باسم ابي النعمان المهدي ...

المعز : (يقاطعها) وهل كان سليم العينين ؟

بدر الدجى : كلا يا مولاي . لقد اصيب بفقد عينه اليسرى في احدى الوقائع الحربية ضد جيوش الاخشيديين .

المعز : وهل كان محظوظا عند كافور ؟

بدر الدجى : لو لم تعاجله المنون لارتقى عند كافور الى اعلى المناصب . وذلك لان والدى هو الذي تنبأ لذلك العبد بارتقائه الى اريكة الملك وهو اذ ذاك حقير ذليل . ولما خدمه الحظ وصار يحكم البلاد المصرية تذكر ابي فقيل له انه توفي وترك بنتين انا واختي فارسل في طلبنا واغدق علينا النعم واسكننا في قصر فاخر ، ولما كنت غير ذي زوج . حاول تزويجي من احد اتباعه ولكني عارضت في ذلك وابيت .

المعز : وعلام رفضت الزواج ؟

بدر الدجى : ان من اختاره لي كافور لاكون قرينته كان من أشد الناس عداء للفاطميين .

المعز : واخيرا ... ؟

بدر الدجى : زوجوني منه يا مولاي قسرا . وحطموا بذلك الزواج قلبي واطفأوا نورا كان يملأ فراغ نفسي . ولم تطل يا مولاي مدة هذا الزواج حتى فرقت يد الموت بيني وبين ذلك الزوج البغيض .

المعز : وهل مات زوجك حتف انفه ؟

بدر الدجى : قيل لي مات في وقعة ضد جيوشكم يا مولاي لكني تيقنت فيما بعد انه لقي حتفه بسبب مكيدة دبرت له من طرف (تحرير) الذي حاول اغتيالكم الساعة .

المعز : ولماذا ؟

بدر الدجى : ليخلو له الجو ويتزوج مني بعدما أعيته الحيل في استمالتي اليه بشتى الوسائل ، ولما ايقنت بان لا مناص لي من شره ، تظاهرت بالرضا . وكنت أعده بالزواج وأمنيه حتى حانت فرصة الخلاص ففررت من بيته فعندما سلبته الوثيقة التي امضى عليها مع زعماء المقاومة اسرار هامة منها مؤامرة اليوم .

المعز : بارك الله فيك من فتاة تغبطك الرجال وتعتز بك ذوات الحجال . كنت اود ان اراك زوجا لابنتي والآن ستصيرين زوجة لولدي .

بدر الدجى : (يظهر عليها التأثر والخجل)

المعز : (يدرك عليها ذلك) مالك ... ؟ ألا تودين ان تكوني قرينة العزيز وارث ملكي وجاهي ؟ ام ما زال قلبك يخفق للحبيب الأول ؟ (ينظر اليها نظرة استفهام)

بدر الدجى : ومن تعني بالحبيب الاول يا مولاي ؟

المعز : (في شيء من الحدة) ذلك المصور الافاق .

بدر الدجى : (في دهشة) أتعني اسماعيل ؟

المعز : (بغضب) نعم ... اسماعيل بوارو المسلم الجديد أتعرفينه ؟

بدر الدجى : (بفرح) ليته كان حيا لاراه ...

المعز : انه حي ... ولكنه سيفقد الحياة ...

بدر الدجى : (فزعة) انك ستندم على ذلك ان فعلت يا مولاي ...

المعز : (بشدة) أندم ؟ حسن ! اعلمي اني لم أندم على شيء فعلته في حياتي قط ، أفهمت ذلك يا بلهاء ؟

بدر الدجى : عفوكم يا مولاي ... هنالك صوت في رقة النسيم العليل ، وعذوبة الامل المنشود ، وحنان نغم الناي الحزين ، هو صوت ملكي طاهر رقيق ولكنك ستسمعه انت مدمدما كهزيم الرعد مدويا كانفجار البراكين ملعلعا كهوج الرياح العاصفة . مفزعا كأصوات ملائكة العذاب ، صوت ينبعث من اعماق رمس مهجور صوت يتخطى البحار ، ويقطع شاسع الاقطار في لمح البصر او اقل صوت يهيب بك صارخا ... الله في ابنك يا معز الله في فلذة كبدك لا تلطخ يدك بدم بريء انت جنيت عليه باهمالك امره . وجهلك لسره ....

المعز : (في غاية التأثر) صوت من يا الاهي . ؟ تكلمي ... عجلي ... بالجواب ... لقد غار معين تصبري .

بدر الدجى : صوت مريم الصقلية .. اتذكرها يا مولاي ... ؟

المعز : (بتعجب) مريم ... ؟ مريم .. ومن الذي ذكر لك هذا الاسم وافضى اليك بالسر الدفين ؟

بدر الدجى : ألم تكن مريم تلك زوجتك سرا في يوم ما . ؟

المعز : نعم ... ولكن مريم قد ماتت غريقة بالمهدية ولم يعثر على جثتها ...

بدر الدجى : هكذا قيل لك ... ولكن الخبر اليقين تعرفه أم الامراء زوجتك مولاتي تغريد ...

المعز : تغريد زوجتي ؟

بدر الدجى : نعم يا مولاي ، هي التي شردتها . واشاعت خبر موتها غرقا . ثم كلفت بها من يقتلها لما تحققت من حبك لها وانها حامل منك ، ولكنها نجت من المكيدة ورجعت الى صقلية مسقط راسها . وهناك وضعت ابنكما (اسماعيل) كما سمته هي . و (جول) كما عرف بين ألها وذويها ثم ماتت وهو طفل في الثانية من عمره .

المعز : يمكن ان تكون هذه رواية نسجها خيال فنان فهل من جهة تثبت ذلك ... ؟

بدر الدجى : هل يكفي هذا الاثر لتحويل الرواية الخيالية الى حقيقة لا ريب فيها ولا جدال .. ؟

(تسلمه سلسلة ذهبية بها قطعة كالدينار كتب على احد وجهيها اسم المعز وعلى الوجه الآخر نقش اسم مريم مع التاريخ ..)

المعز : (في دهشة) عجبا . (ثم يتناول السلسلة ويمعن فيها النظر) ومن أين لك بهذا الاثر ؟

بدر الدجى : اما القصة فهي اخر ما أفضى به الي قبل ان يفارق الحياة . واما هذا الاثر فقد أهداه لي اسماعيل كعربون على الزواج ، وهو لا يعلم عن حقيقته شيئا غير ان والدته مريم لما حان وقت وفاتها سلمته اليه وأمرته بالاحتفاظ به احتفاظه بروحه التي بين جنبيه . وقد أشارت عليه بالالتحاق بمصر بعد وفاتها والاتصال بوالدي الذي يعلم بالقصة من أولها الى آخرها ..

المعز : تممي حديثك . فالرواية الخيالية قد انقلبت الى مأساة حقيقية تدمي القلب وتذيب الفؤاد .

بدر الدجى : وصل اسماعيل الى مصر بعد وفاة امه ، واتصل بوالدي الذي اعلمه بجلية الخبر بعدما تحقق منه وأوصاه بالكتمان . وقد عاش اسماعيل بيننا حقبة من الدهر كانت كحلم لذيذ قصير وصح عزم والدي على تزويجي من اسماعيل . فسلم

الى هذا النوط عربونا على زواجنا المقبل . ولكن المنية عاجلت والدي فمات قبل ان يبلغ مناه وتركني تحت رحمة زوج اختي الفظ الغليظ فاطرد اسماعيل من بيتنا وصمم على عدم تزويجي منه . ولما يئس اسماعيل من مسألة الزواج غادر البلاد ملتحقا بعاصمة ملككم . ومن ذلك الحين انقطعت عني اخباره حتى اليوم .

المعز : (بتأثر) لا حول ولا قوة الا بالله ... ادخلي الخدر ريثما ادعوك . واذا ناديت اخرجي مقنعة ...

بدر الدجى : امر مولانا (تدخل وراء الستر)

المعز : (يصفق)

الحاجب : مولاي ؟

المعز : علي باسماعيل المصور حالا .

الحاجب : امر مولانا (يخرج)

المعز : (منفردا) يمعن النظر في السلسلة ويقول :) هذه جناية التسري . اللهم عفوك وغفرانك .. ولدي يشب على دين غير دين ابيه . ويحمل لقبا غير لقبي وفي عروقه يجري دم فاطمة الزهراء ... إنا لله وإنا إليه راجعون .

(يدخل الحاجب واسماعيل)

اسماعيل : السلام على مولانا .

المعز : وعليك السلام اجلس هنا بجانبي . (منفردين) قل لي يا اسماعيل اين بدر الدجى ؟ الم تقل انها في قصور آل الاخشيد ؟

اسماعيل : (بعد سكوت قليل) لست ادري يا مولاي

المعز : ألعلك خدعتنا بحكايتك وجعلت بدر الدجى اسما لغير مسمى ؟

اسماعيل : كلا وحياتك يا مولاي . (ثم يضطرب ويسقط على أقدام المعز يلثمها) العفو يا مولاي . ان بدر الدجى لم تكن من نساء الاخشيديين . ولم تسكن قصورهم قط ، يا مولاي

المعز : اذن فمن هي ؟ اذكر الحقيقة .

اسماعيل : هي فتاة أواني ابوها وعطف علي عطف الوالد على والده الوحيد ووعدني بتزويجي من ابنته تلك . فتحاببنا الى درجة الوله والجنون . وكنا نمني النفس بحياة زوجية سعيدة ولكن الاقدار أبت علينا ذلك . ومات الامل العذب الجميل بموت ابيها . فانفت الحياة بمصر وهمت على وجهي أعيش في عالم من ذكريات وأحلام . واتخذت من فني علالة وسلوى .

المعز : اني وددت ان اريك فتاة لتجعل لها صورة تفرغ فيها ما اوتيت من مهارة الفن وابداع الخيال واياك ان يأسرك جمالها . كما أسرك جمال بدر الدجى . (صفق المعز) اخرجي ايتها الفتاة .

بدر الدجى : (تخرج من وراء الستار مبرقعة)

المعز : ارفعي نقابك

(بدر الدجى ترفع عن وجهها النقاب وعندما يراها اسماعيل يكاد يجن من غريب المفاجأة ـ كما ان بدر الدجى تظهر عليها علائم الارتباك والخجل ..)

المعز : (لاسماعيل) هدي روعك .. ما بك تضطرب ؟ انظر . هل تشبه هذه الفتاة بدر دجاك ... ؟

اسماعيل : (يكاد يختنق) إلاهي .... انها تشبهها تماما .... لا .... انها هي وربي ....

المعز : انها بدر الدجى عينها . وها قد جمع الله شملكما بعد طول افتراق ، وساجمع انا بينكما برابطة الزواج .

اسماعيل : يقبل الارض بين يدي المعز .

المعز : (يناوله السلسلة الذهبية ويقول له :) ولتكن هذه رابطة قلبيكما في الآتي . كما كانت عربون حبكما فيما مضى ـ (يصفق) أذن من كانوا معي بالدخول مع قاضي الجماعة .

الحاجب : امر مولانا (يخرج)

المعز : ادن مني يا اسماعيل . وانت يا بدر الدجى (يعانق هذا بيمينه وتلك بشماله ويقول :) انكما مني مكان ولدي ولكما علي ما لأبنائي من حقوق وواجبات . وليبق هذا سرا مكنونا في احشاء الزمان . (يقبلهما) والآن تحجبي يا بدر الدجى .

(يدخل جوهر والوزير والقاضي ومن كان معه من حاشيته)

المعز : خذوا مجالسكم . (يجلسون) ايها الوزير مر صديقك اسماعيل بما يحتاج اليه من مال ومتاع . وسنجري عليه الارزاق . وخصص له في قصري هذا جناحا فاخرا وليشهد مولانا قاضي الجماعة على زواجه من بدر الدجى هذه . فهي الفتاة الجريئة المخلصة التي استحقت الاعجاب والاكبار . فلها الشرف باسمها والفخر بعملها . وسيحفظ لها التاريخ في سجله صفحة خالدة تعتز بها الامهات . وتتفاخر بها الفتيات (حركة بين الحاضرين وتهامس) وليعلم الجميع اننا لم ندخل مصر طامعين في مال او نساء ، بل مهمتنا أهم من ذلك وأسمى . فما جئنا الى هنا الا لتوحيد كلمة المسلمين . وانشاء مملكة يقام في ربوعها قسطاس العدل . يعلو في ارجائها ذكر الله على الدوام ان شاء الله .

(يسمع صوت مؤذن ينادي للصلاة بصيغة اهل الشيعة ...)

صوت المؤذن : حي على خير العمل .... حي على خير العمل .... الله اكبر .... الله اكبر .... الله اكبر ......

(يقف الجميع تاهبا للصلاة والستار ينزل رويدا رويدا .....)

ستـــار
الختـــام

